عروس فرغانة

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الثانية عشرة من روايات تاريخ الإسلام

تتضمن وصف [illegible] الدولة العباسية في عهد المعتصم [illegible] سنة ٢١[illegible] —

٢٢٢ هـ وقيام الفرس لإرجاع دولتهم [illegible]

[illegible] المملكة الإسلامية [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

جرجي زيدان

منشئ الهلال

الطبعة الثانية

[illegible]

سنة ١٩١٢

البريد	الثمن	سلسلة روايات تاريخ الاسلام
٣	٢٠	**١ — فتاة غسان . مجلدان (طبعة ثالثة)** رواية تاريخية غرامية هي الحلقة الأُولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تشرح حال الاسلام من اول ظهوره الى فتوح العراق والشام
٢	١٠	**٢ — ارمانوسة المصرية (طبعة ثالثة)** رواية تاريخية غرامية هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وفيها تفصيل فتح مصر والاسكندرية على يد عمرو بن العاص في صدر الاسلام (٦٤٠ م)
٢	١٠	**٣ — عذراء قريش (طبعة ثالثة)** رواية تاريخية غرامية هي الحلقة الثالثة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام . تتضمن تفصيل مقتل الخليفة عثمان وخلافة الامام علي وما نجم عن ذلك من الفتنة وواقعة الجمل وواقعة صفين الى تحكيم الحكمين
٢	١٠	**٤ — ١٧ رمضان (طبعة ثانية)** رواية تاريخية غرامية هي الحلقة الرابعة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وتتضمن مقتل الامام علي وبسط حال الخوارج وتمه الفتنة واستئثار بني امية بالخلافة وخروجها من اهل البيت
٢	١٠	**٥ — غادة كربلاء (طبعة ثالثة)** رواية تاريخية غرامية هي الحلقة الخامسة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وتتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها من مقتل الامام الحسين واهل بيته في سهل كربلاء
٢	١٠	**٦ — الحجاج بن يوسف (طبعة ثانية)** رواية تاريخية غرامية هي الحلقة السادسة من روايات تاريخ الاسلام تتضمن حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى فتحها ومقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان

عروس فرغانة

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الثانية عشرة من روايات تاريخ الاسلام

تتضمن وصف الدولة العباسية في عهد المعتصم بالله (سنة ٢١٨-٢٢٧هـ) وقيام الفرس لارجاع دولتهم بالسيف ونهوض الروم لاكتساح المملكة الاسلامية ويتخلل ذلك وصف آداب الاتراك وعاداتهم في أقصى بلادهم ووصف سامرا عاصمة المعتصم وواقعة البذ في حرب بابك وواقعة عمورية في حرب الروم وغير ذلك

تأليف

جرجي زيدان

منشئ الهلال

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

مقدمة الطبعة الاولى

هذه هي الحلقة الثانية عشرة من روايات تاريخ الاسلام وهي آخر كلامنا في الدولة العباسية في ابان مجدها لانها اخذت من عهد المعتصم وما بعده بالتفرع والتشعب وانتقلت السلطة السياسية الى اماراتها في خراسان وفارس والشام ومصر والمغرب وغيرها وبقيت لها السيادة الدينية فسنشرع من الحلقة الثالثة عشرة في وصف حال اهم تلك الفروع ونبدأ بدولة بني طولون بمصر ان شاء الله

ويزيدنا نشاطاً في هذا العمل ارتياح القراء لمطالعة هذه الروايات مع ما فيها من الفوائد التاريخية الاسلامية وما حوته من آداب المسلمين وعادات الامم التي احتكوا بها في ابان دولتهم حتى طبع اكثرها غير مرة . وقد وقع اسلوبها وقعاً حسناً عند الادباء وارباب الاقلام من المسلمين غير العرب في الهند وفارس وتركستان وسائر الشرق الاسلامي فاخذوا في نقلها الى لغاتهم . ومنهم من أخذ في نقل السلسلة كلها بالتتابع من فتاة غسان فما يليها ومنهم من نقل منها روايات متفرقة . فالذين أخذوا في نقل السلسلة كلها هم :

اولا — سمو البرنس عبد الحسين مرزا نقلها الى الفارسية وزين بعضها بالرسوم وقد نشرت في طهران وجاءنا أمثلة منها

ثانياً — الشيخ غلام محمد منشي جريدة وكيل الهندية في أمرتسار بالهند أوعز الى المولوي محمد حليم الانصاري فاخذ في نقلها الى اللغة الهندستانية (الاوردية) وقد ظهر منها عدة حلقات مطبوعة في مطبعة وكيل المشار اليها وعندنا نسخ منها

ثالثاً — السيد محمد كريم قاضي المسلمين في باكو من تركستان أخذ في نقلها الى اللغة التركية الاذربيجانية وجاءنا منه ترجمة رواية عذراء قريش وكتاب يقول فيه « كنت عازماً على تأليف تاريخ الاسلام في اللغة التركية الاذربيجانية التي هي لغة أبناء وطني خدمة لهم . فلما اطلعت على رواياتكم الغرامية في تاريخ الاسلام عزمت على نقلها الى اللغة المذكورة واكتفيت بها عن التآليف المخصوصة . . . فشرعت بعذراء قريش وسأنقل بعدها ١٧ رمضان فغادة كربلاء أما ارمانوسة فهي تحت الترجمة . ولما اطلع على حسن اسلوب الروايات وكثرة فائدتها رجل القوقاس محيي المعارف والعلوم الحاج زين العابدين تقي أوف قبل ان يطبع هذه السلسلة على نفقته . وقد تم طبع عذراء قريش بحمد الله وارسلناها اليكم ومتى ظهر غيرها ارسلناه في حينه . . » والطبعة المشار اليها في غاية الاتقان على ورق صقيل وحرف واضح

اما الذين نقلوا حلقات متفرقة من هذه السلسة أو غيرها من رواياتنا فنهم خليل افندى بيدس بدمشق والمستشرق فلاديمر دانيلوف في موسكو نقلا المملوك الشارد الى الروسية نقلين . وفرانس افندى شهاب بمرسين نقل اسير المتمهدى الى الفرنساوية. وقسطنطين افندى ثابت في بيروت نقل فتاة غسان الى الانكليزية . ومس هيكس في الناصرة نقلت عذراء قريش الى الانكليزية . وميرزا جعفر بن علي اكبر في تبريز نقل ابو مسلم الخراساني الى الفارسية غير نقل البرنس عبد الحسين . واكثر هذه الترجمات تحت الطبع . ومنها ترجمة فتاة غسان الى لغة هندية لم نقدر على قراءة كلمة منها لانها مكتوبة بالقلم الهندي الشائع في سيلان وسنقافورة وهو يخالف الاقلام المعروفة عندنا واللغة اسمها « الارويدية » . وقد بعث الينا نسخة من هـذه الترجمة حضرة السيد محمد بن سالم السكلالي في سنقافورة واخبرنا ان مترجمها هو الشيخ احمد غني مريكر من سكان ناقور . وكتب الينا السيد جلال الدين من كرانبور الهند يستاذن في ترجمة روايتي الامين والمأمون وجهاد المحبين الى اللغة الهندستانية (الاوردية)

هذه هي الترجمات التي بلغنا خبرها ولعل هناك ترجمات لم نعلم بها لان بعضهم لا يرى استئذان المؤلف لازماً . وفي كل حال فاننا نشكر لحسن ظن المترجمين والناشرين ونرجو ان نوفق الى اتمام هذه السلسلة وبالله نستعين

مقدمة الطبعة الثانية

وبعد صدور الطبعة الاولى لهـذه الرواية سنة ١٩٠٨ صدرت من سلسلة روايات تاريخ الاسلام ست حلقات وهي روايات احمد بن طولون وعبد الرحمن الناصر . والانقلاب العثماني . وفتاة القيروان. وصلاح الدين ومكائد الحشاشين . وشجرة الدر . وهذه الاخيرة تبحث في انتقال الديار المصرية من الدولة الايوبية الى السلاطين المماليك وبلغت حلقات سلسلة تاريخ الاسـلام ١٨ حلقة اكثرها طبع غير مرة والعمل متواصل لاتمامها والاتكال على الله . ولما نفدت الطبعة الاولى لرواية عروس فرغانة طبعناها طبعة ثانية هي هذه

الفصل الاول

فرغانة

هي مدينة كبيرة كانت عاصمة كورة فرغانة وكان الفرس يسمونها « اخشيكست » واقعة على ضفاف نهر جيحون على حدود تركستان والعرب يسمونه نهر الشاش والافرنج يسمونه نهر يكسارت والاتراك يسمونه سرداريا . وبيننا وبين فرغانة بعد شاسع مسافته بضعة اشهر فاذا اراد احدنا ان يسافر الى ضفاف جيحون اقتضى له ان يسير شرقاً فيقطع الشام فالعراق ففارس فخراسان . ويعبر نهر سيحون ويخترق بخارا وسمرقند واشروسنة فيصل الى ضفاف جيحون او نهر الشاش بعد ان يجتاز الجبال والصحاري والسهول والاودية ويرى في طريقه بين سيحون وجيحون امماً شتى تختلف لغة وطبيعة وديناً ناهيك بالمفاوز التي يعسر سلوكها لوعرتها وكثرة قطاع الطرق فيها واكثرهم من بدو التركمان وهم اهل خشونة وسطو

فالعرب لما قاموا للفتح بعد الاسلام فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس في بضع عشره سنة لكنهم لم يستطيعوا الوصول الى فرغانة الا في اواخر القرن الاول للهجرة فتحها قتيبة بن مسلم فاتح تركستان سنة ٩٤ هـ (١) ولم يستعمروها او يقيموا فيها الا بعد ذلك باعوام عديدة . وكانت تابعة لولاية خراسان بتأدية الجزية والخراج

ورغم ما تقدم ذكره من المفاوز والجبال في الطريق الى فرغانة كان المسافر ينتهي بعد تلك الاخطار الى نهر جيحون فيقطعه الى مدينة فرغانة على ضفته اليمنى او الشرقية فيرى فيها الاسواق والابنية والقصور وحولها الاسوار والابواب وخارجها الارباض والبساتين على ضفاف ذلك النهر المبارك في ارض مستوية مساحتها ثلاثة فراسخ . وفي شماليها جبل وعر على مسافة ميل منها . وفي وسطها قلعة عظيمة يقال لها في اصطلاح الفرس قهندز على عادة ابنية ذلك العصر تعتصم بها حامية المدينة عند الحاجة مبنية بناء متيناً بالاحجار الضخمة وسائر ابنية المدينة من الطين . حولها سور له

---

(١) ابن الاثير ٢٧٩ ج ٤

اربعة ابواب وحول هذا السور ارباض حولها سور ثالث بابواب ويتخلل المدينة والارباض مياه جارية وحياض كثيرة . وكل باب من ابواب الارباض يفضي الى بساتين ملتفة وانهر جارية لا تنقطع مقدار فرسخ لاتصالها بالنهر . فهي من انزه بلاد تركستان او ما وراء النهر (١)

وكان سكان فرغانة عند الفتح الاسلامي اخلاطاً من اهل البلاد الاصليين الذين يسمونهم « طاجية » وجماعات من جالية الهند والصين والترك . والطبقة الراقية فيهم جميعاً الفرس وقد كانوا ارقى المشارقة في ذلك العصر فكانت لهم الرئاسة والسياسة والنفوذ الادبي والديني لانهم كانوا ينقلون معهم تمدنهم حيثما حلوا ودينهم المجوسية ولغتهم البهلوية (الفارسية القديمة) وكانت البهلوية لغة الطبقة الراقية في الشرق الاقصى كما هو شأن اللغة الفارسية الحديثة الآن . وكانت لغة اهل فرغانة الاصليين التركية القديمة المعروفة بالشاغطائية

وكان على فرغانة عند الفتح امراء او ملوك يعرفون بلقب خاص بهم فيسمى احدهم « اخشيد » كما يسمى ملك الحبشة نجاشي وملك الروم قيصر وملك الفرس كسرى . وكان الاخاشيد كثيرين يتولون اجزاء كورة فرغانة . فلما دخلت في حوزة المسلمين والحقوها بامارة خراسان لم تبق حاجة لبقاء ملوكها ولم يعترضهم المسلمون في دينهم او عاداتهم او شيء من احوالهم فنزح بعضهم الى قلب المملكة الاسلامية في العراق وتقربوا من بلاط الخلفاء وخدموهم واعتنقوا الاسلام وتولوا الاعمال واشهرهم الاخشيد طغج بن جف صاحب مصر وظل آخرون في بلادهم يتمتعون بالسكينة والعيش الهنيء تحت ظل المسلمين



(١) معجم ياقوت ج ١

الفصل الثاني

عيد النيروز

اصبح اهل فرغانة في صباح يوم من ايام سنة ٢٢١ للهجرة وهم يتأهبون للاحتفال بالنيروز (رأس السنة) وقد اخذوا باقامة معالم الزينة فنصبوا الاعلام الملونة فوق منازلهم وعلقوا طاقات الرياحين على ابوابهم . وتقاطروا الى الاسواق يبتاعون الالبسة الجديدة لاولادهم ويحملون اطباق الحلوى الى اهاليهم فيبتاعون من المآكل مقادير تكفي لكل ايام العيد وهي سته . ولو دخلت المنازل لرأيت النساء قد اوقدن النيران لاعداد الاطعمة والحلوى واحمين الحمامات للاغتسال ورأيت الجواري يشتغلن بتحميم الاولاد والطبخ وعجن ارغفة العيد — وهي ارغفة كان يصنعها الفرس في ذلك اليوم من حنطة السنة الجديدة يحتفلون في صباح العيد باقتسامها ويتفاءلون با كلها استبشاراً بخصب تلك السنة وكانوا يتعاملون في ذلك اليوم بالنقود الجديدة ويتهادون الحبوب الجديدة على اطباق من الفضة ونحوها ويترامون بالبيض او الاثمار . وكانت الاسواق في ذلك الصباح غاصة بالمارة من الرجال والاولاد هذا يحمل قفة وذاك ينقل سلة وذاك يسوق حماراً او فرساً يتسابقون الى المنازل او الى بيت النار يحملون الهدايا لاولادهم او للموبذان كهان المجوس وقد تصاكت مناكبهم وتصادمت اقدامهم

ولو صعدت الى القلعة الكبرى (القهندز) القائمة في وسط المدينة واشرفت من سطحها على اطراف فرغانة لرأيتها اشبه بخارطة مرسومة على ورق أو صورة ملونة — يحدق بالقلعة بيوت الناس المبنية بالطين اكثرها طبقة واحدة الا ثلاثة ابنية : اولها القلعة في وسط المدينة والثاني بيت النار وهو الهيكل الذي يتعبد فيه المجوس وكانت المجوسية لا تزال متغلبة هناك . وفي فرغانة بيت النار اسمه « كارشان شاه » [1] رفيع العماد يناطح السحاب يظهر بارزاً بين ابنية المدينة كالنخلة بين الرياحين وقد نصبوا حول سطحه رايات من الديباج طول الواحدة منها عشرات من الاذرع مرسلة في

---

(١) المسعودي ١٦١ ج ١

الفضاء يلاعبها الهواء اكثرها خضراء اللون . والثالث بيت لمرزبان سيأتي ذكره (المرازبة حكام المقاطعات على ايام الاكاسرة) تكتنفه حديقة من كل فاكهة زوجان ولو اطلقت بصرك الى ما وراء سور المدينة على الارباض وما وراءها لرأيت الاغراس والاعناب والرياحين تتخللها مجاري الماء وتتغنى على افنانها الاطيار

واهل المدينة في ذلك الاحتفال واذا بموكب جليل زاحمهم في الاسواق حتى شغلهم عما هم فيه لفخامته وغرابته . وهو عبارة عن مركبة كبيرة اشبه بالغرفة منها بالعربة فوقها قبة من الفضة المموهة بالذهب قائمة على اعمدة من الخشب الملون بينها ستائر من الديباج الازرق يجرها فرسان مجللان بأثواب الحرير المزركش وسائق العربة راكب على احد الفرسين وفي يده سوط يسوقهما به وعود كبير يصوبهما به اذا عاجا عن القصد . ويكتنف المركبة بضعة من الخصيان يركضون الى جانبيها وقد ارخيت الستائر على الراكبين فلا يراهم احد . لكن ليس في فرغانة رجل أو امرأة لا يعرف صاحب هذه المركبة اذ ليس هناك مركبة سواها . فهم يعلمون انها مركبة المرزبان جاءته هدية من بعض اهل امرأته في بلاد القوقاس . لان الرجل فارسي الاصل وامرأته جركسية من بلاد القوقاس واهل تلك البلاد يستخدمون هذه المركبات لحمل الخواتين في خروجهن أو اسفارهن [1] والمركبة عبارة عن غرفة كبيرة فيها كل ما تحتاج اليه الخاتون من الادوات حتى الطعام والشراب . فكان اهل فرغانة لا تمر بهم هذه المركبة الا تشوقوا لرؤية من فيها لعلمهم انها تقل فتاة هي بنت المرزبان كلهم يحبونها ويجلون قدرها ويعجبون بجمالها وتعقلها . وكثيرا ما رأوها تمر بهم في مركبتها وقد ازاحت ستائرها فلا تحتجب عن احد . واذا وقع بصرها على احدهم ابتسمت له ابتساماً يزيده تهيباً منها

اما في ذلك اليوم فكانت قد ارخت ستائر المركبة واركض السائق الفرسين وظهر من تعجله انه يطلب الخروج من المدينة . ورأوا وراء المركبة جوادين مسرجين لا يقودهما سائق ولا يركبهما راكب احدهما ادهم على سرجه جعبة مملوءة بالنبال فلم يخف على العارفين ان الجواد لصاحبة المركبة وقد تعودوا ان يروها خارجة عليه بالبسة

---

(١) ابن بطوطة

الرجال للصيد أو السباق . ووراء الجوادين خدمة الصيد وفيهم اصحاب الكلاب والفهود ولم يعجب اهل فرغانة لمعدات الصيد لانهم يعلمون مهارة بنت المرزبان به ولكنهم عجبوا لخروجها في ذلك اليوم

وكان بين المارة رجلان احدهما تاجر من اهل فرغانة والآخر قريب له من اهل خوقند اتى لقضاء ايام النيروز عنده ولم يكن رأى شيئاً من ذلك قبلاً فسأل رفيقه عن صاحب هذا الموكب فقال « هو موكب الخاتون جهان بنت المرزبان طهماز الا تعرفها »

قال « سمعت المرة الماضية عن مرزبان يقيم في هذه المدينة معتزلاً عن العمل وانه ذو ثروة طائلة وليس له الا ابنة سمعت الناس يتحدثون بجمالها فهل هي وحيدة له ؟ »

قال « لها اخ اجرد قبيح الخلق والخلق كأنه ليس اخاها »

قال « العل المرزبان من اهل هذه المدينة »

قال « كلاّ انه غريب ولكنه جاءها وهو شاب منذ ثلاثين أو اربعين سنة واتخذها وطناً له فراراً من المسلمين العرب وتعصبهم على المجوس . وكان حاكماً في بعض مقاطعات فارس فقاسى اضطهاداً ولم يشأ ان يبدل دينه بذلك الدين الجديد فاتى باموالـه واقام هنا . . »

فقطع كلامه قائلاً « وهل هو غني يا صاحبي ؟ »

قال « له ثروة طائلة واكثر المغارس خارج فرغانة على ضفة نهر الشاش ملكه فضلاً عن المنازل والنقود والجواهر — ولكن مالنا وله دعنا من ذلك وامض بنا الى سوق اللحم نبتاع خروفاً نذبحه لاولادنا يعيدون به »

وكان رفيقه من محبي الاطلاع على اخبار الناس والاعتراض على اعمالهم فلم يصغ لرأي صاحبه بل قال « قل لي كيف تخرج هذه الخاتون من البيت في مثل هذا اليوم ؟ »

فضحك رفيقه وقال « كانك تريدها ان تبقى في البيت لتعجن العجين وتخبزه و لتطبخ الطبيخ كما تفعل نساؤنا ... انها يا صاحبي سيدة بيت ابيها الان والدتها

توفيت منذ اعوام ولم يتزوج المرزبان بعدها اكراماً لجهان هذه فانه يحبها الى درجة العشق ويعاملها معاملة العاشق لمشوقته وليس الوالد لولده ... »

قال « لست اعني ان تقيم في البيت للعجن أو للطبخ بل تبقى فيه لاستقبال الزائرين الذين يتوافدون على بيت ابيها بالهدايا والتحف في يوم العيد »

فقطع الآخر كلامه قائلاً « دعنا من ذلك يا صديقي وسر بنا الى السوق نفتش لنا عن خروف نشتريه »

الفصل الثالث

عروس فرغانة

وكان الموكب قد تجاوزهما حتى خرج من المدينة الى الارباض ومنها الى البساتين فوقف عند مضرب لبعض اتباع المرزبان تعودوا استقبال هذا الموكب فخفوا للاقاته فلما وقفت المركبة ترجل السائق ووقف بجانب الفرسين ليمنعهما من جر العربة في اثناء نزول الخاتون وتقدم احد الخصيان لمساعدتها بالنزول وكانت قد قرَّبته للطفه وخفة حركته واسمه مرجان فوقف بجانب المركبة ينتظر الامر ولم يتجرأ على ازاحة الستارة فطال وقوفه ولم تفتح ولا اطلت الخاتون ولكنه كان يسمع حديثاً جارياً فمال بحب الاستطلاع الى معرفته وردَّه التهيب عن الاصغاء لسماعه . وكان سائر رجال الموكب والاكرة في تلك المزرعة وقوفاً ينتظرون ترجل جهان فلما ابطأت اشتغلت خواطرهم . وكان اكثرهم قلقاً جوادها الادهم فانه كان واقفاً وهو يفحص الارض بقوائمه وسائسه لا يقوى على زجره . ثم صهل كانه ينادي صاحبته او يستعجلها فاذا بستارة المركبة قد ازيحت ونزلت منها امرأة كهلة في الخمسين من عمرها عليها سمات التعقل وقد زادها الانقباض رزانة . عليها ثوب واسع يغطي كل جسمها وقد تخمرت بخمار احمر يشمل راسها وعنقها فلا يظهر غير وجهها فعرف الواقفون انها القهرمانة خيزران مربية جهان ورفيقتها ومستودع اسرارها

ولما صارت القهرمانة في الخارج مدت يدها لاستقبال سيدتها فترجلت جهان وهي لا تستعين باحد حتى وقفت بجانب المركبة والابصار شاخصة اليها للتمتع بذلك الجمال الجاذب الذي لم يسمع بمثله . وكانت قدلبست في ذلك اليوم ثوب الركوب للصيد وهو عبارة عن السراويل والقباء أو الدراعة وتزملت بشبه العباءة من الحرير المزركش ولفت رأسها بعمامة اشبه بالعصابة تغطي الجبين الى الحاجبين وارسلت منها ذؤابتين على قفا العنق تقيها حر الشمس . وادارت بالعباءة حول العنق حتى لا يبدو منها غير بعض وجهها



جهان — عروس فرغانة بثياب المنزل

وكانت طويلة القامة جليلة الطلعة في وجهها هيبة وصحة وجمال عيناها كبيرتان وفيهما نور وذكاء وجاذبية لا يعبر عنها بغير السحر يشعر من يبادلها النظر أو الحديث

مسلطة لها على قلبه وعقله فلا يقوى على محادثتها في موضوع ولا تطاوعه نفسه على مدافعتها في امر كانها ملكت ارادته بالتنويم المغنطيسي فيصبح آلة بيدها . فكان الناس ينتظرون خروجها من منزلها للصيد أو النزهة فيقفون في الطرق ليشاهدوا محياها ولم تكن تحتجب ترفعاً عن الجبن او الذل بل كانت تبتسم للناظرين فيزدادون تعلقاً بها

اما في ذلك اليوم فخاب انتظارهم لانهم رأوا في وجهها قلقاً وفي عينيها دمعتان تحاول اخفاءهما بالابتسام والتلطف

ولو نظرت الى جهان عروس هذه الرواية في بيتها وقد ازاحت اللثام حتى ظهر عنقها وارخت شعرها كما تراها في هذا الرسم لرأيت قوة الجنان ورباطة الجأش ظاهرتين حول فمها وفي ذقنها . وتجلت لك القوة في شكل عنقها المندمج . وقد تعجب لاول وهلة من اختلاف ملامحها عن ملامح الفارسيين ووالدها منهم فاذا علمت ان والدتها جركسية زال تعجبك وعلمت انها ورثت تلك الملامح من والدتها وورثت معها كثيراً من سجايا الجراكسة كالقوة والشجاعة والانفة وتعودت ركوب الخيل والنزول في حلبة السباق والخروج للصيد . واخذت من ابيها ذكاء الفرس وتعقلهم ودقة احساسهم فاتت آية من آيات الزمان وشغف بها اهل فرغانة وسموها عروسهم فكان يقال لها عروس فرغانة وان كان اسمها جهان بنت المرزبان

فلما نزلت من المركبة ورأت الناس وقوفاً لانتظارها وهم شاخصون بابصارهم نحوها حيتهم على عجل خوفاً من ظهور اضطرابها وهي حريصة على كتمان ما بها فالتفتت الى القهرمانة وقالت بصوت يقع في الاذن وقوع النغم المطرب « اين الجواد يا اماه » وكانت تناديها بالامومة تلطفاً وتحبباً لانها ربتها من صغرها وكانت ضنينة بها شفوقة عليها . وكانت جهان تستودعها اسرارها وتكشف لها عن مكنونات قلبها . ولم تبطئ في الخروج من المركبة الا لاشتغالها بمحادثتها في شأن يهمها

فاشارت القهرمانة الى السائس فاتى بالجواد وهو يختال في مشيته تيهاً حتى كاد يرقص فلما دنا من جهان نظرت اليه وابتسمت ثم حكت جبينه بانامله وكانت عليه بقعة بيضاء من شعره تمثل اسداً رابضاً ولذلك سمته « شير » وهو الاسد بالفارسية .

ولما احس الجواد بانا ملها استأنس وأخذ يضرب الارض بيمينه والناس وقوف فالتفتت القهرمانة اليهم وقالت « ان مولاتنا ذاهبة الى الصيد فامكثوا مع المركبة هنا لاعداد الطعام وانما يتبعها منكم رجلان يحسنان الركض حتى اذا وقع لنا صيد اتيا به » ونادت «فيروز» فتقدم السائس بالجواد الادهم فوثبت جهان اليه باسرع من البرق ثم قدم الفرس الآخر للقهرمانة خيزران واعانها على الركوب فركبت واشارت الى السائس ان يتقهقر ويمشي مع الرجلين الآخرين . وكان احدهما مرجان وساقت جوادها بجانب جواد سيدتها وسارتا متزاملتين وقد تنكبت جهان القوس وكانت جعبة النبال معلقة بالقربوس والتمست عرض البر والفرسان يمشيان زميلاً والارض سهلة وا كثرها مزدرع ويتراءى لهما عن بعد جبل كثير الشعب ·

تعودت جهان الذهاب في الشعاب والاودية مع الفهادين واصحاب الكلاب لاصطياد الغزلان أو حمر الوحش او الوعول . وأما يومئذ فلم تصطحب احداً من اولئك لرغبتها في الانفراد وانما اتخذت الصيد حيلة للخروج

فلما امعنتا في الخلاء التفتت القهرمانة الى جهان لفتة حنو وانعطاف وقالت «والآن يا سيدتي الا تكشفين لي عن سبب انقباضك وانت تعلمين اني مستودع اسرارك واسرار والدتك من قبلك ؟ »

فتنهدت جهان وقالت « دعيني يا أماه من هذا الحديث وانما جئت لاروح النفس بالصيد »

فضحكت القهرمانة وقالت « وهل تريدين ان أصدق انا ايضاً انك خرجت للصيد وأنا اخترعت هذه الحيلة للخروج معاً أم تحسبين سرك خافياً عني يا ولدي ؟ »

فارادت مغالطتها فاظهرت عدم المبالاة وقالت « أتستغربين انقباضي وأنت ترين والدي مريضاً بالنقرس منذ اعوام وقد سمعت طبيبه يقول ما تعلمينه من ضعف الامل بالشفاء . ولا يخفى عليك ان المرزبان اذا أصيب بسوء اصبحت منقطعة اذ لا اهل لي ها ولا اعرف أهل والدي في بلاد فارس ولا اهل والدتي في بلاد القوقاس ولا ادري مع ذلك كيف ... » وغصت بريقها

قالت القهرمانة « ان مرض سيدي المرزبان يا جهان لم يحدث بغتة وقد كنت

تخافين على حياته من قبل ولم يبد عليك مثل هذا الانقباض •• وانما سبب الانقباض سرّ انت شديدة الحرص على كتمانه ولكنني اعرفه •• »

الفصل الرابع

ضرغام

فالتفتت اليها جهان لفتة الاستغراب وتفرست في عينيها ووجهها كانها تقرأ ضميرها وكانت جهان شديدة الاقتدار على ذلك فتأثرت القهرمانة من نظرها وبما يتلالأ في عينيها من الماء وهي تغالب عواطفها وقالت « نعم ان سرك غير خاف علي وان كنت تحاولين اخفاءه ليس لضعف ثقتك ولكن حياء مني . وأرى هـذا الحياء يبدو على وجهك الآن لمجرد الاشارة الى الموضوع •• »

وكانت جهان لما سمعت تعريض القهرمانة صعد الدم الى وجنتيها فتوردتا واشرق وجهها وأبرقت عيناها بريقاً ينمّ عما يجيش في قلبها من لواعج الحب — واعتراف العينين حجة واذا انكر صاحبها وبالغ في التنصل فهو كاذب وهما صادقتان . اذا قالت العين قولاً وقال اللسان آخر فالصادق هي لا هو وخصوصاً من يكون مثل عروس روايتنا من حيث دقة الاحساس وقوة العاطفة . فقد كانت كبيرة القلب وكبيرة العقل معاً ولكن الضعف النسائي غلب عليها في تلك اللحظة فاطرقت فابتدرتها خيزران قائلة « لا تعجبي يا سيدتي لاطلاعي على ذلك السر وليس انا وحدي المطلعة عليه فانه متداول بين اهل القصر لا يجهله احد غير والدك ولولا تهيب اهل القصر منه لابلغوه اليه ولكنهم لا يستطيعون تبليغه ذلك الا على يدي وأنا لم افعل »

فبغتت جهان وقالت وهي تتشاغل باصلاح شعر جوادها عند قاعدة عنقه « واخي سامان ؟ هل هو عالم بهذا السر ؟ »

فابتسمت ابتسامة تشف عن تألمها من ذكر ذلك الاسم وقالت « سامان ؟ ان سامان لا تخفى عليه خافية يا سيدتي وقد قلت لك مرارا ••• »

فاحست جهان انها تريد الطعن باخلاص اخيها فابت نفسها سماع الطعن فيه فقطعت كلامها قائلة « اني اتوسم في اخي سامان شيئاً لا يرتاح اليه قلبي لا ادري ما هو ولكنني لا اسمع الطعن عليه وهو اخي الوحيد كما تعلمين وأرى منه انعطافاً نحوي وان كنت اشعر من خلال ذلك بشيء لا يعجبني ... ولا يعجبني منه اشتغاله بالاسرار حتى يخيل لي انه جعبة خفايا وغوامض .. يغيب عن البيت يوماً فنبحث عنه في فرغانة بحثاً دقيقاً فلا نقف على خبره ثم يأتي ونسأله عن غيابه فلا يجيب أو يجيب جواباً مبهماً . واخبرنا بعضهم انه كثير الخلوة بالموبذ كاهن كارشان شاه بيت النار في هذه المدينة ولا يخفى عليك حال هذا الكاهن من الدهاء والحيلة .. »

فقالت خيزران « اظن هذا الموبذ متحداً مع طائفة الخرمية الجمعية السرية التي يرأسها اليوم ويقود رجالها بابك الخرمي صاحب الصول والطول الذي اصبح خليفة المسلمين يخافه ولا يبعد ان يكون اخوك سامان عضواً من اعضاء هذه الجمعية ولا باس من ذلك لان غرض الخرمية اعادة السلطة للفرس ومحاربة المسلمين »

قالت « لا انكر ما في اخي سامان من اما كن الضعف ولكنه اخي .. ما لنا وله الآن »

فاطرقت القهرمانة وهي تستغرب حسن ظن الفتاة باخيها رغم ما يظهر من قبيح اعماله وما تعتقده هي من سوءِ قصده ولكنها اعرضت عن ذكره ورجعت الى الموضوع فقالت « والآن ألا تبوحين لي او تأذنين بان ابوح انا لك »

فاعظمت جهان ان يغلب عليها الضعف النسائي الى هذا الحد بين يدي قهرمانتها أو مربيتها فتحركت فيها الانفة وقالت « لا تستضعفيني يا اماه وربما توهمت فيَّ غير الواقع فاذكري لي سبب انقباضي ان كنت تعلمين »

فقالت « ان موضوعه « ضرغام » هل أصبت المرمى ؟ »

فلما سمعت ذلك الاسم خفق قلبها وكان الدم قد تحول عن وجنتيها فعاد اليهما وابرقت عيناها فابتدرتها خيزران قائلة « لا سبيل الى الانكار يا حبيبتي وعيناك تشهدان على صحة قولي انك تحبين ضرغام .. »

فلبثت جهان تنظر الى ما يبدو من استحسانها ذلك الحب او استهجانه فقالت

القهرمانة « ان ضرغاماً شاب جميل وشجاع باسل »

فقالت جهان « لم تقولي رأيك فيه »

قالت « قلت انه شجاع وجميل لا مثيل له في فرغانة ولا غيرها من بلاد الهياطلة ولا بلاد فارس »

فقالت « فهمت انه شجاع وجميل ثم ماذا .. ؟ »

فهمت خيزران ان تصرح بفكرها فتهيبت وخافت على جهان فاطرقت وسكتت فقالت لها جهان بصوت هادىء وجاش رابط « قولي يا ماما بصراحة ولا تخافي من شيء »

فقالت « ليس في العالم احسن من ضرغام لولا نسبه ... اذ ليس في فرغانة من يعرف اصله او نسبه حتى هو فانه لا يعرف من هو ابوه »

فتجلدت جهان وقالت وهي تتشاغل باصلاح وضع القوس على كتفيها « وماذا يقول الناس عنه ؟ »

قالت « لا يقولون شيئاً عن شخصه فانه مثال الشجاعة وكرم الخلق فضلاً عن جماله وعلو همته وكبر نفسه لكنهم يتحدثون بغموض نسبه ... انا اعرف والدته منذ جاءت الى فرغانة وهي في ابان شبابها تحمل طفلها ضرغاماً وكانت جميلة الطلعة . ومع فقرها وعوزها خطبها غير واحد من اهل فرغانة فابت ان تتزوج رغبة في تربية ابنها لانها كانت شديدة العناية به . وسمع سيدي المرزبان بخبرها فاستقدمها اليه وسألها عن حديثها فتكتمت في بادىء الرأي ثم قالت انها اخذت طفلة من حضن والدتها من بادية الترك وربيت في منزل بعض النخاسين بالعراق حتى انتهت الى رجل من اهل تلك البلاد فاعتقها وتزوجها ثم توفي قبل ان تضع حملها فلما وضعته احبت الانقطاع الى تربيته . فلم يصدق سيدي المرزبان قولها واحب ان يجربها ففرض عليها ان يزوجها ببعض رجاله فابت واعتذرت فازداد شكاً في حديثها فانزلها بجانب قصره وامر لها بما تحتاج اليه من لوازم الحياة وكانت تحسن الخياطة وتشتغل في جملة خدم القصر حتى اصيبت بالرمد وكف بصرها فكفت عن العمل وظلت في بيت ابيك كما تعلمين. ولما شب ضرغام تعلم ركوب الخيل والرمي بالنشاب وظهرت فيه سجايا نبيلة فجعله مولاي المرزبان في جملة اعوانه وكان يحبه ويجلّ مناقبه حتى بعث الخليفة المعتصم الى هذه

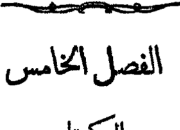
البلاد لتجنيد الرجال من الاتراك والفراغنة والاشروسنية منذ بضعة اعوام فتطوع ضرغام في خدمته وكنت قد لحظت ما بينكما من الحب المتبادل الذي تحاولين الآن اخفاءه . ولكنني عجبت لذهابه وغيابه كانه رأى نفسه اقصر باعاً من ان ينالك للتباعد بينكما في المقام والنسب »

وكانت القهرمانة تتكلم وجهان مصغية تسمع كلامها بشوق ولهفة حتى اذا بلغت الى هنا اجابتها قائلة « انه تطوع في جند المعتصم لعلمه ان الرجال تظهر مواهبهم في مثل هذا التجنيد . وكان قد تغلب عليه الوهم الذي أراه متغلباً عليك فزعم انه لا يستحقني وانا اراه يفضلني بدرجات كثيرة . لان الانسان لا يقدَّر بمزارعه ومنازله وثيابه وانما يقدر بمواهبه ومناقبه . وانت تقولين والناس كلهم يقولون انه فريد بهذه المناقب . ومن جملة مناقبه الشريفة أيضاً انه رأى نفسه احط من ان ينالني فتطوع في الجندية عند المسلمين في بغداد التماساً للعلى بجدّه لئلا يقال اني افضله في شيء ولا ريب عندي انه سيبلغ ارقى مراتب الجند لاننا نسمع باناس من رقيق هذه البلاد ابتاعهم الخليفة بالمال ورباهم وجندهم فنبغ بعضهم الى مراتب القواد فكيف بضرغام كما تعرفينه واعرفه ؟ . . . » وكانت تقول ذلك ويكاد لسانها يتلعثم لخفقان قلبها وثورة عواطفها

فرأت القهرمانة تصريحها واسلوب كلامها يدلان على تعلقها بضرغام وهي تعرف ثباتها في رأيها فلم تستطع معارضتها رأساً لكنها قالت «لا شك عندي ان ضرغاماً سينال رتبة عليا في جند المعتصم ولكن عروس فرغانة طبقة أخرى من البشر . . . ان جهان يا سيدتي ارقى من ان ينالها القواد فان الملوك يخطبون رضاها . . » قالت ذلك وفي صوتها نغمة تدل على انها تعني ما تقول حقيقةً وليس على سبيل الاطراء أو المجاملة . ولكيلا تترك لجهان وقتاً للتفكير والجواب اظهرت انها تعبت من الركوب والتفتت الى ما حولها فوجدت انها على مقربة من تل يشرف على اودية كانت تأتيها جهان للصيد فقالت « الا ترين ان نترجل للاستراحة هنا قليلاً ثم نعود الى الركوب اذا شئت لاني لا اصبر صبرك على هذه المشقة »

فاجابت جهان بهز رأسها . وترجلتا فاسرع السائس الى الفرسين وتناولهما وافترش

لبّادتيهما على صخرة منبسطة فوق التل قعدتا عليها واشتغل هو بعلف الفرسين . واشارت جهان الى الخادمين ان يتوغلا في تلك الاودية يستطلعان حال الصيد هناك ويرجعا



الفصل الخامس

الكتاب

فلما خلتا كانت القهرمانة قد ملكت روعها فقالت « كيف رأيت قولي يا سيدتي ؟ »

قالت « لا استغرب اطراءك اياي واعجابك بي فاني بمنزلة ابنتك والوالدة ترى ابنتها لا مثيل لها حتى تظن الملوك يقتتلون عليها ... »

فقالت « اني لم اقل ما قلته من قبيل الاطراء أو المبالغة بل انا واثقة بما اقول ... انا على يقين ان اعظم ملوك الفرس يطلب رضاك ويتمنى الحصول عليك .. »

فهزّت جهان كتفيها هزّ الانكار والاستبعاد وقالت « ملوك الفرس ؟ وهل للفرس ملوك اليوم » فاستبشرت القهرمانة بقرب اقناعها بعلو مرتبتها لانها على ثقة مما تقوله فقالت « لا تهزي كتفيك يا سيدتي .. ان للفرس ملوكا عظاماً لا يلبثون ان يعيدوا سلطان الاكاسرة . الا تعرفين مازيار صاحب طبرستان . . الا تعرفين بابك الخرمي صاحب اردبيل ؟ ان كل واحد من هذين ملك عظيم تخضع له الالوف من الابطال ولكنه يتمنى الحصول على عروس فرغانة ..»

فاظهرت جهان الاستخفاف وقالت وهي تنظر الى فرسها الادهم سارحاً يرعى العشب « دعينا من الملوك ... لا ارب لنا في غير ضرغام وما لنا وبابك ومازيار واين نحن من اردبيل وطبرستان ؟ »

قالت « اذا كنت لا تصدقينني اسألي اخاك سامان عن بابك الخرمي »

قالت وقد انتبهت لنفسها « اظنني سمعته يذكر هذا الاسم بالاطراء ولكنني لا اثق باقواله كلها كما تعلمين ولا همني هذا الامر لان ضرغاماً ليس مثله احد على قلبي

ولا رغبة لي في الملوك ولا الامراء »

فقالت « اذا كنت تستبعدين تلك البلاد فهذا الافشين صاحب مملكة اشروسنة على مقربة منا وهو الآن قائد جند المسلمين كافة في بغداد وعما قليل يأتي لزيارة ابيك لان سيدي كتب اليه منذ اشهر اذا جاء في عيد النيروز الى اشروسنة ان يزوره في فرغانة ... »

وكانت جهان تظهر قلة المبالاة كما رأيت فلما سمعت اسم الافشين اجفلت وتغير وجهها وانقبضت نفسها وصدت خيرزان عن الكلام بكفها كأنها تقول « كفى لا تذكري هذا الاسم .. »

فارادت ان تستأنف الحديث فصاحت جهان « دعيني من ذكر هذا الرجل اني لا احتمل سماع اسمه .. وهو هو سبب انقباض نفسي الذي زعمتِ انك عرفتِه . فان نفسي انقبضت منذ سمعت بقرب قدومه الى فرغانة وانه سيقضي بعض عيد النيروز عندنا ولو استطعت ان اقضي هذا العيد بعيدة عن البيت لفعلت »

فاستغربت كرهها للافشين وقالت « وهل اساءك لافشين في شيء؟ »

قالت « كلاّ لم يسؤني بشيء ولا كلمني كلمة ولكنني لا ازال منذ كنت أراه في قصرنا يأتي لزيارة والدي ونفسي تعافه وتكره النظر اليه ... ولا اذكر أن شعوري خانني في حكمه على الناس .. »

فقالت القهرمانة « يا للعجب الا تعلمين ان الافشين رئيس ضرغاماً وان غاية ما يبلغ اليه ضرغام من الرقي في جند المسلمين ان يصير قائداً من قواد الافشين وتحت رايته »

فقالت « بترفع وهدوء كلاّ يا اماه انه ليس تحت رايته بل هو رئيس حرس الخليفة »

قالت وقد ظهر الاستغراب في محياها « وهل انت على يقين من ذلك ؟ »

فنظرت اليها وقالت وهي تبتسم « اني على يقين اصح من يقينك برغبة الملوك في طلبي » ومدت يدها الى جيبها وهي تقول « وقد جاءني كتابه منذ بضعة أشهر يخبرني بذلك وينبئني بقرب قدومه الى فرغانة ولكنه الى الان لم يأت » واستخرجت

الكتاب ودفعته اليها لتقرأه وهو مكتوب بالبهلوية وهذا مفاده :

« من ضرغام في سامرًا الى حبيبة قلبه جهان في فرغانة

« يا سيدتي . ولا ازال ادعوك سيدتي لانك سيدة العالمين وانت ايضاً حبيبتي لانك ملكت قلبي وكل حوارحي . تركت فرغانة منذ بضع سنوات ولم اكتب اليك حتى الآن لاني لم اكن اهلاً لمخاطبتك وكيف يتجاسر ضرغام الفقير اليتيم ان يخاطب جهان بنت المرزبان صاحبة السيادة المالكة للاموال والرقاب . وقد وعدتك يوم الوداع ان ابذل جهدي في طلب العلى فاذا بلغت درجة تقربني من مقامك اتيت اليك والتمست رضاك والا فاني اموت في سبيل طلبك . وقد انتظمت في الجندية وخضت المعامع باسمك واستقبلت النبال بصدري وانت فيه فوقاني من الاذى . وقضى الله ان ابقى حيا لعل لي ماربا بجهان . ارتقيت في مراتب الجند حتى صرت رئيس الحرس في قصر الخليفة فبادرت الى تبشيرك وكانك تسألينني عن عاقبة ذلك الترقي . واذا لم يكن هذا الارتقاء لاكتسب به رضاك فلا مأرب لي به لاني لا ارى للحياة قيمة ان لم تكن لك ومعك . وقد أخذت اسعى في الشخوص الى فرغانة لاقبل يدي سيدي المرزبان وأحظى بمشاهدة حبيبتي جهان ولولا بعض المشاكل التي نخاف عواقبها على الخليفة لجئت اليك منذ اشهر على اني ظفرت بطريقة تساعدني على الشخوص . وذلك ان امير المؤمنين بنى مدينة سامرًا بالقرب من بغداد كما تعلمين ليجعلها مدينته الخاصة ويقيم فيها جنده الاتراك الذين جندهم وانا واحد منهم . واراد ان ينتصر بهم على الاحزاب المختلفة التي نشأت في المملكة الاسلامية من الفرس وغيرهم ولكنه خاف على هؤلاء الجنود اذا اختلطوا بسكان المدن المجاورة ان تذهب شدتهم ونخوتهم فارتأى ان يزوجهم بجوار تركيات يستجلبهن من وراء النهر (١) وعين اناسا يرسل بهم الى ما وراء فرغانة يبتاعون الجواري والاماء ويعودون بهن وقد شكوت اليه رغبتي في زيارة وطني وربما كان لي نفع اذا صحبت ذلك الوفد فوعدني بذلك فعسى ان آتيك قريباً . وقد عهدت بكتابي هذا الى رجل من خاصتي ارجوا ان يوفق الى ايصاله . . والدتي المسكينة تهديك السلام »

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ١٥٨ ج ٤

فلما فرغت القهرمانة من تلاوة الكتاب همت بجهان وضمتها الى صدرها وقبلتها وهي تقول بورك فيك وفيه انه اهل لك .. صدقت ان الرجل باعماله لا بماله واذا كان قد اصبح رئيس الحرس بجده و بسالته فكيف بعد اعوام والدولة الاسلامية لا تزال حروبها قائمة ومثل ضرغام لا يعدم وسيلة للارتقاء »

فسرت جهان لموافقة القهرمانة على ما في خاطرها لكنها ما لبثت ان عادت الى هواجسها وقالت « ان هذا الكتاب جاءني منذ عدة اشهر ولم يأت ضرغام ولا عرفت شيئاً عنه »

قالت « لا تجزعي انه آت . ولكن .. » واطرقت كأنها تفكر في امر طرأ عليها

فقالت جهان « ولكن ماذا .. قولي يا اماه »

قالت «ولكن والدك .. هل خاطبته بشأن هذا الامر وهل تحسبينه يرضى بضرغام»

قالت « لم افاتحه بشأنه بعد ولكنني اعلم انه يحبه ويجل خصاله ولم يمنعني امراً اردته ومتى جاء ضرغام خاطب والدي بهذا الشأن »

قالت « اعلم ان سيدي المرزبان يحب ضرغاماً ويجله ... ولكن هناك امراً آخر هل فكرت به ؟ » قالت « وما هو ؟ »

قالت « ان ضرغاماً مسلم على ما اعلم فكيف يصح زواجه بك الا اذا اعتنقت الاسلام »

فقالت « وما الذي يمنعني من ذلك ؟ ان الاسلام ديانة الدولة »

فقالت « وتتركين ديانة ابيك وعشيرتك ؟ »

قالت « اذا كانت هذه الديانة تحول بيني وبين ضرغام اتركها لاني احب ان اكون حيث يكون هو في هذه الدنيا وفي الدنيا الآتية » قالت ذلك ودمعت عيناها وهي تبتسم

وأحست القهرمانة ان الحديث طال وقد وصلتا منه الى نقطة حرجة فاحبت مشاغلة جهان عنه فنهضت وقالت « مضى قسم من النهار ولم تباشري الصيد .. فاركبي فرسك وانا اتبعك والهو بما اشاهده من مهارتك في مطاردة الغزلان »

الفصل السادس

الوعل

وكانت جهان قد ملت الحديث ايضاً فاعجبها الرأي فأشارت الى السائس ان يأتي بالجواد والقوس والنبال ونظرت الى الجبال بين يديها لتختار جهة تركب اليهـا فبصرت بوعل يركض على صخر قريب منها ولم تعهد مثله في تلك الجهة من قبل فبغتت وصاحت بالسائس « فيروز . . هات القوس »

فاسرع اليها بالقوس فأوترتها وسددت السهم واضمرت في باطن سرها انها اذا اصابت طريدتها كان ذلك فالا على نيلها ضرغام وقرب مجيئه والا فلا . ونظرت الى الوعل فرأته وقف على تلك الصخرة والتفت نحوهم فرمته بأسرع من لمح البصر وسمعت طنين النبل في الهواء وخيزرانة تنظر الى الوعل وتخاف ان يفر قبل اطلاق السهم فما لبثت ان رأته سقط ثم انقلب الى شق بين صخرين فصاحت جهان « وقع وقع . . اليّ به يا مرجان » فركض ورفيقه والسائس يركضان في أثره وظلت جهان واقفة وقلبها يكاد يطير من الفرح ثم تقدمت خيزرانة اليها وهي تضحك وتقول « لقد سرني رمي هذا الوعل ليس لانك اصبتيه فقط ولكنني قبل ان ترميه اضمرت ان يكون فوزك في صيدك هذا رمزاً عن فوزك بضرغام »

فابتسمت جهان وقالت « وهذا ضميري ايضاً . . أتقولين بعد ذلك ان ضرغاماً لا يناسبني ؟ »

قالت « بسطت لك رأيي وانا بصراحة الآن اكثر منك رغبة فيه » وضحكت وهي تمازحها

فانبسطت نفس جهان لهذه الممازحه وانفرجت كربتها بمكاشفة خيزران . ثم سمعت صياحاً فالتفتت فرأت الرجال يجرون الوعل جرًّا لتقله فأسرعت اليهم فرأت الوعل ميتاً لا يتخبط . فتعجبت من سرعة مصرعه بسهم واحد . فما وصلت اليه رأت سهمها لايزال مغروساً في خاصرته ولاحت منها التفاتة فرأت سهما آخر في لبته فصاحت

« انه مصاب بسهمين وانا لم اطلق الا سهماً واحدا ٠٠ هو ذا السهم في صدره »

وأمرت مرجان ان يستخرجه فاستخرجه بعد عنف شديد وهو يقول « يظهر ان الوعل مات من هذا السهم » ودفعه الى جهان فتناولته وقلبته بين اناملها فرأت على ريشه كتابة بالعربية وكانت تحسن قراءتها ولم تكد تتبين احرفها حتى صاحت « ضرغام ٠٠ ضرغام ! انى اقرأ اسم ضرغام على هذا السهم ٠٠ » فتقدم مرجان وكان يقرأ العربية ايضا فقال « هو اسم ضرغام حقيقة »

فبهتت جهان واجفلت والتفتت الى خيزرانة وهي تتجلد خوفاً من ظهور بغتتها امام الرجلين ثم امرتهما ان يذهبا بالوعل الى مكان يذبحانه ويفعلان به ما شاءا واختلت بخيزران وقالت لها « ما قولك بهذه الصدفة ؟ اني توسمت منها خيراً »

قالت « يظهر ان ضرغاماً قريب من هذا المكان وهذا سهمه قد رمى الوعل به فحمل الوعل جرحه مسافة طويلة لان هـــذه الوعول لا تسرح الا عند ضفاف نهر الشاش على مسافة بعيدة من هذا المكان »

فاطرقت جهان وهي تحسب نفسها في حلم ثم قالت « انها صدفه غريبة ! ٠٠ على اني اخاف ان نكون قد اخطأنا الظن . ولكن لا ٠٠ ان قلبي يحدثني بصدق ظني .. فاذا كنت مصيبة أين تظنين ضرغاماً الآن ؟ »

قالت « اظنه معسكراً على ماء للاستراحة قبل دخول فرغانة ولا اعرف ماء في هذه الجهة الا نهر الشاش فلعله معسكر على ضفته الشرقية »

قالت « وهل هذه الضفة بعيدة عنا ؟ »

قالت « انها على فرسخ وبعض الفرسخ من هنا على ما اظن ٠٠٠ وما مرادك من هذا السؤال ؟ »

فخجلت جهان من التصريح بما يخالج ضميرها مخافة ان تستخف مربيتها بهـــا فظلت ساكتة واطرقت وهي تتشاغل باصلاح وتر القوس بيدها . فادركت خيزران ما في نفسها فابتدرتها قائلة « اظنك تريدين الذهاب لملاقاته هناك »

فابتسمت والخجل يعارض ابتسامها وتفرست في عيني خيزران لتستطلع حقيقة غرضها من ذلك السؤال فرأتها تنظر اليها باهتمام فعلمت انها مشعرة معها فقالت « وهل

تظنين في ذهابي اليه بأساً أو محظوراً ؟ »

فأشفقت خيزران على عواطفها وأحبت مسايرتها فقالت « لو علم القوم انك ذاهبة اليه عمداً ربما تحدثوا بذهابك ولكننا اذا لقيناه جعلنا لقاءنا على سبيل الصدفة ... اما المكان فبعيد لا يخلو الذهاب اليه من المشقة ... هل تصبرين على ذلك ؟ »

قالت « لا مشقة علينا ونحن راكبتان . . . فبادري الى الذهاب » قالت ذلك والتفتت الى الرجلين فرأتهما مشتغلين بذبح الوعل بعيداً

فادركت خيزران انها تريد استقدامهما فسبقتها الى ذلك وقالت « ارى ان نستقدم خادمك فيروز يسير في ركابك وتأمري الآخر بالذهاب الى بقية الموكب بباب المدينة ينتظرنا مع سائر الخدم هناك »

فاستحسنت جهان رأيها فمشت خيزران نحو الرجلين ثم نادتهما وأومأت الى فيروز ان يأتي فاسرع مهرولاً فأمرته بما ذكرته جهان عن رفيقه وان يأتي بالفرسين ففعل وأتى بهما فركبتا ومشى هو في ركابهما لا يدري الى أين تسيران

أما جهان فادارت رأس جوادها نحو النهر وعيناها شائعتان في الافق لعلها ترى حبيبها قادماً . وكانت الشمس قد تكبدت السماء ونسيت جهان انها لم تذق طعاماً في ذلك اليوم ولكنها اغضت عن كل شيء في سبيل ملاقاتها ضرغاماً — وقد يغلب الحب على خاطر صاحبه حتى ينسيه وجوده

الفصل السابع

الضيافة

سار الفارسان في ارض بعضها مزدرع وفيه الاكرة والمارة وكلهم يعرفون عروس فرغانة وان فاتهم النظر الى وجهها فانهم يعرفونها من فرسها او من خادمها . فكانوا اذا رأوها وقفوا لها احتراماً وابتسموا اعجاباً وهي قلما تبتسم لاشتغال خاطرها . وبينما هي غارقة في بلبالها صهل فرسها وفرس خيرزان فانتبهت ونظرت الى امامها فرأت على



التركمان يحلبون الخيل

مقربة منها مزرعة فيها خيام كروية السقف على شكل خيام التركمان — وهما يبنونها مستديرة وسقفها قبة . ورأت بين يدي الخيام بضعة افراس وغلامين يحلبان فرسين منها واهل بادية تركستان يغتذون بالبان الخيل كما يغتذي بدو العرب بالبان الابل

التركمان يحلبون الخيل

فلما رأت جهان اولئك الاكرة ارادت ان تجعل طريقها بعيداً عنهم حرصاً على الوقت فرأت خيزران تحول شكيمة جوادها نحوهم واشارت الى سيدتها ان تتبعها وقالت « الا ترى مولاتي ان نسأل هؤلاء القوم عن ضرغام لعلهم رأوه ماراً فيغنينا ذلك عن تكبد المشقة في الوصول الى النهر ؟ »

فاستحسنت جهان رأيها وتحولت معها حتى دنتا من القوم ومعها فيروز فرآهما احد الغلامين فنهض وقد علم من قيافة جهان انها اميرة كبيرة واسرع الى والده في احدى الخيم يدعوه لاستقبال الاضياف واذا بأكار (فلاح) شيخ خرج من الخيمة وهو يتوكأ على عكازه وحالما وقع بصره على الفارسين عرف جهان فامر اولاده ان يساعدوهما في الترحل فابت جهان النزول واثبتت على الرجل والتفتت الى خيزران كأنها تحرضها على السؤال فقالت « انزلي يا سيدتي للاستراحة هنيهة ثم نركب فاطاعتها مرغمة واستلم فيروز الفرسين وابعد بهما عن المكان لئلا يشوشا الموقف بالصهيل بين يدي الافراس الاخر

ولما ترجلت افترش لها اولاد الشيخ حصيراً تجلسان عليه وخاطبهما الشيخ بلطف وسذاجة قائـلاً « الا تشرفنا بنت المرزبان بجلوسها لحظة في هذا البيت الحقير » فخجلت من هذا اللطف وجلست على جلد افترشوه لها ولرفيقتها وقبل ان تبدأ خيزران بالسؤال جاء الغلام يحمل قدحاً من الخشب فيه سائل عرفت انه من لبن الافراس الذي احتلبوه في تلك الساعة . فاشارت اليه ان يقدمه الى سيدتهـا فاعتذرت انها لا تشعر بالجوع فقال الشيخ يخاطب غلامه « قدم لها قدحاً من القومز » (وهو لبن الخيل يخمرونه ويقدمونه شراباً للزائرين كما يقدم العرب السويق وكما يقدم اهل هذا الزمان الليمونادة او الشاي) ونظر الى جهان وقال « وهذا القومز لا يستدعي جوعاً فانه يشرب كالماء ويزيل التعب »

فلم تستطع جهان ردَّه فتناولته فاغتنمت خيزران تلك الفترة وخاطبت الشيخ قائلة « الم يمرّ بكم اضياف غيرنا في هذا اليوم »

قال « كلا يا سيدتي . ولذلك فاني سررت بقدومكم ... وقد تشرفت بمرور مولاتنا جهان واذا فاتنا مرور الضيفان فهي خير من الف ضيف »

فقالت « وهل العادة ان يمر بكم المسافرون دائماً ؟ »

قال نعم يا سيدتي لان القادم من اشروسنة أو خوكند أو بخارا يريد المشرق اذا قطع النهر مرّ بنا . ثم يذهب الى فرغانة أو الى غيرها . وكثيراً ما تمرُّ بنا قوافل التجار قادمة من الهند أو التيبت أو الصين تقصد بلاد الروم راجعة منها الى بلادها »

فنظرت الى جهان وخاطبتها بالفارسية — واكرة تلك البلاد يتكلمون الشاغطائية (التركية القديمة) وقالت لها « الا ترين ان نمكث هنا ريثما يمرَّ ضرغام اذ كان لا بدّ من مروره ؟ أليس ذلك افضل من ان نطلبه هناك وقد نسير اليه من طريق ويأتي هو من طريق آخر فنختلف في المرور ولا نلتقي »

فلم تجب ولكن ظهر على ملامح وجهها انهـا رضيت فقالت خيزران عند ذلك « إأذني الرجل في ان يقدم لنا شيئاً نأ كله »

فقالت « وكيف نطلب الطعام بعد ان رفضناه ؟ »

قالت « انا اطلبه باسلوب معقول » والتفتت الى الرجل وقالت بلغتـه « الا تبيعون خيلاً للذبح ؟ »

قال « كلاّ يا سيدتي لاننا نربي الافراس للبن ولا نذبحها الا متى عجزت وقلّ لبنها »

قالت « واذا اردتم ابتياع مهر للذبح كيف تفعلون »

قال نترصد قطيعاً من الخيل مارًّا من هنا فنشتري منه ما شئنا ... وقد مضت عليّ برهة وانا انتظر الى هذه الجهة (واشار بيده نحو الشرق والتفتت خيزران فرأت في الافق البعيد غباراً كثيفاً محلقاً في الجو) — فقال انظر الى هذا الغبار واتوقع دنوه فلعله غبار قطيع من الخيل قادم الينا فابتاع منه فرساً او فرسين للذبح — واذا شاءت مولاتنا المكوث هنيهة اخرى وتنازلت ان تتناول الطعام عندنا ذبحت لها فرساً سميناً »

فاستحسنت جهان اريحة الرجل وخفة روحه وابتسمت له ففهم انها رضيت فامر احد ابنائه بملاقاة القطيع وتعجيله فاسرع الغلام يعدو واشتغل الشيخ باعداد المائدة ثم اتى ببطيخة وضعها بين يدي جهان وقال « هذه بطيخة من بطيخ بخارى المشهور بحلاوته سنذبحها لمولاتنا في جملة الذبائح ... »

فاستغربت جهان وجود هذا البطيخ عنده وهو مما يتفاخر باقتنائه الكبراء . ولم يفت الرجل ما جال في خاطرهما فاستدرك قائلاً « ان هذه البطيخة اهداني اياها شاب مغرم جاء يخطب الي احدى بناتي فاتى بهذه البطيخة في جملة الهدايا »

فلما سمعت جهان ذكر الغرام تذكرت لوعتها فتنهدت خفية واومأت الى الشيخ ان يحتفظ بالهدية وقالت « احفظ الهدية لصاحبها »

الفصل الثامن

الراية

واراد الشيخ ان يجيبها فسمع صوتاً يناديه فالتفت فرأى ابنه راجعاً يعدو وهو يلهث من التعب ويقول « ان رعاة القطيع لا يبيعون من قطيعهم شيئاً »

ونظرت جهان الى جهة الصوت فدلها الغبار على ذلك القطيع من الخيل وفي مقدمته رجل راكب على فرس مسرج ووراءه عشرات من الخيول عارية تتزاحم وتتراكض وعلى بعضها رعاة من بدو الكرج وهم يعيشون في براري تركستان على رعاية الخيل والماشية . ورأت الفارس الاول لابساً لباس الجند وبيده راية على رمح لم تنتبه للاسم الذي طرز عليها ولو قرأته لارتعدت فرائصها

اما الشيخ فاسرع الى الفارس واستوقفه وقال « الا تبيعوننا فرساً من هذه الافراس ؟ »

فاجاب الفارس بانفة وعجرفة « كلاّ »

قال « انا في حاجة الى ذبيحة فنعطيكم الثمن الذي تريدونه »

فاشار برأسه نحو الوراء ولم يجب

فقال الشيخ « ولماذا لا تبيعون ؟ »

فقال « لان هذا القطيع مشترى لاناس لا يبيعونه »

فقال « ومن هؤلاء ؟ اليسو تجاراً »

اجاب « كلا » ثم أومأ الى الراية وهو يقول « اظنك لا تعرف القراءة ولو عرفتها لكفيتنا مؤونة السؤال والجواب »

فلما سمعت جهان قوله نظرت الى الراية فقرأت فيها «الافشين حيدر بن كاوس» باحرف عربية وحالما قرأتها تغير لونها ونظرت الى خيزران فرأتها في مثل بغتتها فتجلدتا . اما الشيخ فاجاب الفارس قائلاً « صدقت اني لا اعرف القراءة ... لمن هذه الراية ؟ »

قال « هي للافشين حيدر بن كاوس قائد جند الخليفة المعتصم وصاحب مملكة اشروسنة »

ولم يكن احد في تركستان لا يعرف هذا الاسم لان الافشين كان ملكاً على اشروسنة قبل دخوله في خدمة المعتصم فبغت الشيخ وتهيب وقال « ان مولانا الافشين مقيم في بغداد على ما نعلم »

قال « كان في بغداد ولكنه جاء الى اشروسنة منذ ايام وبعثنا نبتاع الماشية لرجاله »

فقال « وانتم ذاهبون بهذا القطيع الى اشروسنة الآن ؟ »

قال « كان مولانا الافشين في اشروسنة ولكنه قادم الى فرغانة يقضي عيد النيروز فيها ورجاله معسكرون خارجها على ضفاف الشاش وهذه الخيول لهم . . . فهل تحتاج الى زيادة ايضاح ؟ » قال ذلك وساق جواده وتبعه الرعاة بالخيول

فلم يعد الشيخ يتجاسر على السؤال وغلب عليه الخجل من جهان لانه عجز عن القيام بضيافتها وأخذ يهيئ عبارة يعتذر بها اليها فاذا هو يراها قد وقفت واشارت الى خادمها ان يأتي بالجوادين واسرعت الى الشيخ وقالت وهي تتجاهل ما علمته من فشله « اني شاكرة حسن صنيعك يا عماه وقد طرأ علي امر يدعو الى سرعة رجوعي وعسى ان اتمكن من زيارتك يوماً آخر »

فاكبر الشيخ ذلك التلطف وهم بتقبيل يد ابنة المرزبان شكراً على تلطفها وتنازلها فاجتذبت يدها منه واشارت الى القهرمانة فدفعت اليه بضعة دنانير وقالت له « اعط هذه الدوانق الى الغلام يشتري بها قوساً ونشاباً يلهو بهما » فشكر الشيخ لها فودعتاه وركبتا وتحولتا عن المكان وقد جاش في ذهن جهان خواطر زادتها قلقاً ولما خلت بخيزران التفتت اليها وقالت بعد تنهد يدل على غيظ تكتمه « والآن ماذا تقولين ؟ هذا الافشين قد اتى فرغانة ولا بد انه نازل عندنا أو هو يزورنا غالباً .. »

قالت « وما الذي يهمك من زيارته ؟ و .. »

فقطعت كلامها قائلة « لا يهمني شيء من امره ولا هو نفسه يهمني ولا جنده يخيفني ولا انا اخشاه على شيء فيَّ .. ولكنني اكره مجالسته و و . » وبلعت ريقها تشاغلاً عن اتمام الحديث ولهت باصلاح عصابتها على رأسها وسكتت

ففهمت خيزران موضوع تخوفها ولكنها تجاهلت وقالت « ان جهان العاقلة الحكيمة لا يخشى عليها من احد .. وهل انت لا تزالين عازمة على المسير الى النهر »

فنظرت جهان اليها شزراً وابتسمت كأنها تستغرب سؤالها ولسان حالها يقول « كيف اذن ؟ »

وساقتا الجوادين وهما تنظران الى قطيع الخيل حتى توارى وطريقه غير طريقهما وكانت الشمس قد مالت الي الاصيل واثر الجوع في خيزران واما جهان فتلهفها للقيا حبيبها شغلها عن كل عاطفة وقضت معظم الطريق ساكتة وهواجسها تتعاظم وتتلاطم وكلما تصورت لقاءها ضرغاماً يختلج قلبها وترى مع ذلك انها ارتكبت شططاً ما كانت لتأتيه لولا غلبة الحب على ارادتها — وكثيراً ما تتغالب الارادة والحب ويكون الفوز له لا لها . وقد تفوز الارادة ولكن الى اجل قريب واذا طالت غلبتها كان الحب ضعيفاً سريع الزوال . وقد يكون المحب كبير العقل مدبراً حكيماً ويرتكب في سبيل الحب اموراً لا يأتيها غير أهل الطيش وليس استغراب الناس عمله اكثر من استغرابه عمل نفسه لانه يأتي تلك الامور وعقله مشرف على عمله ينتقده ويقبحه ولا يرى له سلطاناً على رده والسبب في ذلك ان لذلك العاقل الحكيم قلباً فطر على الحب الشديد فاذا خالف هوى قلبه تألم ألماً لا طاقة له باحتماله وقد يجن او يصعق . وكم من عاشق

ذهب ضحية النزاع بين العقل والقلب . فالعاقــل اذا احب انتشبت بين ارادته وعواطفه حرب ولا حرب البسوس فاذا كان كبير النفس قوي الجنان جاري عواطفه اعتماداً على عزة نفسه وقوة جنانه فلا يخاف ان يغلب على أمره — وكانت جهان كبيرة العقل قوية الارادة ولكنها كانت كبيرة القلب شديدة العواطف وكانت مع ذلك ألوفة شديدة التعلق بما تألفه وان تكن لا تحبه على حد قول الشاعر :

خلقت لوفاً لو رجعت الى الصبا لفرقت شيبي موجع القلب باكيا

فكيف اذا كانت تحبه وقد عاشرته اعواماً عديدة حتى تمكن حبه من قلبهـــا . وكانت قوية الجنان ثابتة الرأي في حبه وزادها تعلقاً به تخوفها من الافشين ونفورها من رؤيته فلم تر بأساً من السعي في ملاقاة حبيبها وخصوصاً انها ذاهبة بحجة الصيد

الفصل التاسع

ضفاف الشاش

سارتا برهة وهما تنظران الى الافق والجوادان يدلانهما على الطريق المؤدي الى ضفة النهر حتى اطلتا على الماء عن بعد ورأتا الشاطيء فلم تجدا عليه خياماً ولا رأتا جنداً ماشياً ولا راكباً . فاوقفت فرسها والتفتت الى قهرمانة وقالت « هل ترين احداً هناك ؟ »

قالت « كلا يا سيدتي ولكننا على مقربة من الشاطيء فهلم بنا اليه لعلنا نرى فيه اثراً يفيدنا »

فعادتا الى المسير حتى بلغتا الشاطيء بقرب كوخ تحت شجرة فرأتا آثار أناس كانوا هناك وانصرفوا من برهة وجيزة . . رأتا بقـــية نار لا تزال موقدة وبقايا طعام وفاكهة وعظام . واذا بصاحب الكوخ قد خرج لقائهما ورحب بهما يحسب انهما نازلتان عنده وكانت خيزران قد استدعت فيروز وأمرته ان يسأل أهل الكوخ عن القوم الذين كانوا هناك فتقدم وحيا الرجل وسأله فقال « هم جند من المسلمين عبروا

النهر عند الفجر واقاموا هنا الى الظهر فتغدوا وانصرفوا »

قال « وهل عرفت جهة مسيرهم ؟ »

قال « اظنهم يقصدون فرغانة ولعلهم يريدون قضاء النيروز فيها »

فلما سمعت جهان قوله ترجح عندها ان القوم ضرغام ورجاله وندمت على مجيئها الى هناك لاعتقادها ان ضرغاماً اذا أتى فرغانة يذهب توًّا الى بيت والدها فلو عادث رأساً اليها ربما لقيته هناك . ومع ذلك اشارت الى خيزران بالرجوع العاجل قبل ان يدركهما الظلام وهم على ميلين من المدينة فحولتا الاعنة واستحثا الخيل نحو المكان الذي تركوا الركب فيه بباب المدينة

وصلت جهان الى ذلك الباب واهل الموكب في قلق عظيم لغيابها وكان بعضهم قدخرج للبحث عنها في الجهة التي كانت تصطاد فيها . ولولم يأتهم الخادم بالوعل المذبوح ويطمئنهم لزادوا قلقاً . فلما رأوها مقبلة عرفوها عن بعد من قيافتها ولون فرسها . فلما وصلت رحبوا بها واخبروها ان الطعام مهيأ فاشارت عليها خيزران ان تتناول شيئاً منه فاطاعتها وجلست الى المائدة وتناولت شيئاً من اللحم والقومز والفاكهة على عجل لشدة بلبالها ولحظت وهي تأكل ان بعض الخدم يخاطب القهرمانة همساً وتوسمت في وجهها تغيراً فادركت انه يسارّها لامر ذي بال فادتها ونظرت في عينيها نظر الاستفهام فقالت خيزران « انه يخبرني عن مولاي سامان »

فقالت « وهل جاء سامان الى هنا ... واين هو ؟ »

قالت « يقولون انه جاء وسأل عنك ورجع »

فقالت « لا بد لسرعة رجوعه من سبب ... وماذا قال ؟ . . »

قالت « لم يقل شيئاً .. » وتشاغلت بازدراد لقمة كانت تمضغها وكادت تغص بها

فتفرست جهان في وجه الخادم الذي كان يخاطب خيزران وقالت « اظنه جاء بشان والدي .. هل به بأس ؟ »

فلم تستغرب خيزران سرعة انتباهها لانها كثيراً ما كانت تقرأ افكار المتكلمين من مجرد التفرس في عيونهم ولم يسعها الا الاقرار ولكنها اظهرت قلة الاكتراث وقالت

« لا بأس على سيدي المرزبان بفضل ازمزد (اله الخير عند المجوس) ولكنه قال انه مشتاق الى رؤيتك وقد استبطأك ونحن في يوم النيروز كما تعلمين »

فنهضت جهان للحال وأشارت الى خدم المركبة ان يعداها للذهاب وقالت « لم يبعث والدي اليّ الا وهو يشكو من اشتداد المرض عليه ... هيا بنا »

وكانوا قد اعدوا المركبة فركبت فيها مع خيزران وسار المركب توًّا الى القصر وهي تتوقع ان تجد ضرغاماً هناك

الفصل العاشر

المرزبان

اطلت على القصر نحو العشاء فرأت الحديقة تتلألأ بما اوقد فيها من المشاعل والمصابيح وقد غصت بجماهير الناس وما يحملونه من الهدايا والتحف الى المرزبان على عادتهم في مثل ذلك المهرجان . وكانوا اذا جاؤا في الاعياد السابقة رأيت وجوههم تطفح سروراً وبهجة يضحكون ويقرعون طبولهم ويضربون طنابيرهم اما اليوم فقد اتوا بآلات الطرب لكنهم لم يضربوا عليها تهيباً لما علموه من اشتداد المرض على المرزبان . فرأتهم جهان متفرقين زرافات ووحداناً في طرقات الحديقة وعلى السلم وعليهم البسة العيد من الخز والديباج وكلهم وقوف يتهامسون ويتلفتون بعضهم الى بعض وعلامات الاسف بادية على وجوههم . وبباب الحديقة الدواب تحمل التحف من الثياب والاطياب والفاكهة والخدم يشتغلون بانزالها وحملها الى المطابخ

ولما وصلت مركبة جهان الى باب القصر تفرق الناس الى الجانبين واشتغلوا عن احوالهم وسائر احوالهم بمشاهدة بنت المرزبان وكانوا يحبونها ويتبركون بطلعتها ويتوسمون برؤيتها خيراً . فلما نزلت من المركبة هتفوا بالسلام عليها وحالما اطلت عليهم ورأوا وجهها سرّي عنهم ونسوا ما كانوا فيه من القلق كأنهم يحسبون دخولها على ابيها يذهب مرضه ويعافيه

اما هي فحنت رأسها للسلام تلطفاً ولم تبتسم كعادتها ولكنهم توهموا انها ابتسمت لهم لفرط ما في محياها من الوداعة واللطف وكانت خيزران قد سبقتها للنزول ومشت الى جانبها والناس يوسعون الطريق ويقفون وقفة الاحترام حتى دخلت الحديقة ماشية بجلال ورشاقة وصعدت السلم وهي بضع درجات تؤدي الى ايوان القصر وهي تتفرس بالوجوه خلسة لعلها تجد ضرغاماً وتخاف ان ترى الافشين هناك فلم تجد أحدهما وكان اهل القصر في انتظارها على احر من الجمر فجاؤا لاستقبالها . ولم تجد اخاها سامان بينهم فظنته عند ابيها في غرفته فحالما لقيت قيمة القصر سألتها عن ابيها فقالت « انه في خير فشكراً لرحمة اورمزد »

فاطمأنت قليلاً ولكنها ظلت سائرة الى غرفة ابيها بين صفوف الجواري والخصيان والكل وقوف اجلالا لها . فمشت في دهليز مفروش بالسجاد حتى اتت غرفة ابيها وقد اشتدت لهفتها لرؤيته وقلبها يخفق خوفاً عليه وكان بباب الغرفة حاجب من المماليك الخصيان قد اختص بباب المرزبان فلما رأى جهان اسرع الى سيده و بشره بقدومها ثم عاد ورفع الستر ووسع لها فدخلت وهي لا تزال باللباس الذي خرجت به للصيد والعصابة على رأسها ولكنها حسرت عن وجهها وعنقها فبان اشراقها وقد زادها القلق والتعب هيبة وجمالاً فاقبلت نحو سرير والدها ووجهها يطفح رونقاً وبهاء وعيناها تبرقان ذكاء واهتماماً

وكان المرزبان كهلاً لم يتجاوز الستين من عمره ولكن المرض والضعف جعلاه شيخا هرماً وكانت لحيته ملء صدره وقد ابيض شعرها وعيناه كبيرتان زادهما الضعف غوراً و بان الهزال في وجهه ولم يقلل شيئاً من هيبته لبريق عينيه واشتد بريقهما لما علم بمجيء ابنته في ابان الحاجة اليها وكان سريره من خشب الابنوس قائماً على اربع قوائم نزّل فيها العاج وكان مستلقياً وعلى رأسه عمامة صغيرة كالطاقية وفوقه غطاء من الديباج المزركش بالقصب على نصفه الاعلى الذي يغطي الصدر مطرف من فرو السمور الثمين ويداه مرسلتان فوق المطرف وقد حسر عنهما كم القميص فبان هزالهما

فلما دخلت جهان من الباب تحولت اولاً الى صنم مذهب قد نصب على عضادة بارزة من الحائط بجانب سرير والدها و بين يدي الصنم شمعة مضيئة تمثل المصباح

المعلق بالسقف فانحنت للصنم تخشعاً على عادة المجوس واسرعت الى والدها حالاً وجثت بجانب السرير واكبت على يده تقبلها وقد اثر فيها ضعفه ولكنها تجلدت تشجيعاً له على جاري عادتها . فابتسمت وعيناها لا تبتسمان ولكنهما تنطقان باجلى بيان عن عظيم احترامها لابيها وشدة حبها له . اما هو فحالما رآها ابتسم والدمع يتردد في ماقيه وفتح ذراعيه فعلمت انه يريد تقبيلها فألقت نفسها على صدره فقبلها واستنشق رائحة عنقها فاحست بحرارة نفسه وخشونة شعره فاستأنست بتلك الخشونة لاطمئنانها على صحته لانها كانت تخاف ان لا تدركه حيا

وبعد التقبيل تجلد المرزبان وتساعد على الجلوس حتى اتكأ على الوسادة واشار اليها ان تقعد على الفراش بجانبه فقعدت وسألته « كيف ترى نفسك يا سيدي ؟ »

قال « اني بفضل اورمزد الحنون في خير وكنت اخشى ان يتغلب اهريمان (واهريمان له الشر عندهم) فلا اراك لشدة ما قاسيته من الالم وماكنت به من الضعف ولكنني شعرت بالراحة منذ علمت برجوعك الى القصر وانت تعلمين انك تعزيتي الوحيدة في هذا العالم فلا تفارقي القصر لاني ارتاح لرؤيتك »

فلم تتمالك عن ارسال دمعتين دلتا على حنوها وخفقتا لوعة ذلك الوالد المريض وأثرتا في نفسه . وكانه تصور حال ابنته بعد موته فغلب عليه الحنو فبكى وهو يحاول اخفاء عواطفه رفقاً بعواطفها فابتسمت هي وتجلدت ولم يفتها ما خالج خاطره فقالت « اشكر لاورمزد الشفوق فاني اراك في صحة وسأصلي له واتوسل اليه (واشارت الى التمثال) ان يعافيك ويدفع عنك المرض ولا ريب انه يسمع صلاتي »

فقال « قد ارسلت اخاك ساسان في طلب الموبذ (الكاهن) فاذا جاء صلينا معاً »

فاحست جهان براحة عند سماعها اتكال ابيها على الصلاة وليس للانسان تعزية في مثل هذه الساعة غير الايمان — ان الايمان هو وحده تعزية بني الانسان في شدائدهم بعد ان تعجز العقول وتغل الايدي عن درئها . ولولا الايمان لكان حظ الناس من دنياهم التعاسة والشقاء يدلك على ذلك ان الارض لم تخل من دين . وما من امة الا وهي تدين بشيء ترجع اليه في رد القوي عن الضعيف وتتعزى به في

المصائب التي يضع فيهـا الاجتهاد وتعجز عنها العقول ولا ينجع في دفعها مال ولا سلطان ولا يفيد فيها جند ولا اعوان وتقصر عن معالجتها مهارة الاطباء وحكمة الفلاسفة وعلوم العلماء واقلام الكتاب — تلك الحال في الناس لا ينجع فيها غير الايمان والاستسلام عن اعتقاد صحيح في الدين . فالمؤمن يتلقى المصائب بالشكر ويستقبل الموت ضاحكا مسروراً . وليس اضر للبشرية ممن يضع الشكوك في اذهان العامة لانها تقتلهم وتذهب بسعادتهم وهو نفسه مهما لغ من شكوكه أو انكاره اذا اصيب بضعف أو خاف على حبيب نفدت حيلته في اسعافه لا يرى مندوحة عن الالتجاء الى غير الوسائل المعروفة فيستغيث بقوة لا يعرفها ويتوسل الى شخص لا يراه ولا يعتقد بوجوده .وقد اختلف الناس في تفاضل الاديان لكنهم اجمعوا على التدين بواحد منها

فلما سمعت جهان اتكال والدها على الصلاة سكن خاطرها واطمان بالها فقالت « وهل يأتي الموبذ الليلة ؟ »

فتنهد عن سرٍّ يضمره وقال « قد بعثت اخاك في طلبه ولا اظنه يأتي به لانـه عودني ان لا يطابق عمله ما في نفسي » وكانه ندم على هذا التعريض فاستدرك وقال « ولا بأس من تأجيل ذلك الى الغد . . »

وشعرت جهان عند تعريض ابيها باخيها انه غير راض عنه وكانت تلحظ مثل ذلك من قبل وهي لا تعلم سبباً لهذا الفتور وكان المرزبان يبالغ في كتمان ذلك لعلمـه بذكاء جهان وسرعه انتباهها وانها اذا اطلعت على ما في خاطره من امر اخيها ينكدر عيشها . فسكتت وسكت والدها حيناً وكلاهما مطرق واخيراً انتبه هو فقال « اذهبي يا جهان يا حبيبتي الى غرفتك وبدلي ثيابك وتناولي عشاءك فاني اشعر براحة وميل الى الرقاد »

فنهضت وهي تقول « الا تحتاج الى شيء اقضيه لك يا ابتي قبل ذهابي ؟ »

قال « لا احتاج الى شيء الآن واذا اصبح الصباح وجاء الموبذ علمت شيئاً جديداً ... اذهبي محفوظة محروسة »

الفصل الحادي عشر

سامان

اشتاقت نفسها للاطلاع على ما في خاطر والدها والى ما ستعلمه في الغد . . . ولم تستحسن الالحاح عليه في كشفه مراعاة لضعفه وقد سرها انه لم يذكر الافشين ولكنها ودت لو سنحت لها فرصة تذكر فيها ضرغاماً لعله يذكره بخير وتتطرق الى اطلاعه على رغبتها فيه ولم تكن تهيب من ذلك التصريح وان خالف العادة المألوفة من سكوت البنات عن مثله لانها كانت لكبر عقلها قد تعودت التكلم بين يدي والدها كما يتكلم الرجال . لكنها أجلت ذلك حتى يأتي ضرغام ويدخل عليه فتتخذ دخوله حجة للكلام

وقبل ان تتحول للخروج دخل الخادم واخبر المرزبان « ان سامان بالباب » فلما سمع المرزبان اسمه انقبضت نفسه ولكنه تجاهل وقال « يدخل »

فدخل سامان ولا يصدق الناظر اليه والى جهان انهما اخوان على انه كان اخاها من ابيها فقط لان والدته كانت جارية سندية ماتت عنه وهو في الثامنة من عمره وسافر والده على اثر ذلك الى بلاد القوقاس فلقي هناك فتاة شركسية اعجبه جمالها فتزوجها وجاء بها الى فرغانة فولدت توأمتين هما جهان وطفلة اخرى . وماتت الوالدة والطفلتان صغيرتان فعهد بامرهما الى خيزران ولم يعد يتزوج بعد امهما لانه كان يحبها حباً شديداً لفرط جمالها وتعقلها واحب ابنتيها لشدة مشابهتهما لها ولكنهما لم تبلغا الثالثة من العمر حتى فقدت احداهما وبقيت جهان وحدها فتحولت كل محبته اليها . والمشهور عن فقدان تلك الشقيقة ان فرساً اختطفها لان في تركستان جماعة من اللصوص يدربون الخيل على اللصوصية فتختطف الاطفال أو الاحمال باسنانها وتعدو بها واصبح اهل فرغانة من ذلك العهد يحاذرون التغافل عن اطفالهم خوفاً من اختطافهم. اما المرزبان فنظر في سبب ضياع ابنته نظراً آخر وزلد البغض في قلبه لسامان من ذلك الحين لكنه كتم السبب عن كل انسان

فكان سامان بعيداً عن جهان خلقاً وخلقة . كان قصيراً اجرد ليس في وجهه الا

شعرات متفرقة في ذقنه . وكان منبسط الخدّين يخامر بياض عينيه حمرة كانه مستيقظ من رقاد وهو مع ذلك مضطرب البصر لشدة الحوَل اذا نظر اليك حسبته ينظر الى السقف او الى الباب ولا يستقر نظره في نقطة . يخاطبك وهو مطرق أو يحول بصره عنك واجفانه ترتجف . واذا تكلم اسرع بكلامه وشفتاه ترتعشان كانـه في موقف يخاف فيه القضاء عليه بالموت ولكنه كان كثير الدهاء واسع الحيلة شديد الحب لذاته والكره لسواه فلا يحب من الدنيا غير نفسه و يغلب هذا الطبع في الاجرد والخصي

فلما اذن له في الدخول هرول الى سرير والده وعلى رأسه قلنسوة من الخز بلا عمامة وقد ارتدى جبة طويلة تغطي ثيابه واصبح اذا مشى يتعثر باردانها في اثناء مشيه فوقف بين يدي والده وقال « ذهبت الى بيت كرشان شاه (وهو هيكل المجوس بفرغانة) فلم اجد الموبذ هناك وقيل لي انه يعود في الصباح فهل ابحث عنـه في منزله ؟ »

فهزَّ المرزبان رأسه متضجراً وقال « قد كان في امكانك ان تبحث عنه قبل رجوعك ولـكن لا بأس . . غداً نرسل اليه احد الخدم فانهم كثيرون عندنا . . اذهب الآ ن »

فرأت جهان في خطاب والدها جفاء زادها شكاً في نيته على اخيها ولم تكن سمعته يخاطبه بهذه اللهجة من قبل . اما سامان فتجاهل مراد ابيه واظهر الاستغراب وقال « لم اكن احسبك تطلب حضوره الليلة من كل بد والا لما رجعت الا به . . هل اذهب للبحث عنه ؟ »

وكان المرزبان يسمع كلام ابنه وهو يتفرس في وجهه فلمـا فرغ من قوله حول وجهه عنه وقال « اذهب ... ولكن لا تبحث عنه فاني احتاج الى الراحة .. »

فاكب سامان على يدي والده يقبلها فلم يكترث ابوه به ثم خرج وظلت جهان واقفة ونظرت الى ابيها وتفرست في عينيه فرأت فيهما دمعتين تكادان تتحدران وهو ينظر الى الشمعة المضيئة بين يدي التمثال وقرأت حول شفتيه معنى دلها على سرٍ في خاطره يحب افشاءه فقعدت على السرير وتناولت يده فشعرت بعرق بارد ورعدة خفيفة فقالت « هل تريد مني شيئاً يا ابتاه ام اذهب ؟ »

فقال وهو يصلح متكأه « اذهبي يا حبيبتي . . . لا . . . لا تذهبي . . لا بل اذهبي واستريحي . . ».

فقالت « ما بالك . . . هل اغضبك اهمال اخي سامان . . سامحه . . انه لم يكن يعلم مرادك . . »

فهز رأسه وقال « انه لم يفهم مرادي ولكنني فهمت مراده . . وقد دنا وقت المحاسبة .... » قال ذلك واستلقى على الفراش وهو يرفع الغطاء الى كتفيه التماساً للرقاد فعلمت انه لا يريد الخوض في الموضوع فساعدته على التغطية وخرجت الى غرفتها وهي في شاغل جديد على اخيها فرأت خيزران في انتظارها فرحبت بها وسألتها عن ابيها فطمأنتها انه مرتاح فقالت « بدلي ثيابك واذهبي الى فراشك »

فظلت واقفة ولم تجبها فادركت انها لا تزال عالقة الذهن بضرغام ومجيئه فابتدرتها قائلة « ان الناس قد انصرفوا واطفئت الانوار في الحديقة والايوان ولم يأت ضرغام فالظاهر انه يأت في الغد . . »

فاقتنعت واخذت في تبديل ثيابها فساعدتها خيزران على ذلك ثم ودعتها وخرجت وارادت جهان ان تذهب الى فراشها واذا بخادمة دخلت وهي تقول « ان مولاي سامان يريد مشاهدة مولاتي . . »

فسرّت جهان لقدومه لانها كانت مشتغلة الخاطر به بعد خروجه من حضرة والده على تلك الصورة فدخل وعليه ملامح الاكتئاب والانكسار فلما رأته اشفقت عليه فرحبت به وابتسمت له وقالت « لا يسوءك ما سمعته من ابينا فانه قاله عن غضب من ضعفه وضيق صدره . . »

فقعد على وسادة في ارض الغرفة وهو يظهر الاسف والانكسار واطرق ولم يجب فجلست الى جانبه وتفرست فيه فرأت دموعه تتساقط بلا بكاء فأثر منظره في خاطرها وغلب حنوها وطيب عنصرها على فراستها وتهيأبها وقالت « ما بالك تبكي يا سامان يا اخي »

فرفع بصره اليها وقال وصوته مختنق « تسألينني عن امري وقد شاهدت بعينيك وسمعت باذنيك ... »

قالت « قلت لك ان ابانا فعل ذلك عن مرض لا غرض فانه يحبك وليس له ابن سواك فانت وريث اسمه وانت ... » فقطع كلامها قائلاً « ربما كان يحبني ولكنني اراني سيء الطالع .. لاني ابذل جهدي في طاعته ولم يكن هو كلفني استدعاء الموبذ ولكنني رأيته يسأل عن خادم يرسله في طلبه فقدمت نفسي لهذه الخدمة .. ولا ارى منه غير الاعراض وانا يهمني ان يكون راضياً عني .. »

قالت « انه راض عنك والا فانه سيرضى ... كن مطمئنًا »

قال « انا اعلم انك تحبينني وتسعين في استرضاء والدي ولكن يظهر ان آخرين يكيدون لي عنده ... وهو لسلامة نيته ينخدع باقوالهم » قال ذلك ووقف واظهر انه يريد الخروج لئلا يسوءها تمام حديثه فاوقفته وقالت « من تعني باولئك الكائدين ؟ »

قال « اعني جماعة تعرفينهم وقد قبضوا على عقولنا وقلوبنا واموالنا باسم الدين »

فعلمت انه يعني الموبذان (الكهان) فقالت « فهمت مرادك واظنك تعمدت الرجوع وحدك الليلة ولم تأت معك بالموبذ ؟ »

فتنحنح وبلع ريقه ثم قال « لم أتعمد ذلك ولكنني لم اجده في بيت النار فلم ابحث عنه في مكان آخر لان دخول الموبذان الى بيتنا يفسده .. »

فقطعت كلامه قائلة « اني لا اوافقك على ذلك لان اولئك الموبذان يصلون لاجلنا هم بركتنا وليس لنا تعزية بدونهم وارى والدنا يعتقد ذلك فلا يجب ان نخالفه »

فقال « لا انكر ان بينهم اناساً صالحين ولكن بعضهم من اهل المطامع يريدون كل شيء لانفسهم .. مالنا ولهم الآن وانما يهمني ان لا يكون والدي ناقماً عليّ »

فقالت « اما هذا فانا ادبره فاذهب الى فراشك مطمئنًا »

فخرج وهو مطاطئ رأسه يظهر الانكسار وحالما خرج ذهبت هي الى فراشها ولما خلت بنفسها عادت الى هواجسها ولم تنم تلك الليلة الاّ قليلاً

الفصل الثاني عشر

ضرغام

واصبحت باكراً فالتفت بطرفها وذهبت الى غرفة والدها بثوب البيت فرأته جالساً في سريره وهو احسن حالاً من الامس ففرحت بصحته وسألته عن حاله فقال « قد نمت براحة شكراً لاورمزد واشعر اليوم بنشاط ... الم يبلغك قدوم الافشين الى فرغانة فقد كنت على موعد من مجيئه في هذا العيد »

فلما سمعت اسمه اجفلت وقالت « لم اعلم يا سيدي ولعله جاء ولم يأت الينا بعد . »

فقال « من لي بمن يبحث عنه »

فقالت « اذا امرت ان نبعث من يطلبه فعلنا ولكنه لو اتى فرغانة لجاءنا بلا دعوة »

قال « صدقت .. وهل ذهب اخوك ليستدعي لنا الموبذ اليوم ؟ »

قالت « انه خرج في الفجر باكراً للبحث عنه لانه تأسف البارحة لتغيرك عليه »

فقال « ننتظر رجوعه ... اسقني شربة ماء من يدك »

فسرها انه يرتاح الى ذلك فاسرعت بنفسها فاتته بكاس فيه مـاء وقدمته اليه فشرب به وانتعش ودفع الكاس اليها فدفعته الى الخادم وعادت واذا بالحاجب دخل وهو يقول « ان ضيفاً قادماً من العراق يريد مقابلة المرزبان »

فصاح المرزبان « هذا هو الافشين » وظهر الارتياح في جبينه ولم يسأل عمن هو قبل ادخاله على جاري العادة فقال « ليدخل » واسفت جهان لوجودها هناك ولو استطاعت ان تشق الحائط وتخرج منه لفعلت ولكنها تجلدت مراعاة لخاطر ابيهـا فوقفت وقد انقبضت نفسها فتماسكت لئلا يبدو ذلك عليها

اما الحاجب فوسع الستر فدخل القادم فلما اطل اجفلت جهان وبدت الدهشة على وجهها وانقلب انقباضها الى انبساط وتحول امتقاع لونها الى تورد لان القادم لم يكن الافشين وانما هو ضرغام . فلما رآه المرزبان ابتسم له ورحب به وصاح « ضرغام ! اهلاً بولدنا ضرغام ظننتك صديقنا الافشين .. هل انت قادم من العراق ؟ »

قال « نعم يا مولاي . . . »

قال « وهل اتي الافشين معك »

قال « لم يأت معي ولكنني علمت يوم خروجي من العراق انه عازم على المجيء الى اشروسنة وأظنه أتى »

وكان ضرغام شاباً في نحو الثلاثين من العمر قد كمله الله خَلقاً وخُلقاً . فكان ربع القامة ممتلىء الجسم عريض المنكبين واسع الجبهة كبير العارضين كث اللحية تلوح البسالة وعلو الهمة في عينيه وتتجلى المروأة وصدق اللهجة حول شفتيه . على رأسه قلنسوة قرمزية حولها عمامة سوداء وقد لبس قباء سماوي اللون تمنطق حوله بمنطقة علق بها سيفاً قبضته مذهبة وتحت القباء سراويل من الخز الارجواني . وفوق القباء جبة سوداء وقامته قامة الابطال اذا وقف حسبته جبلاً راسخاً

دخل على المرزبان في ذلك الصباح وهو لا يعلم ان جهان هناك فلم تكن دهشته اقل من دهشتها

أما هي فلما وقع بصرها عليه لم تعد تعلم كيف تخفي بغتتها واذا استطاعت اخفاء خفقان قلبها وارتعاش اعضائها فكيف تستطيع اخفاء ما ظهر من التورد في وجنتيها او الاشراق في عينيها — وقد نسيت حال والدها من المرض واصبح همها ان تلاحظ ما يبدو منه نحو حبيبها من ترحاب أوانعطاف . فلما رأته يرحب به فرحت وكانت بجانب الصنم فاستندت على العضادة وتشاغلت بمسح ما على الصنم من الغبار مخافة ان يبدو ارتعاشها ولم تغط وجهها لان نساء تلك البلاد لا يعرفن الحجاب يومئذ ولاسيا جهان فقد كانت تستنكف من تغطية وجهها وتعدُّ الحجاب جبناً وضعفاً

اما ضرغام فلا نسل عن سروره بتلك الصدفة . وساعده في اخفاء عواطفه السلام على المرزبان فاكب على يديه يقبلهما . فامر له بوسادة جلس عليها وجلست جهان على وسادة أخرى وأخذ المرزبان يسأله عن حاله فقال ضرغام « قد اسرعت في الزيارة باكراً لاكون أول من يهنئك بهذا المهرجان المبارك ولم اكن اعلم انك منحرف المزاج فارجو ان تكون احسن حالاً »

فقال المرزبان « أصبحت مرتاحاً اليوم وقد زاد سروري برؤيتك وانت تعلم

حبي لك »

فانحنى ضرغام شاكراً وقد سره هــذا الانعطاف ولكن سروره لم يكن شيئاً يذكر بالنظر الى سرور جهان فكانت تسمع كلمات ابيها وقلبها يرقص فرحاً فاجابه ضرغام« اني اشكر لسيدي المرزبان التفاته الى ضيفه وقد تأكدت فضله عليَّ من قبل وانا غرس نعمته »

فتغافل المرزبان على سماع ذلك الاطراء قائلاً « هل انت قادم توًّا من العراق؟ »

قال « نعم يا سيدي وقد وصلت الى فرغانة مساء الامس »

قال « وكيف فارقت القوم هناك ؟ »

قال « فارقتهم في شاغل من المشاكل وكل واحد يخاف صاحبه ويحذره . ويستعين عليه بجند من غير جنسه ... وانما الغلبه اليوم للجند التركى »

فقال « قد علمت ان الخليفة الجديد المعتصم بالله .. لما افضت الخلافة اليه استعان في تأييدها باخواله الاتراك فاعانوه وفي جملتهم الافشين ملك اشروسنة وانت »

فاعجبه اقران اسمه باسم الافشين ولكنه اراد التواضع فقال «ان الافشين عون كبير للخلافة وأما انا فلا استحق الذكر »

فقطع المرزبان كلامه قائلاً « ان لك مستقبلا مجيداً لما اعلمه من بسالتك وعلو همتك .. انك لنعم القائد البطل ولا بد انك ارتقيت في جند الخليفة »

قال « نعم قد اصبحت بفضل مولاي رئيساً للحرس »

قال « رئيساً لحرس الخليفة ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

فبان السرور بوجه المرزبان والتفت الى جهان وهو يظهر الاعجاب بذلك التقدم السريع على عادة المعجب بامر يسمعه ان يطلب مشاركة الحضور في اعجابه فرأى جهان شاخصة الى ضرغام تسمع حديثــه وتكاد تلتهمه ببصرها . ولو ادنى المرزبان اذنه من صدرها لسمع خفقان قلبها . أما هي فانتبهت للفته فحولت بصرها اليه وسايرته بابتسامة اظهرت بها انها مشاركة له بمجاملته وسكتت وعيناها تتكلمان كلاماً لم يفهمه والدها وانما فهمه ضرغام وكان يجيبها بنظرات وجهها نحوها في اثناء الحديث

اما المرزبان فعاد للكلام عن الجند فقال « اظن في العراق الآن جمعاً كبيراً من الاتراك المجندين »

قال « انهم يزيدون على عشرين الفاً من هذه البلاد وفي جملتهم ابناء ملوك فرغانة الاخاشيد وغيرهم » (١)

فقال « اظنه رغب في تجنيدهم لعصبية والدته فيهم »

قال « لا يخلو ان يكون ذلك بعض السبب ولكن السبب الاهم ان دولة المسلمين هذه عربية الاصل كما تعلم ولما نهض المسلمون للفتح كان الجند كلهم عرباً ففتحوا الامصار واسسوا الدولة وظلت الجنود معظمها عربية كل ايام بني امية . ثم قام الفرس بنصرة العباسيين وشاركوهم في تأسيس دولتهم فاشتد ساعد الفرس وضعف امر العرب . وما زال الفرس يتفوّقون الى ايام المأمون الخليفة السابق فاصبحوا هم اهل الدولة وفي ايديهم الحل والعقد . ولا يخفى عليك انهم ما زالوا من اول الاسلام وهم ينوون رد السلطة الى الملوك الاكاسرة »

الفصل الثالث عشر

سامرّا

فلما وصل الى هنا تنهد المرزبان تنهداً عميقاً فادرك ضرغام انه يأسف لضياع دولة الفرس فتجاهل وسار في حديثه فقال « فلما افضت الخلافة الى المعتصم منذ بضع سنين اصبح خائفاً من الفرس وخصوصاً لانهم قتلوا اخاه الامين وسلموا الدولة الى اخيه وابن اختهم المأمون على نية ردها الى الفرس بعد زمنه . فلم يرَ المعتصم خيراً من ان يستعين عليهم بقوم اشداء لم تذللهم الحضارة فعمد الى تجنيد الاتراك كما علمت .. »

قال « وهل هم يقيمون في بغداد ؟ »

قال « كانوا يقيمون هناك الى عهد غير بعيد فضايق البغداديين من جوارهم

(١) اليعقوبي

لانهم كانوا يؤذون العوام في الشوارع . وربما رأوا الواحد بعد الواحد قتيلاً في الاسواق [1] فابتنى لهم المعتصم مدينة سماها « سر من راي » او سامرّا واختط فيها الخطط واقتطع القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم . وافرد اهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه وتسامع الناس ان دار الملك قد انتقلت الى هناك فقصدوها وجهزوا اليها من انواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس فكثر العيش واتسع الرزق »

فاعجب المرزبان لهذا التدبير فقال « فهي اذاً مدينة كبيرة . . . وهل بقي الاتراك على دينهم ام غيروه »

قال « لايخفى على مولاي ان معظمهم يدينون الزرادشتية ولكنهم اصبحوا الآن مسلمين . ومن اغرب التدابير التي دبرها هذا الخليفة لاستبقاء هذا الجند قويًا كما هو الآن انه ابعده عن اهل البلاد ومنع رجاله ان يتزوجوا منهم . ورأى ان يزوجهم بنات تركيات يستجلبهن بالشراء من تركستان وقد ارسل وفداً لابتياع هؤلاء الجواري فاغتنمت هذه الفرصة واستأذنت في مرافقة هذا الوفد فاتيت الى فرغانة بهذا السبب . . »

فقال المرزبان « قد سرّني قدومك يا ولداه وفرحت برؤيتك وكأن اورمزد قد دبر ذلك حتى اراك قبل .... » قال ذلك وتغيرت سحنته وبان الانقباض في وجهه لكنه تشاغل بالسعال ومسح شاربيه وعينيه حتى لا يظهر اجهاشه للبكاء . فاختلست جهان في اثناء ذلك ابتسامة تبادلتها مع ضرغام وقد سرّها تودد والدها اليه ولكنها تأثرت من يأس ابيها . وهي ارغب في بقائه بعد ما عاينته من رضاه على حبيبها وتأكد عندها انه لا يمانع باقترانها وعزمت على مخاطبته بذلك في أول فرصة

اما المرزبان فاراد ان يشغل ضرغام عما بدا منه فقال « وكيف والدتك المسكينة ؟ »

قال « هي في خير الحمد لله لا تفتر لحظة عن ذكر مولاي وافضاله علينا وتذكر على الخصوص مولاتنا جهان لانها شديدة التعلق بها .. »

فرأت جهان سبيلاً لمخاطبته فقالت « مسكينة آفتاب . . . اني احبها محبة الابنة

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ١٥٦ ج ٤

لوالدتها ولم الق امرأة اطيب قلباً منها وقد كنت كثيرة الاستئناس بها »

وهب المرزبان بغتة كان شيئاً نبهه فقال « اين سامان ؟ .. هل اتى الموبذ .. ادعوه لي حالا .. ان سامان لا يعول عليه » قال ذلك وهز رأسه هزة كلها معان

فنهض ضرغام وقال « انا اذهب لاستدعائه فاني اعرفه واعرف مكانه »

فقال المرزبان « لا تكلف نفسك الذهاب وفي قصرنا عشرات من الخدم والخصيان . . ولو لم يتصدى سامان للذهاب بنفسه لكان لنا غنى بواحد منهم »

فقال « قد احسن سامان بتصديه اجلالا لامر ابيه واذا اذن مولاي ان اتولى ذلك انا فعلت »

فقطع المرزبان حديثه قائلا « كلا لا تذهب انت »

فقال « تأذن لي ان ابعث خادمي بل رفيقي وردان فاني لم اكل اليه امراً الا انفذه ولو ركب اليه على رؤوس الاسنة » قال ذلك وخرج وصاح « وردان »

فاتاه رجل في نحو الاربعين من العمر خفيف العضل خفيف اللحية يظهر من بروز انفه وسائر ملامحه انه ارمني . وكان قد دخل في خدمة ضرغام بساموّا من عهد قريب ولكنه اكتسب ثقته سريعاً لما آنسه ضرغام من علو همته ونشاطه وشدة حبه له فكان يعامله معاملة الرفيق وابى ان يسميه خادماً لانه آنس فيه من عزة النفس والانفة مالا يعهده بالخدم فاتخذه رفيقاً له واصبح يصطحبه باسفاره — فلما جاء وردان وقف بين يديه وعليه عمامة مستديرة وسراويل قصيرة وفروة من جلد الغنم فقال له « هل عرفت بيت النار الذي مررنا به مساء الامس وعليه الانوار والرايات ؟ »

قال « نعم »

قال « اذهب الى هناك واسأل عن الموبذ وقل له ان المرزبان يطلب حضورك في هذه الساعة ولا ترجع الا وهو معك »

فاشار مطيعاً وخرج

اما جهان فاصبحت شديدة الرغبة بخلوة تحادث فيها ضرغاماً وتشاكيه الغرام وكانت تشعر ان رأسها مملوء بالاخبار التي يلذ لها كشفها له على عادة المحب اذا فارق حبيبه فانه لا يرى شيئاً او يسمع خبراً أو يخطر له خاطر الا ويشعر بميل لملاقات حبيبه ليشركه

في ما رآه أو سمعه او خطر له وقد يكون ذلك سبباً في زيادة الشوق فيسرع في اللقاء واذا التقيا وفرغا من التشاكي والتعاتب عمدا الى مبادلة الاحاديث وقص الاخبار و بث الاسرار كان الحب امتزاج الارواح فيستلزم امتزاج الشعائر والافكار

فلا عجب اذا اشتاقت جهان لمجالسة ضرغام بعد ذلك الفراق الطويل ولا حاجة الى القول انه في مثل شوقهـا ولهفتها . وكانا في حيرة كيف يتسنى لهما ذلك . فاذا بالمرزبان ينادي جهان قائلا «مري المهتر — وهوقيم الدار — ان ينزل حيناضرغاماً في القصر ويهيء له ما يحتاج اليه ومتى فرغ من ذلك مريه بالمجيء الي فاني احتاج الى الاختلاء به حيناً بينما يأتي بالموبذ »

فسرها هذا الطلب وخرجت لاجراء ما امر به والدها وقد سبقها ضرغام الى قاعة خصوصية تعود ان يراها جالسة فيها

الفصل الرابع عشر

بيت النار

اما وردان فانه خرج باسرع من لمح البصر ولم يكن فيه شيء من طبائع الخدم الا الطاعة العمياء لضرغام وأما ما خلا ذلك فقد كان فيه مناقب كبار الرجال وشعر ضرغام بذلك فعامله معاملة الصديق

وما خرج وردان من قصر المرزبان حتى رأى الناس يتزاحمون ببابه بافراسهم وهداياهم وعليهم اثواب العيد وهم ينتظرون الاذن بالدخول فلما رأوه خارجاً بلهفة وعجلة جعلوا يتساءلون عن سبب عجلته وتجاسر بعضهم فسأله عن حال المرزبان فلم يجبه وظل سائراً حتى تجاوز القصر الى الشوارع وقد تزاحمت فيها الاقدام وتصادمت المناكب والناس في شاغل من امر العيد بين راكب وماش زرافات ووحدانا يحملون الفاكهة والحلوى ويتبادلون عبارات المعايدة . فلم يهمه شيء من ذلك وظل سائراً حتى اطل على كاران شاه (بيت النار) والاعلام تخفق على سوره وحوله مقادير تعد



بیت النار — کاران شاه

بالعشرات تقيم بها السدنة والخدم والقوام وقد تزاحم الناس ببابه وهو مزين بالريحان فتظاهر وردان انه واحد من عبدة النار وقد جاء لاداء فريضة الزيارة فدخل الى صحن ذلك المعبد فرآه مفروشاً بالديباج والحرير يحيط به اروقة مستديرة قد علقت فيها الستائر المطرزة و بعضها مرصعة بالحجارة الكريمة

واتصل من ذلك الصحن الى باحة المعبد حيث يقيمون الصلاة فاذا هي بقعة مربعة في وسطها بناء معقود شكله مربع مستطيل في وسطه شبه الباب يصعد اليه بخمس درجات (انظر الشكل) . وحول الباحة احواض ملتصقة بالجدران قد اوقدوا فيها النيران واحرقوا البخور فتصاعد دخانها في الفضاء وعلى زوايا القبة اجران تصاعد دخانها كما تصاعد عن مئات من امثالها على اعلى السور . وفي بعض جوانب الباحة نحو اليسار وعاء مستدير مملوء بالنفط قد اشعلوه من فوهة فيه فتصاعد اللهيب كالمزراق واصطف الناس حوله بين جلوس ووقوف وهم يتخشعون أو يصلون . ورأى رجلا واقفاً على الدرج ظنه الموبذ فهمّ بالذهاب اليه فاعترضه رجل على رأسه قلنسوة مستطيلة هرمية الشكل عرف من منظره انه احد السدنة فلما رآه السادن اعترض سبيله فوقف وردان فقال السادن « ماذا تريد يا سيدي ؟ »

قال « اريد مولانا الموبذ . . اليس هذا هو ؟ »

قال « كلا . ان الموبذ في شاغل الآن »

قال « اين هو ؟ »

قال « مالك وله ؟ اذا شئت الصلاة او البركة فهذه النار في الاجران »

قال « بل انا اريد الموبذ »

فحول الرجل وجهه عنه وهو يقول « انك لن تظفر برؤيته الا بعد الصلاة »

فاستمهله قائلاً « لا تغضب يا سيدي فاني غريب وقد اتيت من خوكند بالامس وعهدي بكم تكرمون الغرباء »

فخجل السادن ووقف له وقال « الم تأت للصلاة او الاقتباس ، فهذه النار المقدسة فاقتبس ما شئت »

قال « بل انا اريد الموبذ »

فتقدم السادن وهو يدني فاه من اذنه ويقول همساً « ان الموبذ في خلوة مع بعض الكبراء في هـذه الحجرة (واشار الى حجرة نحو اليمين) فانتظر خروجه او افعل ما شئت »

فمد وردان يده الى جيبه واخرج دنانير دفعها اليه وهو يبتسم ويقول « الا تأذن لي ان ادنو من الحجرة اصلي بجانبها استئناساً بمولانا الموبذ »

فتناول السادن الدنانير وقال « افعل ولكن احذر ان يشعر بك احد »

فقال « طبعاً » وهرول نحو الحجرة على نية ان يدخل على الموبذ بحيلة ويبلغه امر المرزبان فلما وصل الى بابها وقع نظره على الموبذ ومعه رجلان بلباس فاخر عرف احدهما وهو الافشين اما الآخر فلما وقع بصره عليه اختلج قلبه في صدره لانه يشبه رجلاً في نفسه منه امرٌ عظيم فتفرس فيه فاذا هو الرجل بعينه فاستغرب وجوده هناك وهو اصبهبذ (نائب) بابك الخرمي وعهده انه في اردبيل بارمينيا فما الذي جاء به الى فرغانة وبين البلدين سفر طويل . فبعد ان كان وردان مسرعاً لمقابلة الموبذ تراجع ثم وقف وهو يتظاهر بالصلاة والدعاء واعمل فكرته في سبب هذه الخلوة في بيت نار المجوس بين الافشين قائد جنـد المسلمين ونائب بابك الخرمي المجوسي الدّ اعداء المسلمين . فحدثته نفسه ان يستطلع ذلك السبب بالحيلة فتحول الى فرجة تؤدي الى مستتر وراء الحجرة فيه نافذة تشرف على داخلها بحيث يرى الجلوس فيها وهم لا يرونه. فتربص واخذ يتفرس في الجماعة فرآهم جالسين على بساط من الديباج — الموبذ بقلنسوته وقبائه الارجواني و بين يديه الافشين بعمامته حول القلونسة والاصبهبذ بالقلنسوة بلا عمامة . وكان يعهد الافشين يلبس الجبـة السوداء شعار العباسيين فاذا هو بقباء ارجواني يلبسه كبار المجوس في ذلك العيد و يعرف الافشين مسلماً رآه يصلي بالمسجد في سامرّا غير مرة فما الذي جعله يصلي في بيت النار ولم يستغرب مجوسية الاصبهبذ لعلمه انه لم يعتنق الاسلام . فقعد واظهر انه يتلو دعاء او صلاة واصاخ بسمعه الى ما يقولون فسمع الموبذ يقول « لا بد لنا من الفوز بعون اورمزد وانما يجب علينا ان نصبر »

فقال الاصبهبذ « انا صابرون ولا اظن اصطبارنا يطول على شرط » وقطع كلامه وهو يبلع ريقه

قال الافشين « لا بأس من الصبر وان طال ولكن لا ينبغي لصاحبك بابك ان لا يغير اعتقاده فيّ »

قال الاصبهبذ « انه لم يغير اعتقاده فيك ولكنه رآك اطلت التقرب من أولئك اليهود الذين يسمون انفسهم مسلمين [١] او عرباً وقد ارسلني اليك للاجتماع بك في هذا المهرجان على جاري العادة لاذكرك بعهدك بين يدي حضرة الموبذ »

فضحك الافشين وقال « ربما ظن صاحبك انني غافل عن العهد الذي عقدناه هنا منذ بضع سنين [٢] ومعنا المازيار صاحب طبرستان اما انا فاسأل حضرة الموبذ هل اقت بعهدي ؟ »

فاشار الموبذ برأسه ان « نعم »

فاستطرد الافشين كلامه قائلا « ان هذه النار تشهد على عهدنا . . قل لاخي بابك انني لا ادخر وسيلة في جمع المال وارساله ولا اخطو خطوة في حرب او سلم لدى المعتصم الا اقتضيت عليها مالا ارسله الى خزينتنا في اشروسنة . واما المازيار فانه مقيم على العهد ولم يحضر معنا هذا العام لاسباب خصوصية لكنه كتب اليّ يستحثني على الثبات وانه اذا تحركنا كان هووطبرستان كلها معنا فانه اشد غيرة منا على التقلص من هذه الدولة الظالمة والرجوع الى دولة الفرس المجيدة »

قال الاصبهبذ « ذلك هو عهد مولاي فيك ولكنه رآك اطلت الرضوخ لحكم أولئك اليهود كانك اصبحت واحداً منهم حتى تصديت لحربنا غير مرة »

فقهقه الافشين وهز رأسه قائلا « المثلي يقال ذلك ؟ وهل يخفي قصدي على اخي بابك ؟ ألا يعلم اني اذا خرجت لحربه انما افعل ذلك اخفاء لغرضي ولكنني اترقب الفرص واذا سنحت فرصة مناسبة انبأته بها وقمنا جميعاً قومة رجل واحد فتنال امنية قصر عن نيلها ابو مسلم الخراساني وجعفر البرمكي والفضل بن سهل وغيرهم من دعاة الفرس . . ألا تعلم ان هؤلاء انما افسدوا تدبيرهم بالعجلة ؟ ومثل هذا الامر يتطلب التؤدة والصبر واغتنام الفرص »

---

(١) ان المجوس المعادين للمسلمين كانوا يسمونهم يهوداً (ابن الاثير)

(٢) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار

فالتفت الموبذ الى الاصبهبذ وقال « صدق الملك بما يقول انه رجل محنك فقل لولدنا بابك ان يتربص معنا واورمزد يساعدنا فقد نبئت بحلم رأيته بالامس ان وقت الفوز قد دنا فلا ينبغي ان تتغير نياتكم فيضيع سعينا سدى »

وكان وردان يسمع ذلك الحديث وهو يرتعد من الدهشة لما شاهده وسمعه فقد رأى قائد جند الخليفة يكتم المجوسية ويمالئ عدو المسلمين على الايقاع بالدولة عند سنوح الفرصة . واحس مع دهشته انه اكتسب سلاحاً قوياً يجرده عند الحاجة . ثم رأى الموبذ يتحفز للنهوض ونهض الافشين ورفيقه وتلثما اخفاء لحقيقة حالهما فتحول وردان باسرع من لمح البصر حتى وقع في مكان من صحن الهيكل يلتقي فيه بالمرزبان عند خروجه

وكان الناس مشتغلين بالاقتباس والدعاء فانبأهم السادن بخروج الموبذ فتهيأوا للتبرك بطلعته ووقف وردان بجملتهم يقلدهم بحركاتهم فاذا بالموبذ يخطر بثوب يبهر البصر بالوانه وتطريزه وفي عنقه عقد من الجوهر وبيده صولجان قبضته مذهبة وهو قابض عليها يضرب الارض بعصاه ويمشي مشية الخيلاء والناس يطأطئون له رؤوسهم

فلما رآه وردان يقترب منه تقدم نحوه واكب على يده يقبلها وهو يقول « ان مولانا المرزبان يدعوك اليه الساعة لامر ضروري »

فعلم انه يعني والد جهان لانه وحيد هناك فقال « هل اشتد المرض عليه ؟ »

قال « لا ادري ولكنه الحَّ عليَّ ان تتفضل بزيارته حالاً وامرني ان لا اعود الا وانت معي »

قال « اني ذاهب انتظرني خارجاً »

فخرج وردان وهو يحاذر ان يراه الافشين لئلا يدرك انه اطلع على شيء من سره . ولما صار بالباب رأى مركبة قد شدّ اليها فرسان عليهما العدة المذهبة فعلم انها معدة للافشين والناس قد وقفوا ينظرون اليها وهم يتساءلون عن الضيفين اللذين احتفل بهما الموبذ هذا الاحتفال

وبعد هنيهة خرج الموبذ فركب في العربة وركب الافشين الى جانبه وهو ملثم واشار الى وردان فركب على احد الفرسين وساروا يطلبون قصر المرزبان

الفصل الخامس عشر

التشاكي

تركنا ضرغاماً في انتظار جهان بغرفتها واهل القصر لا يرون بأساً من اجتماعهما نظراً لما يعلمونه من منزلة ضرغام عند مولاهم ولان جهان لا تحتجب عن الرجال . جلس ضرغام على كرسي في بعض جوانب الغرفة ولبث في انتظار حبيبته وهو على مثل الجمر وقد همه ما شاهده من مرض ابيها وتشاءم من ذلك لكن اشتغاله بالشوق لجهان وشدة رغبته في مقابلتها انسياه كل شاغل

وما عتم ان سمع صوتها بجانب باب الغرفة تكلم المهتر وتوصيه بما امر به ابوها فخفق قلبه ثم دخلت فلما اقبلت عليه خف للقائها وكلاهما يبتسم وقلبه يخفق وقد نسيا الدنيا ومصائبها فانهما انتقلا من عالم الشقاء الى عالم الحب مقر السعادة والهناء — واذا اعجز الفلاسفة تمثيل الفردوس بما يجنيه من ادراك البشر فلا يُمثل حال المقيمين فيه مثل سعادة حبيبين تصافيا وصفا لهما الزمان وخلا لهما الجو فاجتمعا وطفقا يتشاكيان لا يزعجهما رقيب ولا يخامر قلبيهما شك او غيرة — تلك هي الجنة لولا ما ينتابهما من القصر او يعرض لاصحابها من طوارق الحدثان

فلما رأت جهان حبيبها واقفاً لاستقبالها هشت له ومدت يدها لمصافحته فمد يده وقبض على كفها وقلبه يضحك وعيناه تبرقان . واذا كان وهو الشجاع الباسل الذي لا يهاب مواقف القتال لم يتمالك عن الرعدة فكيف هي مهما بلغ من رباطة جأشها وتعقلها فانها لا تخرج عن طبيعة المرأة الحساسة . وفي مثل هذا الموقف عذرٌ للمحب على ما يتولاه من لواعج الغرام عند ذلك اللقاء بما يجري في عروقه من التيار الكهربائي — وابتدأ ضرغام بالكلام قائلاً « لقد اطالت الغيبة عليك يا سيدتي »

فاجتذبت يدها من يده ونظرت في عينيه نظرة المحب العاتب وقالت « لا تقل سيدتي بل . . . » وتشاغلت عن اتمام الكلام بالقعود وهي تدعوه اليه فقعد كل

منهما على كرسي وادرك هو مرادها فقال « كيف لا ادعوك سيدتي وانت جهان عروس فرغانة وبنت المرزبان وانا ضرغام اليتيم ابن آفتاب الارملة المسكينة »

فقطعت كلامه قائلة « بل انت سيدي ومولاي ... ليس لانك رئيس حرس الملك او قائد جند الخليفة ... ولكنك سيدي لانك شهم باسل .. لا .. ولا هذا ايضاً يزيدك رفعة في عيني .. اني اشعر بشيء آخر يعجزني التعبير عنه . اشعر بسلطة لك علي ... اذا لم تسعفني بالتعبير عنها كنت حزينة بائسة » قالت ذلك وتوردت وجنتاها وغلب الحياء عليها فعلم انها تعني الحب وان الحياء يمنعها من التصريح فقال « ان العامل الذي تحسبين ضرغاماً المسكين اصبح به سيداً فلاعجب اذا جعل الاميرة جهان الهاً .. فانا اذاً عبدك يا جهان . »

فقالت « قلت لك اني عاجزة عن اداء ما في خاطري او بيان اسبابه وانما اعلم ان منزلتك عندي لا تعلوها منزلة احد على وجه هذه البسيطة .. ويهمني الآن ان لا نضيع الوقت سدى اذ اخشى ان يأتي الموبذ فيدعوني ابي اليه ...» ولما ذكرت والدها تذكرت حاله فتنهدت ثم استدركت فقالت « ان وقتنا ثمين يا حبيبي ... يا حبيبي ... سامحني اذا دعوتك بهذا اللقب قبل ان تدعوني انت به .. آه من سلطان الحب »

فقال وقد هاجت اشجانه « لا يحق لاحد ان يبدأ بهذا التصريح سواك وقد فعلت حتى يكون لك الفضل في كل حال . . وهل اجسر انا ان ادعوك به قبل ان اسمعه من فيك ؟ .. فاحمد الله على ذلك ... حق لي الآن ان اسميك حبيبتي . . آه ما اشهى هذا اللفظ في فمي وما اسوغه على قلبي .. وكم كررته في خلواتي وكم تمنيت ان اسمعه من فيك ... وقد سمعته .. فهل في العالم رجل اسعد مني ؟ . . »

فتشاغلت باصلاح شعرها واطرقت وهو لا يحول نظره عنها وكانه يهم ان يضمها بجفنيه تهيباً من ان يقبض عليها بذراعيه فلما رآها مطرقة وقد بدا الاهتمام في محياها اختلج قلبه في صدره وتوهم انها ستخطف من بين يديه فقال « ما بالك مطرقة يا حبيبتي . . . جهان ما بالك ؟ »

فرفعت بصرها اليه وابتسمت وقد فهمت ما خالج خاطره وقالت « لا تذهب بك المخاوف الى مكان بعيد . . اني لم اسمك بذلك الاسم وانا اخاف احداً او اخشى بأساً

ولا سيما بعد ان آنستُ من والدي ما آنسته من الارتياح لك والتعلق بك ...
ولولا مرضه .. آه لولا مرضه ... » وسكتت

. فقال « ارجو ان يشفى قريباً » ومكث وعيناه تتفرسان في عينيها وكل منهما يقرأ فكر صاحبه ولعلها قرأت اكثر مما قرأ هو فقالت « ضرغام .. لا ينبغي ان يغلب الضعف على جهان حتى تخفي احساسها عن حبيبها وتحمله على الشك في شيء من امرها . قد تعاشرنا اعواماً وعرف كل منا صاحبه حتى امتزجت روحانا فما في الارض قوة تستطيع التفريق بيننا واراني غير قادرة على الاستقلال بفكري او حياتي عنك . فانا اشعر انك مني وانا منك . فاذا فكرت في شيء رأيت فكري يمرّ قبل بروزه على تذكارات انت قوامها واذا تخيلت حادثة كان خيالك نصب عيني يحول بيني و بينها ولا ترتسم في عقلي صورة الا وفيها شيء من صورتك . فهل بعد ذلك يستطيع البشر ان يفصلوا بيننا واذا استطاعوا التفريق بيّن هذين التوءمين البالين فهم عاجزون عن الفصل بين روحينا وفكرينا ... ولكننا مقبلون على امر عظيم .. فاذا تجاوزناه .. » وسكتت وحولت وجهها عنه خشية ان يبدو له ما يتردد في ماقيها

اما هو فاسكره تعبيرها واعجزه ما رآها فيــه على انه لم يفهم مرادها فقال « وما الذي يخيفك ؟ .. لا اعهدك تخافين ولكِ من تعقلك وثبات جأشك حصن حصين وهذه روحي بين يديك ارمي بها من تشائين »

قالت وهي تبدي الاهتمام « سلمتْ روحك يا ضرغام .. اني لا اخاف شيئاً اذ ليس في الارض قوة تستطيع ان تبعدني عنك .. وكنت احاذر ان أؤانس من والدي تغيراً او فتوراً فذهب حذري اليوم ولكنه مريض . فعساه ان يشفى قريباً »

قال « يشفى باذن الله .. وهل تخافين شيئاً آخر .. »

قالت « اتوقع اموراً كثيرة تخيف غيري ولكنني لا اخافها لاني اعدها اعراضاً وانت الجوهر فاذا كنت لي فقد ملكت الدنيا وما فيها ... اعذرني على هذا التصريح وخاطبني بمثله فاني لا احب التكتم والتردد .. »

فقال بلهفة وعزم ثابت « تريدين ان اصرح باني احبك او اني اترك الدنيا لاجلك فهذا لا حاجة بي الى ذكره والظمآن لا يطلب منه الاعتراف بحاجته الى

الماء والتعس لا يسأل هل يتمنى السعادة . وانا بدونك ظمآن بلا ماء وحي بلا سعادة وانت سعادتي وحياتي وانت كل شيء ..»

فابرقت عيناها وسرّي عنها وقالت « اذا كان هذا عزمك فهو كل ما ابغيه .. اني اسمع صوت سامان في الدار .. وربما دخل علينا فيقطع حديثنا .. فنحن على هذا العهد وسأغتنم ابلال والدي فاخاطبه بهذا الشأن ثم اخبرك بما يكون » قالت ذلك وتحفزت للوقوف واذا بخيزران قد دخلت وفي وجهها انقباض ولهفة فنهضت جهان لملاقاتها فابتدرتها خيزران قائلة « ان سامان داخل على مولاي المرزبان »

قالت « وهل اتي الموبذ معه ؟ »

قالت « كلاً .. »

فهزت رأسها وحرقت اسنانها ثم قالت لها وهي تشير الى ضرغام « هل رأيتِ ضرغاما ؟ »

قالت وقد علاها الخجل « لم اره يا سيدتي .. اعذريني لدخولي بهذه اللهفة فقد شغلت بامر سامان لعلمي ان والدك يستاء من دخوله عليه وقد اوصى ان لا يدخل عليه احد .. » وتحولت الى ضرغام فحيته باحترام واكبت كأنها تهم بتقبيل يده

فرد التحية وابتسم لها وكان يستأنس بها لعلمه بحبها لجهان وقال « مالي اراكم تخافون دخول سامان على والده »

قالت جهان « لان والدي تغير عليه امس لاهماله امر الموبذ بعد ان انفذه في استقدامه غير مرة فلم يستقدمه » قالت ذلك وخرجت وهي تقول « استأذنك في الذهاب الى والدي لحظة ثم اعود »

الفصل السادس عشر

الخلوة

فلبث ضرغام في مكانه وسارت جهان حتى اتت غرفة والدها فرأت ساماٮ

واقفاً بالباب والحاجب يمنعه من الدخول وهو يحاجه بغضب فحالت بينهما وقالت « ما بالك يا أخي ؟ »

قال « ان هذا الرجل يمنعني من الدخول على والدي »

قالت « لا تغضب فان والدنا في فراشه وقد امرني بالخروج وادخل المهتر يخاطبه ببعض الشؤون •• هل رأيت المو بذ ؟ »

قال « لا •• لم اجده »

قالت « الا تعلم ان رجوعك بدونه يغضب والدنا »

و بينما هما يتحاجان سمعا المرزبان يقول من الداخل « لاتدخلوا عليَّ ساسان ••• ادخلي يا جهان »

فالتفتت الى اخيها وابتسمت وقالت له بصوت خافت « اذهب يا اخي الى الايوان ولا تكدر والدنا وسأعود اليك حالاً فلم يسعه الا الطاعة فتحول ودخلت هي فوجدت القيم جاثياً بين يدي والدها وامامه اوراق ودفاتر وقلم ودواة ورأت والدها جالساً في السرير وقد تغير وجهه و بدا الاهتمام في عينيه فلما دخلت رفع بصره اليها وابتسم لها رغم ما يعلوه من الغضب فبشت له ودنت منه فقبلت يده وقالت « كيف تشعر الان يا ابتاه ؟ ارجو ان تكون مرتاحاً »

فضمها اليه وقبلها وشمها واطال معانقتها حتى احست بدمعة حارة سقطت على عنقها فاقشعر بدنها وما صدقت انه اطلقها من بين يديه حتى نظرت في وجهه فرأت الدمع في عينيه فاثر منظره فيها وكانه خاف على عواطفها فقال وهو يتكلف الابتسام « انني في خير •• لا تخافي •• سأعمل كل شيء في سبيل راحتك •• اجلسي » واشار الى القيم فخرج واغلق الباب فاعادت نظرها الى ما بين يدي والدها من الاوراق والدفاتر ولم تستحسن ان تسأله عنها

اما هو فتثاءب واشار اليها ان تساعده على التوسد فاعانته فاستلقى واتكأ على الوسادة وقال « قد علمت ان اخاك ساسان عاد هذه المرة ايضاً وحـده •• فانه لا يرى له مصلحة باستقدام الموبذ ••• لا بأس من ذلك »

فقالت « ان ضرغاماً انفذ خادمه في استقدامه ولا يلبث ان يأتي كن مطمئناً •»

وقد ذكرت ضرغاماً عمداً لترى ما يبدو من والدها

قال « ان ضرغاماً رجل كريم النفس وقد سررت بلقياه وهو جدير ان يكون اخاً لك وليس سامان الشرير »

فسرها اطناب والدها بحبيبها وهمت ان تفاتحه بشأنه واذا بالحاجب قد دخل وهو يقول « ان الموبذ بالباب ومعه الافشين »

فلما سمع اسم الافشين اشرق وجهه وبغت وقال « والافشين ايضاً ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

اما جهان فلما سمعت اسم الافشين انقلب فرحها الى انقباض ووقفت عن غير عمد منها كأنها تحاول الفرار من رؤية ذلك الرجل ولكنها تجلدت ووقفت تنتظر امر والدها فاذا هو يقول لها « لا بأس من بقائك هنا اذا شئت والا فلك الخيار »

قالت « اذن لي في الخروج »

قال « اخرجي وكوني مطمئنة » فخرجت من باب سري في تلك الغرفة ثم التفت المرزبان الى الحاجب وقال « يدخل الموبذ والافشين »

فدخل الموبذ والافشين وراءه وتحول الموبذ اولا الى الصنم فوقف بازائه وتمتم وانحنى وفعل الافشين نحو ذلك

فاشار المرزبان اليهما بالجلوس فجلسا والمرزبان يرحب بهما ووجه كلامه الى الافشين قائلا « لقد ابطأت عليَّ حتى اشتد شوقي اليك »

فقال وهو يحك ذقنه وقد شاب معظمها لانه كان في نحو سن المرزبان « وقد كنت شاغل خصوصي ولم اصل الى فرغانة الا اليوم وفي حال وصولي اتيت اليك . كيف انت ؟ »

قال « اني كما ترى . وقد جئت في ابان الحاجة اليك » ثم التفت الى الموبذ وقال مع الاحترام « ارسلت في طلبك غير مرة فلم تأت »

قال « لم يأتني احد قبل الآن »

قال « ارسلت اليك ابني سامان امس واليوم فقال انه لم يجدك في كاران تشتاه »

فاستغرب الموبذ كلامه وقال « اني لم ابارح المعبد منذ ثلاثة ايام بسبب المرجان

وتقاطر الناس الى فرغانة للاقتباس واهاء النذور .. وكيف تدعونني اليك ولا احضر ؟
بل كيف يسأل عني في المعبد ولا يخبروني .. لا شك ان ولدنا سامان لم يسأل عني
او لعله سأل غير العارفين »

فحرق المرزبان اسنانه غيظاً وقال« بل هو لم يسأل عنك .. ولا ادري غرضه
من ذلك او لعلي ادري ولا اقول .. وفي كل حال فقد آن وقت المكافأة . وهذا
اخي الافشين شاهد » ثم صفق فدخل الحاجب فقال له « لا تأذن لاحد من الناس
ايْاً كان ان يدخل علينا واذا سألك احد الاستئذان . . فلا تستأذن اغلق
الباب وراءك »

فاشار الحاجب مطيعاً وخرج واغلق عليهم الباب

الفصل السابع عشر

الوداع

اما جهان فغادرت الغرفة ورجلاها تصطكان انفعالاً من رؤية الافشين بعد ان
رأت اهتمام والدها باعداد الورق والدواة والقلم وسارت توّا الى ضرغام فرأته واقفاً
بالايوان وحده فحالما وقع بصرها عليه سرّي عنها ونسيت هواجسها وكانت تفكر باخيها
وتنوي الاستفهام عنه فانساها ضرغام كل شيء

اما هو فحالما رآها مقبلة تحول نحوها وسألها عن حال ابيها

فقالت « انه احسن حالاً من الصباح وقد ذكرك ذكراً حسناً وقال انه كان يتمنى
ان تكون انت في مكان اخي سامان . . . ولكنك ستكون فوق مكانه » قالت ذلك
ونظرت اليه نظرة اغنته عن شرح كثير

فقال لها وعيناه تضحكان « اشكرك على حسن ظنك يا جهان .. وكيف تركت
والدك الآن ؟ »

فتنهدت ثم قالت « الم تعلم بمجيء الافشين والدنا ؟ »

قال « هل اتيا ... ؟ والافشين ايضاً ؟ اني لم اشاهد وردان بعد »

قالت « نعم اتيا معاً .. هذا الذي كنت اتخوفه .. ولكن لا بأس الآن . طالما كان ابي احسن حالاً »

قال « واين هما ؟ »

قالت « هما عند والدي وقد طلب الخلوة بهما وخيرني بين البقاء معهم والخروج ففضلت الخروج للتخلص من رؤيتهما ولكي اشاهد حبيبي ضرغاماً »

قال « هما اذاً في خلوة معه واظن هذه الخلوة ستطول فهل تأذنين بانصرافي ثم اعود اليك بعد هنيهة ؟ »

قالت « الى اين تنصرف وتتركني ؟ »

قال « اذا شئت بقيتُ طوع ارادتك ولكنني اذا ذهبت لا اطيل الغياب »

قالت « اذهب بحراسة اورمزد ولا تبطىء »

فلما سمعها تذكر اورمزد قال « لقد اذكرتني شيئاً لا بأس من سؤالك عنه فهل اقول ؟ »

فتفرست في عينيه فقرأت فكره وقالت « اظنك ستسألني عن اورمزد وانت تدين بسواه اليس كذلك ؟ »

فدهش لفراستها وقال « نعم .. هذا سؤالي »

قالت « اني اكون طوع ارادتك ادين بما تدين به لاني لا احب فراقك في الدنيا ولا في الآخرة »

فاعجب لتعلقها به فابتسم ثم قال « ولي سؤال آخر »

قالت « قل ما بدالك »

قال « انت تعلمين تعلق والدتي بالاقامة في العراق لسرّ لا اعلمه »

فقطعت كلامه وقالت « اني اكون حيث تشاء انت فان الدنيا كلها حيث تقيم ولا يهمني شيء مما لنا في فرغانة او غيرها »

فقال « قد نلت الآن ما اتمناه وقبضت على السعادة بيدي فهل تأذنين بانصرافي لاري الوفد الذين صحبتهم فادبر سبيلاً للتخلص من صحبتهم ثم آتي اليك ؟ »

قالت « اذهب بحراسة الله .. ها اني قد جاريتك منذ الآن » فضحك وودعها وخرج بعد ان بعث من يستقدم وردان

الفصل الثامن عشر

الاحتضار

فلما رأته خارجاً تخيلت قلبها يتحفز للذهاب في اثره فتماسكت واسترجعت رشدها وفكرت في ما هي فيه من اسباب القلق والاضطراب لمرض ابيها واذا مات اصبحت يتيمة ليس لها الا اخوها وهي لا تستخلصه ولا تعوّل عليه. ولما ذكرت والدها تذكرت خلوته بالموبذ والافشين فخفق قلبها خوفاً من تلك الخلوة وقام في ذهنها هواجس كثيرة ومخاوف شتى لما تعلمه من مطامع الموبذان ودسائسهم وقد اصبحوا بعد ذهاب دهشة الدين وتحوّل الكهانة الى مرتزق لا همّ لهم الا جمع الاموال باية وسيلة كانت ويسهل عليهم ذلك بما تعودوه من غسل السيئات بالصلوات . والعقائد اذا تقادم عهدها وتولاها اهل المطامع تطرق اليها الفساد واصبحت شرًّا على الناس من الكفر حتى يقوم من يقومها وينقيها . ولم تكن جهان شديدة التعلق باذيال الكهنوت لما كانت تكشفه بفراستها من نواياهم وخفاياهم وانما كانت تدين بالزردشتية مذهب ابيها على غير تفهم او نقد لانها ولدت فيها فشبت على سائر عاداتها واخلاقها — شان السواد الاعظم من العامة فانهم يدينون بما يألفونه من صغرهم واذا كبروا وتثقفوا ودلهم العلم على مظنة النقد فيه اغتفروها في جانب ماغرس في قلوبهم وعقولهم من مبادئه فاصبح الدين كالجنس يغضب له المرء وينصره غيرة وحمية كما ينصر عرضه ويذب على حياضه ولو لم يعتقد صيانته

على انها كانت تنظر الى الموبذان وامثالهم نظر المستخف بما يقولونه ويزعمونه فلم تكن تحذرهم لاعتقادها عجزهم عن غير ما تتوق اليه نفوسهم من الكسب المالي . فلم يكن اختلاء الموبذ بابيها يهمها لو لم يكن الافشين معه وهي تكرهه عفوًا بلا سبب

ظاهر . وتخافه لانه ملك ذو اعوان وجند . وكان ابوها يحترمه ويعول عليه على انها وهي في تلك الهواجس وقع نظرها على بساط في تلك الغرفة رأت في جملة ما عليه من الرسوم المزركشة صورة اسد رابض عيناه شرارتان فتحمست وتذكرت حبيبها لان اسمه من اسماء الاسد . فلما تذكرته ذهبت مخاوفها وهان عليها كل شيء تحذره او تخشاه اذا كان حبيبها بقربها

وهي غارقة في هذه الهواجس سمعت وقع اقدام عرفت انها خطوات خيزران القهرمانة فخفق قلبها توقعاً لخبر تسمعه فلما اقبلت عليها حيتها وقالت « ان سيدي المرزبان يدعوك اليه ... لكن تجلدي يا جهان مثل عهدي بك .. »

فلما سمعت تحذيرها اوجست خيفة ولم تسألها عن سبب ذلك التحذير اعتماداً على قدرتها في تحمل الصدمات . واكبرت ان تبدي لهفتها فمشت مسرعة وقبل وصولها الغرفة تذكرت انها سترى فيها الموبذ والافشين فانقبضت نفسها ولكنها ظلت سائرة حتى وصلت باب الغرفة فوسع لها الحاجب فدخلت وعيناها متجهتان نحو سرير والدها. فرأته مستلقياً وعيناه شاخصتان نحو الباب وقد غشيهما الدمع وتكسرت اهدابهما من كثرة البكاء . وحالما وقع بصره عليها ابتسم ابتسامة لا حياة فيها ولولا بريق تينك العينين وما يتجلى فيهما من الحنو والمحبة لظنته ميتاً . فتمالكت ودنت من السرير لا تلتفت الى ما بين يديه كأنها تراه في خلوة . اما هو فلما رآها احس بنشاط جديد فبسط ذراعيه وفتح فاه ليخاطبها او يرحب بها فامتنع عليه النطق فاكتفت بحركة شفتيه وترامت على صدره ولولا ثبات جأشها لأغمي عليها لانها تحققت في تلك اللحظة انها لا تلبث ان تصير يتيمة وحيدة ومع ذلك فانها غلبت على تعقلها لانها امسكت بذراعي ذلك المحتضر ونظرت في وجهه نظرة الاستعطاف كأنها تتوسل اليه ان لا يتركها فسبقتها العبرات وبكت وهي تمسك انفاسها الا يسمع شهيقها واطرقت لئلا تظهر دموعها

اما هو فلم يفته ما خامر قلبها من الحزن والخوف واراد تعزيتها فعصاه النطق ولم يزد عن ان حرك شفتيه واخرج صوتاً يشبه الهينمة وحوّل نظره وامال يده نحو الافشين والموبذ . فالتفتت فرأت الافشين جالساً وفي يده لفافة من الورق فلما رآها تنظر اليه بعد اشارة والدها اراها اللفافة وابتسم لها ابتسامة التعزية . وكان الموبذ واقفاً بجانب

التمثال يصلي ويتضرع فالتفت اليها وهو يظهر الاسف والحزن على حال المرزبان .
ففهمت جهان خلاصة ما تمَّ في تلك الخلوة وهو ما كانت تتخوفه وتحذر الوقوع فيه .
على ان اشتغال خاطرها بحال والدها شغلها عن التفكير بسواه واعادت النظر الى ذلك
المريض وصاحت « ابي كيف انت ؟ انك في خير ... »

فاراد ان يجيبها ويطمئنها والحشرجة تمنعه من الكلام فاحست ان استلقاءها على
صدره يضايقه فجلست بجانبه وقبضت على يده واذا هي مكسوة بعرق بارد فكادت
تصيح وتولول لانها تحققت ان والدها في آخر ساعات الدنيا وتجلدت لكنها لم تستطع
امساك دموعها فاطرقت والدمع يتساقع على خديها وقد زادهما احتباس العواطف توردًا
وزاد عينيها بريقاً . واما والدها فان سرعة تنفسه وخرير صدره ودنو اجله لم تفقده
شيئاً من رشده ولا انسته ابنته الحبيبة وود لو يطلق لسانه ليقول كلمة او كلمات
تطمئنها وتعزيها ولكنه غلب على امره مع ماظهر من مجاهدته في محاولة الكلام والضعف
يمنعه . فلما تحقق عجزه عن تعزيتها اشار اليها ان تخرج وتظاهر انه يريد الرقاد
فوقفت وهي ترتعد وركبتاها تصطكان لا تدري اتطيع والدها ام تبقى بين يديه تتودع
من رؤيته

ثم رأته يزداد حشرجة وملالاً ويدير رأسه ويلتفت كانه يحاول النهوض ولا
يقوى عليه واخيرًا وجه نظره الى جهان وشخص ببصره فيها فتفرست في عينيه فرأت
ماءهما جف وذهب منهما بصيص الحياة وكأنه يهمُّ ان يبسط يديه نحوها فلم ترتفعا
الا قليلاً ثم شهق شهقة اجفل لها الحضور وهي آخر انفاسه وارخى يديه وقد سكن
صدره وهمد جسمه واظلمت عيناه وتراخت اجفانه وبرز انفه ووجنتاه وصفرت اصفرار
الموت وقد تنبش شعر لحيته ورأسه حتى اصبح منظره مريعاً . فلم تعد جهان تحاذر
شيئاً فصاحت « ووالداه » وحلت شعرها ولطمت وجهها وتسامع اهل القصر صوتها
وبلغ الخبر الى القهرمانة فركضت واخذت بيد جهان وجعلت تخفف عنها وهي تبكي
وتندب لا يعزيها كلام ولا يخفى عليها ما يقال في مثل هذه الحال من عبارات التعزية
وهي لا تشفي غليلاً

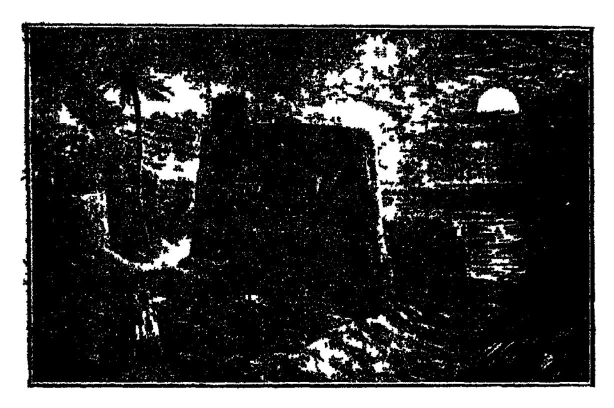
الفصل التاسع عشر

المأتم

ولما قضي الامر اخذ اهل القصر في اعداد المأتم على جاري العادة عند المجوس فغسلوا الجثة والبسوها ثوباً ابيض ووضعوها على دكة في غرفة كبيرة افرغوها من الاثاث وجلس الاخصاء يندبون والموبذ يصلي ويدعوهم يؤمنون ويستغفرون . وبعد هنيهة جاء ساسان وكان غائباً عن البيت واخذ يندب والده ويعدد فضائله والناس يخففون عنه . واما جهان فبعد ان اطاعت قلبها ساعة الوفاة رجعت الى تعقلها فغلب عليها السكوت واعمال الفكرة — وما الذي كانت تفكر فيه ساعتئذ ؟ انها كانت تفكر في مصدر تعزيتها الوحيد وهو ضرغام اذ لا ترجو تعزية من غير طريق القلب . فكانت وهي في تلك الحال تسترق اللحظ لعلها تجد ضرغاماً فاذا فتتعزى برؤيته اذا لم يؤذن لها بحديثه

واذا هي بالموبذ يشير اليها بالخروج الى غرفة اخرى ومشى فتبعته وهي مطأطئة الرأس من الحزن وتبعها ساسان فلما خلا الموبذ بهما قال « لا ينبغي لكما ان تبالغا بالحزن على اخينا الراحل فان اورمزد معه لانه كان رجلاً تقياً محسناً وسنوقد النيران على اسمه ثلاثة ايام ونجعل وقودها الند والصندل . ولا يخفى عليكما ان روح والدكما لم تفارق هذا المكان بعد ولا تفارقه الا بعد ثلاثة ايام فلا تحزناها بالبكاء والنوح . وقد اوصى والدكما بتفريق الحسنات والمبرّات وهو لا ريب عندي من اهل النعيم . ولذلك فان روحه بعد ان تقضي ثلاث ليال حول الجثة تصعد الى الاماكن المباركة فتلاقي ضميره بشكل حورية تقص عليه اعماله الحسنة وتقوده الى النور الابدي . ومع ذلك فاننا سنوالي الصلاة عن نفسه طول السنة فلا تحزنا .. ولكن لا بد من ابلاغكما وصيته عن دفنه »

وكانت جهان تسمع وهي مطرقة تتلقى دموعها بمنديلها فلما قال ذلك رفعت بصرها اليه وفي عينيها ملامح الاستفهام فقال « قد اوصى ان ندفنه في ح اا كب



برج السكوت

فلما قال ذلك بانت البغتة على وجه الفتاة واخيها وقالت « كيف ذلك ؟ وانما يدفن في برج السكوت عامة الناس والفقراء ومثل والدي يدفن في حجرة خاصة »

قال « نعم ولكنه اوصى بدفنه هناك واسرَّ اليَّ السبب الذي بعثه على ذلك ولا اقدر ان ابوح به »

فاكتفت بقوله وسكتت اما سامان فلم يسكت فقال « كيف ندفن ابانا المرزبان في برج السكوت وانت تعلم انه مدفن الادنياء توضع فيه الاجساد على احجار تعرض للهواء وتذهب طعاماً للنسور والكواسر لا يبقى منها الا العظام لولا انهم يشدونها الى الحجر بالحبال او السلاسل . ثم تطرح تلك البقايا في البئر العميقة بوسط البرج فتختلط بعظام الطغام والمجرمين و ... اننا نريد حفظ آثار والدنا في حجرة خاصة .. »

فاستغرب الموبذ اعتراضه ولم يعره التفاتاً وانما قال له « هذه وصية الفقيد بحضور مولانا الافشين وقد دونها بوصيته التي ستتلى عليكم بضعة ايام » قال ذلك وتحول الى قيم القصر فاوصاه بما ينبغي اعداده للدفن مما يطول شرحه . اما سامان فغضب لاحتقار الموبذ اعتراضه واصبح في شوق للاطلاع على الوصية التي اشار اليها

قضى القوم بضعة ايام في المأتم وتوابعه من رسوم وتعازٍ ومحرقات واحسانات وصلوات وجهان تتوقع رجوع ضرغام وهو تعزيتها الوحيدة فشغل بالها ابطاؤه وزادها حزناً مع علمها انه في شاغل قد يعيقه عنها عدة اسابيع — ولكن المحب كثير القلق سريع التخوف . على انها آنست من اخيها ساسان تقرباً وتلطفاً لم تعهدها فيه قبلا . فلم يعد يفارقها لحظة وكلما رآها تتضجر خفف عنها . ولم يكن غافلاً عن تعلقها بضرغام وان لم يفاتحها بشأنه من قبل فاكثر من ذكره في تلك الاثناء وبالغ في الثناء عليه مع انه كثيراً ما كان يحسن لها القبول بسواه ولا سيما بابك الخرمي فقد ذكره لها ورأى تمنعها فلامها . اما يومئذ فاخذ يجاريها في هوى نفسها ومع كونه اجروداً لا يعرف الحب ولا يشعر بجواذب المحبين فقد ساعده ذكاؤه ودهاؤه على معرفة تلك النقطة الضعيفة فيهم

واما جهان مع فراستها وسوء ظنها باخيها فانها كانت تلتذ بحديثه ويسرها انه يحب حبيبها ويعجب بمناقبه وبسالته وخصوصاً لان اخاها اقرب من ان تستشيره بامره بعد موت ابيها وان كانت لا تهتم برأيه لو خالفها . ولكنها استأنست به واخذت تتناسى

ما كانت تعهده من نقائصه او تخافه من مطامعه ــ ذلك هو سلطان الحب فانه يعمي ويصم وصاحبه مهما اوتي من الحكمة والتعقل اذا وقع في شراكه قد يبقى حكيماً في كل شيء وقد يعد من كبار اهل الدهاء والسياسة او من كبار العلماء او الشعراء او الفلاسفة ويبقى داهية في كل امر الا من حيث حبيبه او ما يتعلق به فانه يكون كالطفل يقاد بخيط وقد يغلب عليه الوهم في بعض الاحوال حتى يصدق المستحيل ويعتقد الخرافات اذا كان في ذلك التصديق وهذا الاعتقاد ما يسهل عليه امنية او يطمئن له خاطراً ــ كالوالد الحنون مهما بلغ من انكاره المعجزات وتكذيبه الخرافات اذا مرض ابنه ونفدت فيه حيل الاطباء قادته رغبته في شفائه الى تصديق وصفات الدجالين او تعزيم المنجمين. اذا وصفوا له تعويذة يزعمون ان تعليقها بعنق الغلام او شرب مائها او غير ذلك يشفيه عمل بتدجيلهم وتناسي علمه وحكمته

الفصل العشرون

الوصية

وكان الموبذ والافشين يترددان على قصر المرزبان في اثناء المأتم للقيام بالواجبات وسامان في شوق شديد الى الاطلاع على وصية والده فبعد انقضاء المأتم جاء الموبذ وطلب الاختلاء بجهان واخيها فلما اختلوا اخرج من جيبه اسطوانة من فضة فتحها واستخرج منها درجاً ملفوفاً وهو يقول « هذه هي وصية الوالد التي عهد بها الى مولانا الافشين بحضوري » والتفت الى جهان وهو يقول « والحق يقال ان والدك قد احسن الاختيار بالقاء مقاليد الوصاية الى صديقه الافشين »

فاصاخت جهان بسمعها وسامان جامد لا يتحرك . ففتح الموبذ الدرج وقال « وقد اوصاني مولانا الافشين ان ابلغكما الوصية ثم ادفعها اليه فاسمعاها وتفهماها » واخذ يتلو :

« هذا ما عهد به المرزبان طهماز في فرغانة وهو في آخر يوم من ايام الحيــاة الى الى الملك الافشين حيدر بن كاووس صاحب اشروسنة وقائد جند المعتصم بحضور



المؤيد وبيده الدرج الملفوف

الموبذ صاحب بيت كاران شاه وبمعونة اورمزد العظيم . في اليوم العاشر من شهر خرداد ماه من السنة . . . للاسكندر . فالمرزبان طهماز يعهد الى الافشين حيدر ابن كاووس ملك أشروسنة وقائد جند المعتصم ان يكون وصياً على اهله من بعده يتصرف بما خلفه من مال وعقار تصرف الوصي المطلق بما يعود على الورثة بالخير بمقتضى نص هذه الوصية . ولم يخلف المرزبان طهماز من الورثة الشرعيين الا ولدين شاباً هو سامان وشابة هي جهان . وقد اوصى بما يملكه جميعه لابنته جهان وحدها فهي الوريثة للقصر بما فيه والعقارات واهلها وما معهم من ماشية ودواب ولها كل ما خلفه من جارية ورقيق واثاث ومصاغ وآنية ونقد . يكون ذلك كله ملكها بشرط اسراف صديقنا الافشين عليه وتدبيره بما يلهمه اورمزد الاله من اسباب النفع لها . اما ولدنا سامان فانه محروم من هـذا الميرات كله لا يصير اليه منه مال ولا عقار الا ما يكفي لمعيشته على ما يقدره الوصي . واما سبب حرماني اياه فيؤلمني تدوينه بهذه الوصية ولكن حتى لا يبقى مجهولاً ويذهب معي الى القبر فقد قصصته على الوصي بحضور الموبذ ويبقى مكتوماً عندهما الى حين الحاجة . هـذه وصيتي كتبت امامي وقد صدرتها وختمتها توقيعي . وشهد فيها الموبذ ومن اخلّ بحرف منها كان ملعوناً خمسين لعنة . وقد فعلت كل ذلك باختياري وانا في سلامة العقل وأوصيت ايضاً ان ادفن بعد موتي في برج السكوت في ضاحية فرغانة وتترك جثتي طعاماً للكواسر . واورمزد يتولى القيام بهذه الوصية ويعين صديقي الافشين على العمل بها » (التوقيع)

وكان الموبذ يقرأ والاثنان صامتان حتى بلغ الى حرمان سامان من الارث فتغير وجه الشاب وامتقع لونه ولكنه تجلد وكظم حتى فرغ الموبذ من تلاوة الوصية فقال له « كيف احرمني والدي من حقي وانا ابنه الوحيد ؟ . هذا لا يكون ابداً . انا وارث اسم ابي ولقبه واما العقار فلي ولاختي جهان . . »

فقال الموبذ « قد قرأت عليكما الوصية ولا سبيل الى غير ما فيها والرأي في كل حال عائد الى الافشين . . وقد فرغت من رسالتي فاذنا لي بالانصراف وسيأتي الافشين فيتولى العمل بالوصية والدولة تساعده على تنفيذها بالقوة فانصح لك يا ولدي سامان ان تصبر على ما نالك من امر والدك » قال ذلك وخرج مسرعاً وخرج سامان لتشييعه

الى سلم الايوان . فلما ودعه ونزل الحديقة وقف سامان ينظر اليه ويحرق اسنانه ويقول في نفسه « هذا ما كنت اخافه من مجيئك يا موبذ النحس كم ارسلني والدي بطلبك وانا اماطله واحتال في تأخير قدومك خوفاً من مثل هذه الوصية لانني كنت شاعراً بما في نفس والدي عليّ . . . نعم انا اعرف سبب غضبه وكنت اظنه لا يعلم به ولكن ذلك لا يحرمني من حقي في الميراث . . صدقت يا موبذ ان الامر راجع الى الافشين اللعين وهذا اطمع من فلحس ولعله سعى في الوصاية ليستولى على التركة لنفسه ويحرمنا منها جميعاً . . آه لو كانت جهان تطاوعني اكنا نكيد له كيداً عظيماً ولكنها شديدة التمسك بما يسمونه شرف النفس والاريحية و . . لكنني سأكيد لكم جميعاً » وكان يناجي نفسه بهذه الخواطر وهو ينظر الى الموبذ وقد خرج من الحديقة وركب فرسه وسار في سبيله فرجع سامان الى اخته

اما جهان فقد شق عليها اولاً ان يكون الافشين وصياً عليها ولكنها عوّلت على استخدام تعقلها في ذلك . . ثم شق عليها حرمان اخيها من حصته بالارث واشفقت عليه فلما عاد من وداع الموبذ ابتسمت له وهي تقول « طب نفساً يا اخي انك لا تلاقي ضيماً وانا في قيد الحياة . وهب ان والدي حرمك من الاستيلاء على الاموال والعقار فانا اعوض عليك ذلك وانت اخي الوحيد فلا ادعك الا راضياً »

وكان يسمع كلامها وهو مطرق وقد لوى عنقه تذللاً ومسكنة فلما فرغت من قولها رفع بصره والدمع في عينيه وقال « لم يسئني حرماني من الارث بقدر ما ساءني سببه فأي ذنب ارتكبته حتى اعامل هذه المعاملة ؟ »

قالت « لا اعلم السبب ولا يعلمه احد الا الافشين والموبذ وربما عرفناه في فرصة اخرى كن مطمئناً ان الافشين لا يلبث ان يسافر الى بغداد ونبقى نحن هنا والمال بين ايدينا نتصرف به كما نشاء »

فاثنى على حبها وكظم ما في نفسه وشق عليه ان يطلع الافشين والموبذ على سبب حرمانه فسكت وهو يبلع ريقه ويحك ذقنه ولا شعر فيهما وقعد وهو غارق في بحار الوساوس والهواجس وفكره يشتغل بتدبير المكائد ونصب الحبائل وخاف ان تنتبه اخته لما في خاطره فشغلها بذكر ضرغام قائلاً « لقد ابطأ علينا البطل ضرغام . ولا بد

تغيبه من سبب قهري »

فانساها ذكره ما كانت فيه وقالت « يظهر انه بعيد عن فرغانة ولو كان فيها او قريباً منها لما فاته خبر المصيبة التي اصابتنا ولا يلبث ان يعود »

فقال « لو كان هنا لخفت المصيبة علينا . . اني استأنس بطاعته . . لقد سموه ضرغاماً وهو كالضرغام . . . وكم فيه من خصال ومناقب تندر في سواه . »

فوقع ذلك الاطراء في نفس جهان وقوع الماء من الظمآن ومع علمها ان اخاها يقول ذلك مجاملة ومسايرة فقد انشرح صدرها لسماعه واخذت تغالط نفسها وتبرهن في سرها ان سامان يحب ضرغاماً وانها كانت مخطئة في زعمها الاول . وافاضت بالحديث ثم انتقلت منه الى سواه تنزيهاً له عن الابتذال ولنفسها عن مظنة الخفة

الفصل الحادي والعشرون

الوداع

وبينما هما في الحديث اتت القهرمانة تنبئ سيدتها بمجيء ضرغام فخفق قلبها ونسيت حزنها لكنها ما لبثت ان وقع بصرها عليه حتى تذكرت اعجاب والدها به وما كانت تتوقعه من السعادة لو بقي حياً فبكت ولم تستطع مع ذلك غير الابتسام لحبيبها فاثر منظرها فيه فحياها واخذ في تعزيتها فعادت الى حزنها فبكت . وتحوّل نحو سامان وعزاه فقال سامان « ان لنا ببقائك تعزية كبرى وهذا هو حال الدنيا »

وتحولت جهان الى الغرفة فتبعها ضرغام وهو بلباس السفر فدعته الى الجلوس فجلسوا وهي تقول « لقد كانت مصيبتنا مضاعفة لغيابك يا ضرغام »

قال « كنت في مكان بعيد اضطررت للذهاب اليه تعجيلاً للفراغ من المهمة التي جئت من اجلها لاتفرغ لك ولكن . . . »

قالت « وماذا جرى ؟ »

قال « لم يجر شيء ولكني تناولت امراً من الخليفة يستعجلني بالرجوع »

فاطرقت ثم قالت « ان سفرك يسوءني كثيراً ولكنني . . »

فقطع كلامها قائلاً « ولكنني سابقى في فرغانة لان فيها قلبي وعقلي وكل جوارحي» وانتبه وهو يقول ذلك ان سامان حاضر يسمعه فاجفل وخجل فقالت له « لا تخجل ان اخي عالم بما بيننا واراه يحبك كثيراً ويعجب ببسالتك ومناقبك . . ومع ذلك فلم يبق ثمة مانع يمنعنا من التصريح ولا ينبغي لنا ان نخاف بأساً . . اما بقاؤك هنا فهو خير ما اتمناه كما تعلم ولكنني ارى ان تلبي طلب الخليفة لانه اكرمك ورفع منزلتك وربما كان في حاجة الى حسامك او رأيك . . » قالت ذلك وفي صوتها لحن الافتخار ثم تنحنحت وقالت « ألم يطلب الافشين معك ايضاً ؟ »

فاعجبه منهـا حبها الواجب وقال « لم اسمع انه دعاه ولكنني اظنه يطلبه قريباً لان الدعوة تتعلق بحرب والافشين كبير القواد كما تعلمين . . ولكن كيف اسافر وانت في هذا الحزن وكيف يرتاح بالي وانت . . . »

فقطع سامان كلامه قائلاً « لا بأس عليهـا لان ابانا عهد الى مولانا الافشين بالوصاية علينا . . » قال ذلك وشفتاه ترتجفان من الغضب والحقد

فالتفتت جهان اليه وقد شق عليها تصريحه على هذه الصورة وكان في عزمها كتمان الوصاية عن ضرغام حتى لا تشغل باله بلا فائدة له او لها لاعتقادها انه لا ينبغي ان يناله منها الا ما يسرُّه ويكون من اسباب سعادته لا أن تحمله اثقالهـا وتكدر عيشه بمشاغلها — ذلك شأن المرأة العاقلة في معاملة رجلها فانها تكتمه متاعبها ولا تريه الا ما يسره الا في الاحوال التي لا غنى عنه فيها

اما ضرغام فاظهر الاستغراب لما سمعه من وصاية الافشين ونظر الى جهان مستفهماً فقالت « ان الافشين صديق والدي وله فيه ثقة كبرى واراد ان يكرمني ويرعاني بعد موته فاوصي الافشين بي بعهد كتبه له واشهد الموبذ عليه . وما في ذلك شيء غريب »

فاطرق واعمل فكرته فخطر له ان وصاية الافشين وهو معه في العراق خـير من وصاية رجل من اهل فرغانة لا سبيل له اليه . وعاد الى التفكير في السفر واحب ان يسمع رأيها في سفرها هي فنظر اليها وعيناه تسبقانه الى الكلام وهي لا تحيد نظرها عنه فقال « اذا كان الامر كذلك فالافشين ربما بقي هنا اياماً يدبر بها ما عهد اليه فيطمئن

بالي عليك وانا بعيد عنك »

فادركت غرضه من ذلك فقالت « لا يطول بقائي هنـــا الا ريثما تنقضي مدة الحداد ثم اسافر الى بغداد فاني لم اعد اطيق البقاء في هذا البلد بعد وفاة والدي فيه . ومع ما الاقيه من مؤانسة الفرغانيين ومحبتهم احسب نفسي غريبة بينهم وخصوصاً بعد سفرك ... »

وكان سامان يسمع ما يدور بينهما ولا يشعر معهما لان قلب الاجرود اصمّ لا نافذة فيه ولا سبيل للحب اليه ولكنه رأى من مصلحة نفسه ان يسايرهما في تحابهما فلما سمع اخته تقول « وخصوصاً بعد سفرك » قاطعها قائلا « لانها تشتاق الى صديقتها والدتك فقد كانت تحبها وتأنس بها .. »

فالتفتت جهان الى اخيها لفتة توبيخ لطيف وقالت « اني لا احب غير الصراحة واستقلال الفكر كانك تظنني اخشى التصريح بحبي ضرغاماً وما في الحب عار ولكن آه من مسابقة الاجل .. لو مد اورمزد باجل والدي عاماً آخر لكفانا .. » ثم استأنفت حديثها الاول فقالت « ان ضرغاماً غاية مرامي واقصى مطلبي في هذه الحياة واظنك تعلم ذلك وان لم اخاطبك به من قبل .. فهل ترى في ذلك بأساً »

فقال سامان « لا ارى بأساً بحبك ضرغاماً . . انه اهل لمحبتك ولو لم تسبقيني الى حبه فربما سبقتك انا اليه .. ولكنني لا اظنه يرضى بهذا البدل . . »

وعجبت جهان لممازحة اخيها مع علمها بما في قلبها من الغيظ منذ سمع الوصية ولكنها تعرف فيه الكظم والدهاء والحقد فلما سمعت ممازحته نظرت اليه شذرا على غير غضب ثم وجهت كلامها الى ضرغام قائلة « ان سفرك يسوءني ولكنه ضروري ولا يمضي الا القليل حتى الحق بك » فقطع سامان كلامها قائلا « وانا اكون في خدمتها حتى اصل بها اليك . او الى والدتك .. »

فاتمت هي كلامها قائلة « ولا تظن شيئاً من حطام الدنيا يحول بيني و بينك و ربما كتبت اليك قبل سفري وانما يهمني ان تكون مرتاح البال من قبلي » قالت ذلك وهي تعلم بما يهددها من المتاعب ولكنها كثيرة التعويل على نفسها كبيرة الثقة بتدبيرها

اما هو فكان خائفاً ان تمنعه من السفر وهو يميل اليه مراعاة لمصلحته فلما رآها تدعوه اليه زهد فيه وتعلق خاطره بالبقاء عندها فسكت وهو لا يعلم بماذا يجيب فادركت تردده فقالت « ان بقاءك معي من اكبر اسباب سعادتي وهو ما نسعى فيه ولكن الواجب يدعوك الى الذهاب والقائد الباسل اذا دعي لبى والذي يدعوك انما هو الخليفة مالك رقاب الناس »

فقال سامان « كن مطمئناً اني ارافقها واكون في خدمتها حتى تصل اليك سالمة وانت في خير وعافية »

ولم يكن ضرغام يحتاج في تأدية واجباته الى تحريض لانه ولد هماماً باسلا حازما ولكنه توهم في بادىء الرأي ان سفره يسيء جهان لانها لا تستطيع مرافقته لسبب الحزن ولا يريد ان تبقى حزينة وحدها فلما راى ترغيبها اياه بالسفر عزم عليه فقال « اذا كان هذا رأيك وارادتك فاني طوع امرك وغدا اسافر ان شاء الله »

وأحس سامان بثقل وجوده هناك في تلك الساعة وتذكر اموراً كثيرة تدعوه الى السعي والتدبير فنهض واعتذر وانه سيعود فقالت له جهان « لا تطل غيابك كالعادة فقد تغيرت الاحوال الان واصبح وجودك في القصر ضروريا »

فاشار مطيعاً وخرج مسرعاً وهو يتعثر باذيال قبائه . اما ضرغام فلما راى نفسه في خلوة مع حبيبته شعر كانه في عالم غير هذا العالم ونسي السفر والحرب والرتب والالقاب وتمنى لو تتحول تلك الساعة الى دهر او تمتد الى الابد . لا يلتمس معها طعاما ولا شراباً ولا ثراء كانه تجرد عن المادة ورأى تجاذب الارواح لا يشوبه شيء مما يفتقر اليه البدن من اسباب البقاء او تجر اليه الشهوات من بواعث الملل — وكأن الحب في اصله تجاذب بين الارواح لا يفسده او يضعفه غير الجسد بمشتهياته وامياله . ولذلك رأيت الحب لا يبرح قويا ما دام عذريا . ولم نسمع باشد حبا من بني عذرة واكثر قتلى الحب منهم . فمن رغب في بقاء الحب فلينزهه عن مطالب الجسد . فاذا فعل ذلك وكان الحب بينه و بين حبيبه متبادلا اتته السعادة صاغرة وانبأ الملأ الذين اعجزهم تمثيل النعيم انه عبارة عن تلذذ الارواح بالحب الطاهر المنزه عن مفاسد الجسد — ولكن الناس يعدون هذا التعبير من قبيل الخيال الشعري . فما ادرانا ان

يكون ذلك الخيال في الارض حقيقة في السماء

ولا خلاف على كل حال في ان اجتماع الحبيبين في خلوة بعد فراق طويل مثل اجتماع جهان وضرغام يمثل السعادة الحقيقية . ولعل جهان كانت اشد شعوراً بتلك السعادة بعد ما نال الحزن من قلبها على أثر موت ابيها والنفس الحزينة احوج الى التعزية واشد شعوراً بها من سواها . فاخذا يتجاذبان اطراف الحديث وما حديثهما الا التشاكي . وقد نسيا موقفهما وطال حديثهما ولو لم تدخل عليهما القهرمانة خيزران لبقيا في غفلة عن الوجود واهله . وقص كل منهما على صاحبه ما لقيه او فكر فيه ومرجع الحديث الى ما يتوقعانه من السعادة عند اجتماعهما الاخير في العراق

وكانت خيزران لا تترك جهان برهة طويلة وحدها لئلا تستسلم للاحزان وكانت تحسبها منفردة بعد خروج سامان فاتت تفتقدها فلما دخلت ورأت ضرغاماً عندها خجلت وتراجعت فنادتها جهان فرجعت وقد اذهلها ما رأته في ذينك المحبين من ظواهر الهيام كتورد الوجنتين وبريق العينين وشخوص كل منهما الى رفيقه ببصره وسمعه . وكأن دخولها ايقظهما من رقاد او نقلهما من عالم الارواح الى عالم الاجساد فدخلت خيزران وحيت ضرغاماً والتفتت الى جهان وسألتها عن حالها وهل هي تحتاج الى شيء فقالت « لا احتاج الى شيء ... كيف رأيت ضرغاما يا خيزران » .

فاجفلت القهرمانة لانها لم تكن تتوقع سماع هذا السؤال وهو حاضر فبدت البغتة في وجهها وقالت « تسأليني عن رجل وقع منك هــذا الموقع وانت سيدة النقادين واعلمهم باقدار الرجال . فمن اين لمثلي ان تبدي رأياً وانما اتوسل الى اورمزد ان يمنحكما ما تتمنيان »

قالت « لعله فاعل » ثم سألتها عن سامان فقالت « انه خرج الساعة من القصر مستعجلاً »

فقالت « لا يلبث ان يعود » ووقفت فوقف ضرغام وقد انتبه لنفسه وقال « اتأذنين بانصرافي » . قالت « يعز علي القبول بذلك ولكن .. » وغصت بريقها وهي تبتسم وتتجلد ثم قالت « سر محروساً وكن مطمئناً علي فاني لا البث ان الحق بك فقد كرهت الاقامة في هذه البلاد »

فودعها وخرج وكان وردان في انتظاره مع اهل القصر فامره باعداد ما يلزم للرحيل الى العراق

الفصل الثاني والعشرون

الافشين

وعادت جهان الى القاعة وقد احست كأن قلبها خلع من صدرها ولم تمض هنيهة حتى عادت اليها هواجسها وندمت على ترغيب ضرغام في السفر واخذت تفكر في ما هي فيه فعوّلت على التردي بالحزم والتعقل حتى تتخلص من تلك الوصية او ترى سبيلا آخر . قضت برهة في مثل ذلك وساماان لم يعد . وفي اليوم التالي نهضت باكراً وضفرت شعرها ولبست ثوبا اسود تزملت فوقه بمطرف من الخز الاسود وغطت راسها بنقاب اسود ووجهها من وراء ذلك السواد كالقمر لو ان في القمر مثل تلك المعاني او لو كان له مثل تينك العينين الساحرتين . وخرجت الى الحديقة تتمشى بين اشجارها تتلاهى بالتنقل من شجرة الى اخرى حتى وصلت الى مقعد قعدت عليه واستغرقت في تأملاتها واذا بالقهرمانة اتت مسرعة وهي تقول « سيدتي . انت هنا ؟ »

قالت « ما وراءك ؟ »

قالت « جاء . . جاء الافشين يا سيدتي وهو يطلب مقابلتك »

لم تستغرب جهان ذلك الخبر لانها كانت تنظره بل هي فرحت بقدومه لتستطلع غرضه وتدبر وسيلة للنجاة من وصايته . فنهضت وهي تقول « اين هو ؟ »

قالت « هو في الايوان ينتظر قدومك »

فمشت مشية الوقار والجلال كأنها ملك تحف به الاعوان لا تبالي بما ستسمعه او تقوله لاعتمادها على قوة جنانها وعزة نفسها . حتى اتت القصر وصعدت الدرجات المؤدية الى الايوان وهي تتشاغل بمخاطبة القهرمانة في شؤون لا اهمية لها مبالغة بعدم المبالاة حتى اطلت على باب الايوان فرأت الافشين جالساً بصدره . فلما رآها خف

لاستقبالها ومشى لملاقاتها وهو يومئذ في نحو الستين من عمره وقد شابت لحيته ولكنه كان يخضبها حرصاً على مظاهر الشباب . وكان طويل القامة كبير العينين مستطيل الوجه والعنق وقد تجعد جبينه و برزت وجنتاه وعلى رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة من الخز الموشى وقد لبس قباء بني اللون تظهر السراويل من تحته ترف على قدميه وفوق القباء جبة سوداء وقد تمنطق تحتها بمنطقة مرصعة علق بها سيفاً قبضته مرصعة ومشى لملاقاتها مشية معجب بمنصبه عارف بمقامه بحسب الترحيب بجهان تلطفاً او تنازلا . فلما دنا منها ابتسم وقال « مرحبــا بعروس فرغانة . كيف تجدين نفسك اليوم » ومدّ يده لمصافحتها فمدت يدها فقبض عليها وتباطأ في الافراج عنها فاقشعر بدنها واحست بنفور دلها عليه قلبها ولكنها اجابته على سؤاله قائلة « اني في خير تفضل اجلس »

فتثاقل في الجلوس ريثما جلست هي على كرسي وجلس هو على كرسي امامها وعيناه لا تتحولان عن وجهها وتوسمت في عينيه معاني زادتها نفوراً منه فاطرقت حياء وترفعاً فحمل ذلك منها محمل الحزن فقال لها « ان المصيبة التي اصابتك كبيرة يا عزيزتي لان موت والدك رحمه الله خسارة لا تعوض وانت تعلمين ما كان بيننا من صلات المودة ويؤكد لك ذلك انه قد وكل اليّ الاهتمام بشؤونك بعده ... ولم يفعل ذلك طبعاً الا لعلمه بمنزلتك عندي .. الم تسمعي ذلك منه في حياته .. ؟ الم يقل لك كم انا معجب بتعقلك وذكائك »

فاستغربت دخوله في الحديث على هذه الصورة ولكنها سايرته فقالت « كثيراً ما سمعت والدي يذكر مودتك ورفعة مقامك ... والافشين صاحب اشروسنة مشهور ليس في فرغانة ولا اشروسنة من لا يعرف باسمهُ ويسمع باعماله »

فاعجبه اطراؤها وجرأه على التقدم خطوة اخرى نحو الغرض الذي طالما كتمه فقال « لم اسألك هذا السؤال لاسمع اطراءك ومدحك وانما اردت سماع الجواب على سؤالي .. الم تسمعي من والدك عما لك من المنزلة عندي ؟ . »

فلم يفتها ما يعنيه او ما يضمره ولكنها ظلت على تجاهلها فقالت « لا اذكر اني سمعت شيئاً من ذلك .. ولا اظنك احسنت الظن بي الا لانك تعدني من بعض اولادك كما تعدّ والدي اخاً لك فاشكرك على هذا الاحساس .. واذا كنت حسن

الاعتقاد بي اتقدم اليك بطلب ارجو ان تجيبني اليه .. »

قال « وما هو »

قالت « رأيتك تعتقد تعقلي وذكائي وان كنت لا استحق هذا الاعتقاد فاذا كنت ترى فيَّ تعقلاً فما معنى الوصاية عليَّ ؟ »

فضحك وقال « ان الوصاية يا عزيزتي لا تسلبك شيئاً من هذه الخلال .. »

فقالت « انك ملك وقائد ولك من المهام والاعمال ما يشغلك عن الاهتمام بمثلي وانت مقيم في العراق وانا في فرغانة فهل توافقني على القاء اثقال الوصاية عنك ؟ »

فاجاب مسرعاً بلا تردد « كلاً .. كلا. اني لا استطيع ان اخالف وصية والدك ولو مهما جرّت من المشاغل عليَّ . . ولا ثقلة عندي بخدمتك وهي امنية طالما تمنيتها . كوني مطمئنة من هذا القبيل . واما البعد بين العراق وفرغانة فملافاته سهلة عليَّ فاما ان تنتقلي الى العراق او انتقل انا الى فرغانة . ولا بد من ان نكون معاً في كل حال .. »

فتحققت غرضه ولكنها لم تشأ ان تفهم مراده فقالت « لا ارى باعثاً على هذا الارتباط يا مولاي »

فقال وهو يستعطفها « لا تقولي مولاي ... »

فقالت « يا ابتي أو يا عماه كما تشاء . اني لا ارى داعياً لهذا الارتباط »

فاقطب حاجبيه وهو يبتسم وقرب كرسيه من كرسيها كانهُ يداعبها وقال « ان قولك يا عماه يسوؤني اكثر من قولك يا مولاي . . لماذا لا تخاطبينني كما اخاطبك » قال ذلك واخرج من جيبه عقداً من الجوهر يساوي مالاً كثيراً ومد يده نحوها والعقد يتلألأ في كفه وهو يقول « مالي اناديك عزيزتي فتنادينني عمي ؟ . »

فحولت جهان وجهها عنه وهي تنظر اليه شزراً وتباعد كرسيها وقد ارسلت يديها الى وراء ظهرها وقالت « لا يا سيدي .. لا حاجة لي بالجوهر فاني حزينة ولا ارى مع ذلك مسوغاً لهذا الخطاب .. »

فاظهر استغرابه نفورها وقال « اهكذا تعاملين رجلاً اقامه ابوك وصيا عليك ؟ هبي اني من عامة الناس فاحترمي وصية والدك على الاقل »

فقالت بصوت هادىء كله وقار وترفع « كان الاولى ان تبدأ انت باحترام

تلك الوصية ايها الملك والقائد . »

فقال بنغمة الفائز الظافر « اتظنين اباك لم يوصني الا بما في تلك الصحيفة ؟ .. انه اوصاني وصية شفاهية لا بدَّ لي من تنفيذها »

فقالت والازدراء بادٍ في شفتيها وعينيهـا « ان والدي لو كان حياً ما قبل منك بذلك .. »

فابتسم وابرقت عيناه بريقاً ازعجها وقال بلحن الهائم الولهان « هبي انه لم يقل شيئاً من ذلك الا يكفي ان اقوله انا . . . يظهر ان ما ظننته من تعقلك وذكائك في غير محله . . ايخاطبك ملك اشروسنة بعبارات التقرب والتودد وتجيبينه بالخشونة والنفور ؟ »

الفصل الثالث والعشرون

ليس الحب للشباب فقط

فنظرت اليه نظرة الاستغراب والدهشة وقالت وفي كلامها تهديد وقد اقطبت حاجبيها « قف عند هذا الحد من التلميح واحذر ان تنزع الى التصريح ان ملكك وان ضخم لا يساوي عندي شيئاً .. »

قال « يظهر انك لم تفهمي مرادي ... ألم تفهمي بعد ؟ اني احبك يا جهان . نعم اني احبك اني عاشق لك » قال ذلك وقد زادت عيناه بريقاً و بدا فيهما الاحمرار

فلما سمعت تصريحه ورأت منه ذلك « نهضت عن كرسيها ونفرت نفور الظبي من الاسد او نفور الابي من الوقح وقالت « قلت لك قف عند حد التلميح .. فلم تصغ . اما وقد تجرأت على التصريح فاعلم اني لا اسمح لك بمثل هذا الخطاب . وهل يليق بك وقد كللك الشيب ان تخطب محبة فتاة اصغر من بعض ابنائك ؟ »

فتنهد الافشين تنهداً حاراً وقال وهو يتذلل و يتلطف « آه يا جهان .. اتحسبين الحب محرماً على غير الشبان ؟ . اني ارى الكهولة أولى به واقدر عليه من الشباب ..

ان الناس مخطئون بما يتوهمونه لان الحب لا علاقة له بالسن »

ثم اعتدل بمجلسه واشار الى صدره وقال « ان في هذا القلب من لواعج الغرام ما لا يتسع له صدور الشبان .. كنت شاباً وانا اليوم كهل واقسم لك بما تعبدين اني اشد كلفاً واعرق في الحب من قبل .. يدلك على ذلك اني وانا الملك السيد والقائد الباسل اترامى عند قدميك لاخطب مودتك والتمس رضاك متذللا متصاغراً (وترامى عند قدميها) فاذا اطعتني علمت اني عاشق استهلك في سبيل سعادتك وكنت الملكة النافذة الكلمة في العراقين وفارس وخراسان واشروسنة وفرغانة .. وان ابيت وظللت على خطاك . . »

فقطعت كلامه وهي تنظر في وجهه نظر الاستخفاف وقالت « انهض يا حيدر .. انهض يا ابن كاووس .. انهض يا ملك اشروسنة وارجع الى رشدك ودع ما تقول وانا اصفح عنك واغضي عما فرط منك واكتم جسارتك .. انهض .. لا ينبغي ان تكون هذه الفتاة اربط منك جأشاً واكثر تعقلاً »

فوقع كلامها وقوع سهم في قلبه فنهض وهو يحرق اسنانه وقال « لقد قتلتني بثبات جنانك وجسارتك .. اتحسبينني عاجزاً عن ارغامك ؟ . ولكن قلبي لا يطاوعني على اذيتك فارجعي الى صوابك وفكري في ماعرضته عليك من اسباب السعادة ولا تعملي عمل اهل الجهالة .. واعلمي انك وما تملكين في قبضة يدي فاذا اطعتني كنتُ انا وما املك في قبضة يدك »

فهاج غضبها ودبت الحمية في عروقها وحدثتها نفسها ان تزيده توبيخاً ولكنها تماسكت لعلمها انها لا تقوى على مناوأته وهو ملك عنده الجند والاعوان و بيده خط والدها بالوصاية المطلقة عليها فلا ينصرها عليه حاكم ولا ينجيها منه سلطان الا اذا كانت في دار الملك فربما استعانت عليه بالخليفة فينصفها ... فرأت من باب الحكمة ان تستعين عليه بالتعقل والتدبير فتمالكت بما فطرت عليه من قوة الارادة وقالت بصوت خافت « سمعتك تستمهلني ريثما افكر في ما عرضته عليَّ وانا امهلك لتفكر في ما قلته لك ونرى بعد ذلك ما يكون .. ولكنني كما قلت لك سأكتم ما بدا منك وابذل جهدي في نسيانه حتى يكون مكتوماً عني ايضا لاني اضن بصديق والدي ووصيه ان يقال

عنه ما قد يقال عنك لو اطلع الناس على اقوالك . . . هل قبلت ما اقوله لك ؟ واذا أبيت الا الطيش فانا اولى بالطيش منك ولا تحسبني فتاة ضعيفة »

فاحس الافشين بعظمة تلك الفتاة ولم يعد يقوى على التفرس في عينيها كأن الغضب زاد كهربائيتهما فتطاير منهما الشرر . ووقع كلامها على رأسه كالصاعقة وقال « ما انت فتاة ضعيفة ولا انا اقول ما اقوله عن طيش لكنك تعتقدين كما يعتقد سائر الناس ان الحب لا يليق بغير الشبان وانا اريك رأي العين ان الكهول اشدّ هياماً . . ان بين جنبيّ قلباً يضحي الملك والحياة في رضى محبوبه . فهل يفعل الشبان ذلك ؟ وهم انما يحبون عن خفة وجهالة لا يثبتون في الحب ولا يرعون ذمام المحبوب . اما وقد قبلت استمهالي فها انا صابر لك حتى ترجعي الى رشدك . وطبعاً اننا لا نزال في ايام الحزن على صديقي والدك لا نقطع امراً قبل انقضاء الايام المفروضة ونحن الآن في اوائلها . لكنني لم اتمالك عن ان ابثك ما في قلبي وانا احسب ذلك يسرك ويعزيك فارجو ان لا يخيب ظني بعد انقضاء مدة الحزن ولا سيما بعد ان ترجعي الى رشدك وتحققي صدق نيتي في ما ارجوه لك من الخير في دنياك . . لا بأس يا عزيزتي اني صابر فاعملي فكرك على مهل . . »

فاغضت عن تطويله في بث جوارحه وتعليق اماله وقالت بصوت هادىء وجأش رابط « فاقعد قعود الوصي لاخاطبك مخاطبة الفتاة لوصيها الامين » فقعد وقعدت وهو يعجب بثبات جأشها لانه قعد وهو يرتعد من شدة التأثر وهي لا تبالي فقالت له « هل قمت بحق الوصية هل دبرت شؤون القصر واهله ؟ »

قال « قد فعلت كل شيء فالمزارعون عاملون في الحقول والقيم يدير شؤون القصر واعلمي اني احرص على مالك منك » ومد يده والعقد لا يزال فيها وقال « والعقد الا تقبلينه مني ؟ . خذيه اذا شئت »

فحولت وجهها واومأت ايماء الاشمئزاز وقالت « لا . لا اريد قبول شيء يذكرني هذا الاجتماع ولو استطعت ان اجرد هذا القاعة من فرشها واثاثها لفعلت حتى لا ارى شيئا شهد هذا الموقف او سمع هذا الكلام . . والآن اسمح لي ان اشكر لك عنايتك بشؤون التركة ذلك هو عهدي بالافشين صديق والدي والامين على اهله . . واني

ساسان ؟ لماذا حرمتموه من ارثه ؟ »

فاحس الافشين عند سماع اقوالها انه يتصاغر في عيني نفسه وهي تعظم وتعلو حتى كاد يتلعثم لسانه و يغلق عليه .. وانما غلبته على بسالته وسلطانه بالعفة وادب النفس فتجلد الافشين وقال « انك تسأليني سؤال القاصر لولي امره وانا مأمور بكتمان السبب كما تعلمين فلو سألتني سؤال الحبيب لحبه لاطلعتك عن كل شيء »

قالت « اعمل الوصية ودع الحب والمحبين »

فدهش الافشين لتعقلها ولم يزدد الا هياماً بها ولكنه احس بتهيب من الرجوع الى مداعبتها فسكت ولم ير خيراً من ختم الحديث فنهض واستأذنها بالانصراف وخرج وقد غلب على امره وعلم انه لن ينال رضاها وانما اطاعها وقبل التأجيل فراراً من الخروج فشلاً

الفصل الرابع والعشرون

المناجاة

اما هي فظلت واقفة في مكانها وعيناها تتبعان الافشين حتى خرج من الغرفة . ولما تحققت خروجه من القصر رفعت بصرها الى صورة مطرزة على ستارة بالحائط تمثل وجه والدها وتنهدت تنهداً عميقاً والقت نفسها على الكرسي وقد أحست بضعف في مفاصلها كانها خارجة من عمل شاق . والتفتت حولها فلما تحققت انفرادها اعادت تنهدها وناجت نفسها قائلة « آه ياجهان .. اواه يا عروس فرغانة .. ما الذى دهاني في هذين اليومين . مات والدي وسافر حبيبي .. والذنب لي في ذهابه .. ولكن .. لا بأس من ذهابه وذلك اولى من بقائه فلا يعلم بما يضمره ذلك الشيخ الجاهل .. قبحك الله من ملك صعلوك وتبًّا لك من قائد مغرور .. اتطمع بجهان وهي ابعد عنك من الثريا .. الي لا اقول له ان قلبي لضرغام ؟ .. لا . لو قلت له ذلك لعرضت حبيبي للخطر .. حبيبي ضرغام . اين انت ؟ » ولما ذكرت اسمه وتذكرت بعده احست

بانقباض نفسهـا ولم ترَ فرجاً الاّ بالبكاء فاطلقت لدموعها العنان وهي تحاذر ان يسمع صوت بكائها احد . فلما استغرقت في البكاء نسيت موقفها ولم تعد تحاذر الشهيق ولولا رباطة جأشها وقوّة ارادتها لاغمي عليها . وهي في ذلك نبهها وقع خطوات مسرعة بباب الغرفة فالتفتت واذا بالقهرمانة دخلت مسرعة والبغتة بادية في عينيها وقد فتحت ذراعيها كانها تهمُّ ان تضمَّ جهان بينهما كما تضم الوالدة طفلها اذا بكى

اما جهان فلـما رأت لهفة خيزران وحنوها على تلك الصورة فاضت شعائرها فتحولت لاستقبالها وهي تبتسم ابتسام المتجلد والدمع يغشي عينيها . ولما وصلت خيزران اليها ترامت جهان بين ذراعيها وقد اخذها الخجل لما بدا من ضعفها فابتدرتها خيزران قائلة « ما بالك تبكين يا سيدتي ؟ ماذا اصابك ؟ »

فقالت وهي تتجلد وتمسح دموعها بمنديلها « اتستغربين بكائي يا اماه وقد فقدت والدي بالامس ؟ . آه ان مصيبتي بفقده مضاعفة . . »

ولم تكن خيزران غافلة عما دار بينهـا وبين الافشين وان لم تسمعه ولكنها ظنت شيئاً ولـما رأت وجه الافشين عند خروجه ممتقعاً تحققت ظنها فقالت « صدقتِ ان وفاة سيدي المرزبان تدعو الى البكاء والعويل وخصوصاً اذا خلفه مثل هذا الوصي..» وغصت بريقها ولكنها تجلدت وضمت جهان وقبلتها وقالت « لا بأس عليك يا سيدتي لا تخافي احداً »

فلما سمعت قولها لم يشق عليها اطلاعها على ذلك السر لانها مستودع اسرارهـا ولكنها تذكرت قوة جنانها فاسترجعت رشدها وقالت « وهل تعلمين اني اخاف شيئاً ؟ . ولكنني . . »

قالت « انا اعلم سبب بكائك فلا تهتمي واعلمي اني اضحي حياتي في خدمتك وليس انا فقط . . ان اهل هذا القصر بل اهل فرغانة جميعاً يفدونك بانفسهم »

فتخلصت جهان من بين ذراعي خيزران بلطف واشارت اليها ان تقعد الى جانبها فجلست وهي ترمق جهان وترعاها بعينيها فرأت سحنتها تغيرت من الحزن والقنوط الى الاهتمام والجلد وقد اطرقت وبدا الذكاء واعمال الفكرة في عينيها وجبينها . فعلمت خيزران انها ستقول قولاً مفيداً فبالغت في الاصغاء وقلبهـا يخفق حتى كادت تسمع

دقاته . . وطال سكوت جهان وخيزران مصغية تنظر الى ما يبدو في عينيها من علامات الاهتمام واخيراً وقفت جهان فجأة ونظرت الى خيزران نظراً حاداً وقالت وهي تهز رأسها « لا مقام لي في هذه الديار بعد الآن . . »

فوقع قولها من خيزران وقوع النار على رأسها فما تمالكت ان وقفت وصاحت قائلة « ماذا تقولين ؟ »

قالت « ينبغي ان اسافر من هذا القصر . . يجب ان اتركه حالاً »

قالت « والى اين ؟ كيف تتركينه وفيه كل ما لك وقد ربيتِ فيه . . لمن تتركينه ؟ »

قالت « اتركه للطامعين فيه . . . اتركه للافشين والموبذ . . »

قالت وقد اصفر وجهها وجلاً « كيف تتركينه وفيه ثروتك وانت صاحبة الامر والنهي فيه . . »

قالت والحزم بادٍ في محياها « لا تهمني الثروة ولا انا اعيش بالامر والنهي . . وما الفائدة من الجدران والاشجار والاحجار . . ؟ ليست السعادة بامثال هذه الحطام . . نعم اتركه واترك الدنيا معه . . اني ارى السعادة قد غادرته منذ غادره والدي . . »

فادركت انهـا تشير الى ما يهددها من مطامع الافشين وهي بعيدة عن ضرغام فقالت « اذا كان ذلك الرجل قد اساءك فانبذيه ولا تهتمي بشأنه . . . انك ملكة في قصرك وهل تظنينه يجرأ على اخراجك منه »

فنظرت اليها شزراً والاستخفاف حول شفتيها « انه لا يخرجني منه بل هو يريد ان أبقى هنا . واما انا فلا . . »

قالت « كيف تمضين يا سيدتي والى اين . . »

فاطرقت ثم قالت « اني ذاهبه نعم ذاهبة . . . لا محالة واما انت فامكثي هنا . . »

فقطعت خيزران كلامها وقالت وهي تشرق بدموعها « انا ابقى ؟ وماذا افعل هنا انك تجرحين قلبي بتوبيخك . . . اني بين يديك حيثما تذهبين . وانما اردت ان اعلم الجهة التي تطلبينها . »

قالت « اني ذاهبة الى العراق . . »

فلما سمعت قولها دهشت والتفتت اليهـا قائلة « انك تقولين قولاً يسهل لفظه ويصعب فعله . . أتعلمين المسافة بيننا و بين العراق ؟ »

قالت « وان كنت لا اعلم ؟ »

قالت « انك حكيمة لا تعملين عملاً الاّ بعد التبصر . . أتعلمين ان بيننا و بين العراق بضعة اشهر ينبغي ان تقطع معظمها في البوادي الخطرة التي لا يستطيع سلوكها الاّ القوافل او الجماعات من الجند المسلح لكثرة اللصوص وقاطعي الطرق ؟ »

قالت « مهما يكن من الامر اني خارجة الى العراق »

قالت « تبصري يا سيدتي او ياولدي او يا حبيبتي واشفقي على شبابك ان تعرضي بحياتك لهذا السفر المحفوف بالاخطـار . . . ان السائر الى العراق ينبغي له ان يقطع صحاري قاحلة فيها اللصوص من التركمان وغيرهم وكثيراً ما يعترضون قوافل التجارة الذاهبة الى خراسان اوفارس فيقتلون اصحابها و يقبضون اموالهـا فكيف تسافرين انتِ فيها ؟ »

قالت « اسافر كما يسافر سائر الناس . . اني مسافرة وسندبر طريقة السفر »

فلما لم تر حيلة في ارجاعها عن عزمها بهذا السبيل قالت « اذا كنت تطلبين الذهاب الى العراق فراراً من الافشين فالعراق مقرُّه وهو صاحب النفوذ فيه »

قالت « ليكن مهما شاء فانا لا اخافه هناك لان يد الخليفة فوق يده . . وهناك ضرغام ايضاً . . . » قالت ذلك وتراجعت لحظة ثم استأنفت الكلام قائلة « لا اعني ان استعين بضرغام عليه ولكنني القى هذا الشيخ الجاهل في بلد يسمع فيه صوت الحق . . . وقد يغلبني هناك بنفوذه كما اخاف ان يغلبني هنـا بجنوده ولكنني لا اغلب هناك الاّ بعد ان اريه كيف اعمال الرجال . . اني مسـافرة لا ترجعيني عن عزمي »

وتحولت نحو الباب فتبعتها خيزران قد اخذتها الدهشة من ذلك العزم الفجائي ولم تمالك عن البكاء سرًا

اما جهان فمشت مسرعة نحو غرفتها لا تلتفت يميناً ولا شمالاً وقد تمثلت بهـا الشجاعة والحزم وثبات الجنان وخيزران تتبعها ولا تجسران تعترضها وحاذرت الدخول في اثرها فتباطأت في مشيتهـا . واذا بجهان تناديها من الداخل فاسرعت اليها فرأتها

جالسة على سريرها والحيرة تتجلى في عينيها رغم ما في جبينها من دلائل العزم الصادق فلما دخلت ابتدرتها جهان قائلة « ألم يعد سامان بعد ؟ »

قالت « كلا يا سيدتي . لم اشاهده في هذا الصباح . . »

فهزت رأسها وحرقت اسنانها ثم قالت « يا اماه . . تعالي اجلسي الى جانبي . . »

فجلست خيزران وهي تهيب من رؤيتها فقالت جهان « اني مسافرة كما قلت لكِ ولكن لا ينبغي أن يعلم احد بسبب سفري فعليك ان توصي المهتر (قيم القصر) ان يتعهد اموالنا ومغارسنا كالعادة على اننا خارجون الى بلد قريب .. »

قالت « سأفعل ذلك يا مولاتي .. وهل يكون سفرك قريباً ؟ »

قالت « في اقرب وقت .. قبل انقضاء مدة الحداد وهي لا تزال طويلة وسأعين الوقت .. انما ارجو ان تساعديني في اعداد ما ينبغي اخذه من الامتعة فاننا على سفر طويل . . فهمتِ ؟ »

فاشارت برأسها مطيعة وسكتت تنتظر ما ياتي به الغد وان كانت لا تتوقع رجوع جهان عن عزمها لما خبرته من ثباتها وحزمها ثم تركتها في الغرفة وحدها وخرجت

قضت جهان بقية ذلك اليوم وهي كالضائعة وغلب عليها التفكير في اخيها سامان لاحتياجها الى صحبته في ذلك السفر الطويل وهي تعلم انه لا يقلُّ عنها رغبة فيه واصبحت في اليوم التالي وسامان يقرع باب غرفتها ولما دخل ابتدرته بالعتاب على غيابه فقال « اذا كان غيابي عنك يوماً واحداً قد اقلقك فكيف اذا غبت عنك اشهراً ؟ »

قالت « العلك عازم على السفر ؟ »

قال « وما الاقامة في بلد حرمتُ من خيراته فانا غريب بين اهلي اما انتِ فانك وريثة القصر والمال فامكثي ودعيني اضرب في الارض » قال ذلك واظهر الكآبة فلم يفتها قصده ولكنها رأت سفره يوافقها فقالت « وما قولك اذا سافرنا معاً ؟ »

قال « وهل انت عازمة على السفر ايضاً ؟ »

قالت « نعم »

قال « لا ارى باعثاً لسفرك الاّ اذا كنتِ تريدين العراق وهناك ضرغام حبيبك »

قالت « اني عازمة الى العراق . فهل انت عازم الى هناك »

قال « اسير برفقتك .. ولكن مثل هذا السفر لا يتأتى لنا الا بعد الاستعداد الكافي ولا بد لنا من اصطحاب جندٍ او قافلة لان الطريق وعر وطويل »

قالت « دبر ما تراه اني مسافرة في القريب العاجل »

فابرقت اسرة سامان وهو انمــا بدأ بتلك المقدمة ليسمع هذه النتيجة لغرض في نفسه طالما سعى فيه ولولا رغبة جهان في السفر للنجاة من الافشين لانكشف لها غرض اخيها ولكنها تعامت وتجاهلت رغبة في النجاة والانسان كثيراً ما يغطي غرضه على تعقله فعهدت الى سامان بتدبير امر السفر واخذت هي في الاستعداد سرًّا بواسطة خيزران

الفصل الخامس والعشرون

المعتصم واتراكه

بنى المعتصم سامرًّا كما ذكرنا في مكان آخر ليقيم فيها رجاله الاتراك وغيرهم وهي المدينة الثانية من مدن بني العباس على ٥٠ ميلاً من بغداد شمالاً بناها على شاطيء دجلة الشرقي وقسمها الى قطائع اقطعها لرجاله وهم فرق تنسب كل فرقة الى مواطنها التي حملت منه فقــد حمل بعضهم من سمرقند وهم الاتراك والبعض الآخر من فرغانة وهم الفرغانيون والبعض من اشروسنة ومن غيرها وجعل على كل جماعة قائداً . واشهر قواده الافشين واصله من ملوك اشروسنة وهو قائد الاشروسنية واشناس كان في الاصل مملوكاً لبعض قواد المعتصم فابتاعه ورقاه وايتاخ كان مملوكاً لقائد آخر وكذلك سيما وغيره

ولما استقر رأيه على بناء سامرّا احضر المهندسين والفعلة والبنائين واصحاب المهن من النجارين والحدادين وامر بحمل الساج وسـائر الخشب والجذوع من البصرة وما والاها من بغداد وسائر السواد ومن انطاكية وسائر سواحل الشـام واستحضر الرخام من اللاذقية وغيرها

وابتنى قصره في اواسط المدينة وبجانبه المسجـد الجامع واختط الاسواق حول المسجد وجعل كل تجارة منفردة في سوق على نحو ما فعل المنصور في بناء بغداد وافرد

لقوادة قطائع ابعدها عن قصره وعن منازل الناس واهل الاسواق فاقام اشناس في محلة بطرف سامرّا في الشمال على بضعة اميال من قصره سماها الكرخ على اسم كرخ بغداد ، واقام الافشين في طرفها الجنوبي في مكان يسمى المطيرة على نحو ذلك البعد من قصره وانشأ للفراغنة قطائع اقرب اليه من سواهم وكذلك الاتراك والخرسانية والمغاربة وامر قواده ان يبنوا المساجد والاسواق في قطائعهم لرجالهم وجعل لسامرّا شوارع موازية لمجرى دجله تقطعها دروب وازقة اكبرها الشارع الاعظم يمتد من المطيرة شمالاً على موازاة دجلة الى الكرخ وتمتد قطائع الناس يمنة و يسرة على هذا الشارع وتتصل اليه بدروب وازقة تنفذ الى دجلة ، وفي هذا الشارع كان ديوان الخراج وقصر المعتصم والمسجد الجامع وسوق الرقيق ، و يلي الشارع الاعظم شارع آخر يعرف بشارع ابي احمد على موازاته وشوارع أخر لا محل لذكرها

و بنى على دجلة جسراً يوصل الشاطيء الشرقي بالغربي واقام في هـذا الجانب العمارات وغرس البساتين وحفر الابار واستقدم من كل بلد اصحـاب الاعمال اللازمة للعمارة كمهندسي الماء وصناع القراطيس استقدمهم من مصر وصناع الزجاج والخزف من البصرة وانزل اهل كل مهنة وصناعة مع اهاليهم وعيالهم وجعل الابنية قصوراً حولهـا البساتين و بينها الميادين[1] ولما تسامع الناس ببناء هذه المدينة تقاطروا اليها للبيع والشراء وزاد فيها الواثق والمتوكل وغيرهما ممن خلف المعتصم كثيراً من الابنية الفخيمة

وكان في جملة ابنية الفراغنة بقرب قصر المعتصم بيت متوسط الحجم قائم في حديقة حولها سور له باب مطلٌّ على دجلة عنده نخلتان ، ولم يكن اهل سامرّا يعرفون شيئاً عن اهل ذلك القصر اذ قلما كانوا يرون فيه احداً غير الخدم الذين يخرجون الى السوق في حوائجه على ان القواد كانوا يعرفون انه منزل القائد ضرغام وكانوا يعجبون برغبته عن زخارف الحياة خلافاً لسائر القواد او الامراء الذين كانوا يستكثرون من الحاشية والموالي والمماليك ، وكان اكثرهم يظنونه وحيداً فيه وربما زاره بعضهم في اثناء اقامته في سامرّا اما بعد سفره الاخير فانهم انقطعوا عنه اذ لم يبق في البيت احـد الا امرأة كفيفة البصر هي والدته ومعها جارية عجوز تخدمها اسمها مسعودة

(١) كتاب البلدان لليعقوبي

الفصل السادس والعشرون

آفتاب

وكانت والدة ضرغام تسمى آفتاب كفّ بصرها وهي في عنفوان الشباب قبل ذهابها الى فرغانة ولم يكن اهل البلد اكثر معرفة عن سابق حياتها من اهل سامرّا حتى المرزبان واهل قصره مع طول اقامتها بينهم . وقد علمت مما تقدم انها كانت تكتم اصلها حتى عن ابنها ضرغام فكان اذا سالها عن ابيه زعمت انه كان من جند المسلمين وقتـل في بعض الوقائع وانها نذرت لبس السواد عليه كل حياتها . ولم يصدق ضرغام قولها لما آنسه من تسترها واختصارها في ذكره فالح عليها مرة واستحلفها ان تخبره عن الحقيقة فوعدته انها ستطلعه عليها في وقت آخر وكان كلما ذكرها بوعدهـا استمهلته الى فرصة اخرى . وقضى شبابه في فرغانة وهو يطلب الخروج الى العراق للخدمة في الجندية او لمعاطاة عمل يرتزق به كما كان امثاله من اهل النشاط والذكاء يعملون وهي لا تطاوعه الا في الاعوام الاخيرة فاذنت له بخدمة المعتصم فجـاء معها واقام في سامرّا فظهرت مواهبه وارتقى في الجندية حتى صار رئيس الحرس وهو في كل فرصة يسالها عن ابيه فتؤجل الجواب

ولما استاذنها في الذهاب الى فرغانة في مهمته الاخيرة اذنت له والحت عليه ان يسرع في الرجوع وبقيت في ذلك القصر ليس معها غير جاريتها مسعودة وكانت تقضي نهارها قاعدة في البيت لا تخرج الى البستان الا نادراً والجارية تبذل جهدها في تسليتها وقد قضت في خدمتها اعواماً عديدة لم ترها ضاحكة قط فلم تكن اقل استغراباً لحالها من الاخرين على انهـا كانت تحترمها وتحبها حبا شديداً لما تؤانس من لطفها وطيب عنصرها مع سكوتها لانها لم تكن تتكلم الا ما لا بدّ منه

وكانت آفتاب مع كهولتها وابتلائها بالعمى جميلة الخلقة خفيفة الروح تدلّ ملامح وجهها على ما كانت عليه من الجمال المفرط . وكانت ربعة القوام ممتلئة البدن . ومع ما مرّ بها من الضيقات لا يزال جمالها محفوظاً وكانت جاريتها مسعودة منقطعة الى تسليتها

بما في امكانها وكان يسوءُها ميلها الى السكوت فتبذل جهدها في جمع الاخبار مما تسمعه من الخدم فتقصه عليها فتلاحظ منها اصغاء لسماع اخبار الخليفة المعتصم ولا سيما بعد ان صار ابنها رئيساً للحرس وخصوصا بعد سفره فكانت مع رغبتها في سماع اقوالها قلما تسمع منها جواباً غير قولها وهي تتنهد « متى يعود ضرغام لقد طال غيابه»

حتى اذا جاء البشير بقدومه كان اول من علم بذلك مسعودة اخبرها به رسول خاص انفذه ضرغام قبل وصوله لعلمه ان والدته تتلهف لرجوعه . فدخلت مسعودة على سيدتها مهرولة ولو تيسر لآفتاب ان ترى وجهها لقرأت فيه دلائل البشر — ولكنها حرمت من نعمة النظر لا لذنب او مرض وانما قضت عليها بتلك المصيبة مظالم ذلك العصر وقضت تلك المظالم ايضاً ان تكتم سبب عماها وتخفي حقيقة حالها عن كل انسان فلما دخلت مسعودة شعرت آفتاب بسرعة حركتها وحدثها قلبها بخبر تحمله اليها فبدت في وجهها ملامح الاهتمام وحركت عينيها المظلمتين حركة متفرس كانها تنظر في وجه القادم عليها لتستفهمه عما في نفسه . ولم تمهل خادمتها ان تسرع بالكلام فابتدرتها قائلة « وما وراءك يا مسعودة ؟ هل اتى ضرغام ؟ »

فصاحت « نعم يا سيدتي انه اتي .. من انباك بذلك ؟ »

قالت « انبأني قلبي . اذ ليس له شغل سواه . اين هو ؟ »

قالت « انه على مقربة منا »

فما تمالكت آفتاب عن النهوض فجأة وبدت في محياها علامات البشر وتقطر من بياض عينيها دمعتان تدحرجتا على خديها فتقتهما بطرف نقابها الاسود وصاحت وهي تبتسم « اتى ضرغام ؟ . الحمد لله . متى يصل الينا ؟ »

قالت « يصل في هذا المساء ان شاء الله .. »

فقالت « اعددي العشاء » ومشت نحو غرفتها مشية البصير لا تعثر بشيء ولا يوقفها شيء على عادة العميان النبهاء فانهم يستبصرون عن ابصارهم ارتقاء دائر حواسهم وتنبه اذهانهم . فدخلت غرفتها غسلت فيها وجهها وبدلت ثيابها وقضت ساعات بعض المهام حتى لا تستطيل الانتظار

وكان من فرط نباهتها ورقة شعورها انها وهي جالسة في ايوان القصر ساكنة تعرف

مكان كل واحد من خدمها في الغرف او الحديقة . فبعد ان فرغت من اصلاح شأنها جلست في الايوان ومسعودة في المطبخ تصلح الطعام وهي تفكر في قدوم مولاها وقلبها مسرور لعلمها ان ذلك يفرح مولاتها واذا هي تسمعها تنادي « مسعودة .. »

فهرولت الجارية مسرعة وهي تقول « نعم يا مولاتي ماذا تامرين ؟ »

قالت « ان ضرغاماً اتى .. مري الخدم بالخروج لاستقباله »

فاستغربت مسعودة قولها لانها لم تكن ترى شيئاً يدل على ذلك فخرجت الى الحديقة فلم تجد احداً فعادت وهي تقول « لم يأتِ بعد ولكنه آتٍ قريباً »

قالت « اني اسمع وقع حوافر جواده ... مري الخدم كما قلت لك »

وقد تعوّدت منها مسعودة كثيراً من ادلة النباهة والشعور البعيد فعادت الى البستان وامرت الخدم وهي لا ترى احداً قادماً ولكنها لم تبلغ باب البستان حتى رأت الغبار وسمعت وقع حوافر الخيل وتحققت قول سيدتها ولم تمضِ هنيهة حتى رأت ضرغاماً قادماً على جواده وهو لا يزال بلباس السفر وليس وراءه الا مولاه وردان على جواد آخر .فرجعت لتبشر سيدتها فرأتها قد سبقتها الى باب الدار وعيناها شاخصتان نحو الجهة التي تسمع الصوت منها وهما تجولان بين الاجفان كانهما تريان شيئاً — وانما حركها محرك البصيرة النقادة ولهفة الوالدة المشتاقة ولم تمهلها ان تقول شيئاً فسبقتها الى الكلام قائلة « ألم اقل لك انه جاء ... اني اشعر بحوافر جواده تتمشى في مفاصلي وكأني احس بحرارة انفاسه . . حرسه الله وابقاه » قالت ذلك وكأنها تنطق بعينيها وحاجبيها ويدها وبكل جارحة من جوارحها فأثر منظرها في مسعودة وخفق قلب الجارية شفقة عليها وودت لو انها تعيرها عينيها لترى بها ابنها وتفرح بمنظره

الفصل السابع والعشرون

اللقاء

اما ضرغام فما عتم ان وصل الى باب البستان وترجل فاستلم الخدم جواده وتحول هو الى الدار لتقبيل يدي والدته فكانت لا تزال واقفة وعيناها وكل جوارحها متجهة نحوه وهي تراعي اقترابه كأنها تراه رأي العين . فلما صعد درجات الدار واصبح بين يديها ضمته الى صدرها وقبلته فاكب على يديها يقبلهما ومشت الى الايوان وهي ترحب به وتكرر تقبيله وتستنشقه وتتفحص كتفيه وذراعيه وصدره وعنقه بيديها وتجس وجهه باصابعها فتمرها على لحيته وشاربيه وعينيه كأنها تتفرس فيه بانامالها . . . حتى اذا دخلا الايوان جلست على وسادة واجلسته بجانبها وهي تضمه وتشمه كأنها تخاف ان يخطفه احدٌ من بين يديها وتجيل بصرها فيه والدمع يتساقط منها وهو لا يعترضها بشيء مما تعمله لعلمه انه يسرها

ولما فرغت من التقبيل والشم اخذت تسأله عن صحته فطمأنها وشرح لها شوقه اليها وانها لم تبرح من خاطره في اثناء ذلك السفر الطويل . ثم تذكرت انه يحتاج الى الراحة فامرت مسعودة ان تهيء المائدة فاستاذنها ضرغام في تبديل ثيابه قبل الطعام فاذنت له وبعد التبديل قاموا الى المائدة ففرغوا من الطعام نحو العشاء وقد انير البيت بالشموع . وهي اول ليلة أنير بها منذ سافر ضرغام لان افتاب في غنى عن الضوء ولم يكن يزورها احد فلم تكن تنار الشموع في غياب ضرغام الا نادراً

وبعد الفراغ من العشاء خرجت مسعودة الى غرفتها لتخلو آفتاب بابنها لعلها تريد محادثته في شأن خاص فاتكأ ضرغام على وسادة ووالدته قاعدة بجانبه وهي قابضة بيديها على يده كأنها تعتاض عن المشاهدة بالملامسة واخذت تسأله عن سفره وهو يقص عليها ما شاهده في طريقه من الغرائب والاخطار حتى وصل الى سامرّا في ذلك المساء فقالت « وهل اقمت في فرغانة طويلاً »

فلما سمع ذكر فرغانة تذكر اشياء كثيرة فاجابها « نعم اقمت بها بضعة ايام . . . »

وسكت وهو يتردد في هل يخبرها بموت المرزبان فادركت والدته تردده من غنة صوته فقالت « قص عليَّ ما رأيته هناك . . ماذا جرى ؟ »

قال « ماذا اقص عليك ان القوم يذكرون جيرتك ويتحدثون بك كثيراً »

قالت « وكيف المرزبان واهله »

قال « انهم في خير الا المرزبان فانه مريض مرضاً ثقيلاً عجز الطب والاطباء عن علاجه ... »

قالت « اظنه مات ... اليس كذلك ؟ »

قال « اذا لم يكن مات فانه يموت قريباً لطول مرضه .. والحق يقال انه رجل محب ولو تعلمين مقدار احترامه لك »

قالت « اراك تتلطف في ابلاغي خبر موته .. رحمه الله . كيف فارقت اهله ؟ »

فلم يستغرب ضرغام شعورها بذلك الخبر لما تعوده من امثاله فيها واحب الاستطراق الى التحدث عن جهان فقال « ان اهله في خير لانه خلف لهم مالاً كثيراً »

قالت « وقد آل هذا الميراث الى جهان على ما اظن »

فاستغرب نسيانها سامان فقال « وهل نسيت سامان اخاها ؟ »

فادركت انها فرطت بسرٍ كانت تكتمه وبان الارتباك في وجهها فاطرقت وعيناها ترقصان في وجهها من الحيرة ثم قالت « لا لم انس سامان ولكنني كنت احسب والده يحرمه من الميراث »

فزاد استغرابه وهو يعلم انها لا تلقي الكلام جزافاً فقال « حسبك تقولين ذلك عن ظن ولا بدّ من سبب تكتمينه »

فقالت « ربما كان ذلك .. وهب اني اكتم سبباً فلو جاز لي ان اقوله لك لقلته » دعنا الآن من سامان واخبرني عن جهان عروس فرغانة كيف هي اني احبها واعجب بذكائها ولطفها

فلما سمع اطراءها جهان شغل بها عن رغبته في استطلاع خبر سامان وطاب له التحدث عن حبيبته فقال « ان جهان اهل لاعجابك وهي موضوع اعجاب الفرغانيين عن بكرة ابيهم . اني لم أرَ مثلها بين النساء ولا مثل جمالها وتعقلها . وكم تمنيت ان . ن

الله عليك بالبصر لتشاهديها »

فلما سمعت اعجابه بها توسمت فيه ميلاً شديداً اليها فقالت « أراك كثير الاطراء لسجاياها ولا الومك على ذلك اذ لم يفتني من مشتهيات المبصرين في هذه الدنيا الا رؤيتك ورؤيتها » وتنهدت ثم قالت « ولكن ذلك هو نصيبي من دنياي واحمد الله انه انار بصيرتي ومن عليَّ ببقائك . واذا فاتني ان أراك بعيني فلم تفتني رؤيتك بقلبي . اما جهان فلم أحب فتاة مثل حبي لها وهي ايضاً مرسومة في قلبي .. » قالت ذلك ومدت يدها الى صدر ضرغام وهي تظهر انها تحاول ضمه فاحست بخفقان قلبه فتحققت حبه جهان وهو لا يفقه مرادها ثم قالت « اني احب جهان يا ضرغام فهل انت تحبها ؟ » قالت ذلك وكفها لا تزال على قلبه

فقال « نعم يا أماه . اني احبها ولا ذلك ترين بأساً من ذلك لانك وضعتها معي في قلبك كما تقولين »

قالت « لا ارى بأساً . ولكنني لا علم اذ كانت هي تحبك ايضاً لانها بنت المرزبان وقد كنا اضيافاً في قصر ابيها . . . فربما حسبت نفسها ارفع منك مقاماً على عادة اهل اليسر . . ولا لوم عليها اذا فعلت ذلك لانها لا تعرف ابيك .. » ولم تكد تقول ذلك حتى تصاعد الدم الى وجهها وتشاغلت ببلع ريقها كأنها ندمت على ما فرط منها

اما هو فاجابها « كوني مطمئنة يا أماه ان جهان تحبني حباً شديداً لانها ليست من اهل الكبرياء ويسرني ان اخبرك باننا قد تعاقدنا على الزواج وهي لا تعرف نسبي . . والآن اذ قد جرنا الحديث الى ذلك الا ترين انه آن لك ان تبري بوعدك ؟ »

فعلمت انه يستنجزها وعدها باطلاعه على حقيقة ابيه فقالت « لم يأتِ الوقت يا ولداه وسيأتي قريباً ... عد بي الى حديث جهان فان خبر تعاقدكما يسرني وطالما كنت اتمنى ذلك وانا احسبه بعيداً ... فهل حدث ذلك العهد على يد والدها ؟ »

فقال « اعترف لك اننا تعاقدنا سراً قبل خروجي معك الى سامرا ولم اخبرك به لاني لم اكن احسب نفسي اهلا لها وانا يومئذ لا شأن لي فلما وفقني الله الى المنصب الذي نلته عند امير المؤمنين احتلت في الذهاب الى فرغانة لاخبرها به واتمم أمر الزواج على يد والدها فذهبت وقد صدق ظني بثباتها وكنت اكتم الكتاب فنقل المرض على ابيها وتوفي فاجلت ذلك الى فرصة أخرى »

قالت « وهل تنوي اذا تزوجتها ان تقيم معها في فرغانة أم تأتي بها الى هنا ؟ »

قال « ان ذاك راجع الى رأيك وهي لا تخالف لنا رأياً وكنت عازماً على المكوث هناك حتى تنقضي مدة الحداد واكتب كتابي وآتي بهـا الى هنـا فجاءني امر الخليفة بسرعه الرجوع فرجعت ولقيتها قبل سفري وهي حرضتني على الاسراع في طاعة الخليفة ووعدت ان تعمل بما نراه بعد ذلك »

فابرقت اسرة آذاب وابتسمت وقالت « احمد الله على هذا التوفيق واطلب اليه ان يتم فضله بما في خاطري فانت حينئذ اسعد الناس »

فعلم انها تشير الى خبر والده فقال « اني اسعد الناس بوجودك . . ولكن ... »

فخافت ان يستأنف سؤالها عن والده فقطعت كلامه قائلة « وهل علمت السبب الذي استعجلك الخليفة من اجله ؟ »

قال « كلا .. واظنه يريد انفاذي في مهمة عسكرية . هل تعرفين شيئاً عن ذلك ؟ »

قالت « لم اسمع خبراً في غيابك لاني لم اكن اكلم احداً غير مسعودة »

فقال « هل تراه بعث في طلب الافشين ايضاً »

قالت « لا ادري .. اين هو الافشين ؟ اليس في سامرا »

قال « كلا اني لقيته في فرغانة . »

فاطرقت وحكت جبينها كانها تفكر في أمر خطر لها ثم قالت « ان الافشين صديق المرزبان كثيراً .. هل شهد موته »

قال نعم « شهده وقد عينه المرزبان وصيا على اهله بعده »

فابتسمت ابتسام مطلع على امور سابقة تؤيد ما سمعته فلحظ ضرغام ابتسامها فقال « ما بالك تبتسمين هل تعرفين شيئاً عن هذا الامر من سواي ؟ »

قالت « كلا ولكنني تذكرت اشياء كنت اسمعها من صديقتي والدة جهان رحمها الله فقد كانت تسر الي بكثير مما يهمها وانا ايضا كنت ارتاح لمحادثتها . فكانت كثيراً ما تشكو الي ثقة زوجها بالافشين وهي لا تثق به لما تعلمه من جشعه وطمعه ولكنها لم تكن تجسر على اعتراض المرزبان في ثقته »

فلما سمع ذكر الجشع والطمع تحول خاطره لان الرجل اصبح وصياً على تركة كبيرة ربما تلاعب باموالها ولكن سبق الى خاطره حسن الظن بالناس لانه كان سليم القلب

طيب السريرة فاكبر ان يرتكب ذلك القائد العظيم طمعاً بمال اقيم وصياً عليه فقال « هل تظنين الافشين يمدّ يده الى مال التركة ؟ »

قالت « لا ادري . ولكنني ذكرت لك ما كانت تسرّه اليّ تلك المسكينة وهي ايضاً اسرت اليّ ما علمته عن سامان وسبب حرمانه من الارث . »

فانتبه ضرغام لشيء لحظه من سامان فقال لها « لا شك ان سامان نفسه كان عالماً بعزم والده ولذلك كان يبذل جهده في منع الوصية فكان يبعث به والده لاستقدام الموبذ فيعود ولا يأتي به ويتنحل الاعذار لعدم مجيئه »

قالت « واخيراً هل كتب الوصية على يد الموبذ ؟ »

قال « نعم وانا انفذت وردان في استقدامه »

فهزت رأسها وقالت « انعم به من موبذ ... وهذا ايضا كانت تلك المسكينة تستثقل روحه وتنفر من رؤيته فاذا زارهم في عيد او نحوه هربت من الايوان حتى لا تلتقي به ... وقد اذكرتني وردان .. اين هو ؟ »

قال « هو في هذا المنزل ولعله نام الآن لانه تعب في هذا السفر والحق يقال انه همام غيور كنت كثير الاعتماد عليه بمهامي ... وانا الآن لا ادعوه خادماً بل هو اولى ان يدعى صديقاً لانه ارقى كثيراً من طبقة الخدم ولعل له شأناً يكتمه »

فقالت « احتفظ به قد يكون شهماً خانه الدهر والدهر بالناس قلب » ثم انتبهت انه قد آن الرقاد وخصوصاً لضرغام على اثر مشاق الاسفار فقالت « اذهب يا حبيبي الى فراشك وغداً تخرج بحراسة الله الى المعتصم وارجو ان تلقاه وانت في خير وعافية » قالت ذلك ونهضت وامرت مسعودة باعداد ما يلزم للرقاد وضمت ضرغاماً قبل ذهابه الى الفراش وذهبت هي الى فراشها

بات ضرغام تلك الليلة والخواطر تتوارد عليه فتذكر جهان وكيف تركها وبينهما مسافة بعيدة واحس انه اخطأ بتركها ولام نفسه لانه لم يأت بها معه او بقي حتى يتم اقترانه وهو لا يعلم بالذي تم لها بعد سفره من حيث الافشين . ولو علم لطار اليها على اجنحة الانتقام . و[illegible] مفترض[illegible] الواجب [illegible] السبب الذي بعث اليه من اجله

الفصل الثامن والعشرون

المعتصم والاسد

وفي الصباح التالي نهض فقبل يد والدته ولبس بعد الفطور ثيابه الرسمية التي يقابل بها الخليفة واهمها القلنسوة وحولها العمامة والسواد وهو الجبة السوداء الخاصة بالعباسيين وتحتها القباء والسراويل . وتقلد السيف وركب الجواد وركب وردان في اثره وسارا

وكان قصر المعتصم في الجانب الشرقي من سامرًا يقال له الجوسق وهو مؤلف من عدة ابنية يضمها سور واحد وقد قلد في بنائه طرز الاكاسرة في المدائن فجعل بابه الخارجي مثلث القناطر القنطرة الوسطى كبيرة لمرور الفرسان والى كل من جانبيها قنطرة صغرى يمر تحتها المشاة . ويستطرق الداخل الى حديقة كبيرة فيها عدة ابنية اكبرها البناء الذي يقيم فيه المعتصم . وسائر الابنية للحاشية وفي جملتها بناء للاضياف وآخر للسباع لان المعتصم كان مولعاً باقتنائها وكثيراً ما يركب لاقتناصها

وصل ضرغام الى ذلك القصر في ضحى ذلك اليوم فلما اقبل على الباب وقف له الحرس وحيوه فدخل على جواده وترجل وردان وقاد فرسه في اثره . اما ضرغام فلم يترجل حتى دنا من قصر الخليفة فتناول وردان فرسه وساق الفرسين الى الاسطبل فرحب الحاجب بضرغام فسأله عن المعتصم فقال « انه خرج بالامس للقنص ولم يعد بعد »

قال « وهل تظنه يعود الساعة ؟ » قال « لا يلبث ان يأتي »

فادخله الحاجب الى قاعة يستريح بها ووقف بين يديه واخذ يرحب به ويسأله عن صحته وسفره فطمأنه انه عاد سالماً وسأله عن الاحوال الجارية لعله يستطلع سبب استقدامه فلم يرَ موجباً لذلك فتحير في امره . ومكث وهو يتشاغل بمشاهدة ما حدث في ذلك القصر من الرياش الجديد . ثم راى ان يخرج للحديقة يتفرج بما فيها من الاشجار والرياحين فرافقه الحاجب الى بعض اطرافها واذا باهل القصر في هرج وضوضاء وقد صاح صائحهم ان الخليفة عائد فتحول القوم نحو الممر المؤدي الى القصر واخذت طلائع الموكب تتقاطر بين فرسان ومشاة ثم اقبل الخليفة على جواده وعليه

لباس الصيد فوق الدرع التي يلبسها اذا خرج للصيد خوفاً من وثوب السباع او غيره من الضواري

وكان المعتصم ربع القامة طويل اللحية ابيض اصهب مشرباً حمرة تلوح الشجاعة في وجهه وتتجلى القوة العضلية في بدنه وبلغ من قوته انه كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات[1] واذا اعتمد باصبعيه السبابة والوسطى على ساعد انسان دقه وكان يلوي العمود الحديد حتى يصير طوقا ويشد على الدينار باصبعه فيمحو كتابته[2] وكان غضوباً شديد النقمة منصرف الهمة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة . فلما وصل الى باب القصر ترجل وحيا الوقوف واكثرهم من القواد والفرسان فوقع بصره على ضرغام فهش له وحياه فاسرع ضرغام اليه واكب على يده يقبلها فمنعه وقال « انت هنا يا ضرغام ؟ »

قال « جئت يا مولاي طوعاً لامرك »

قال « وددت ان تكون هنا البارحة لتذهب معي في هذ الصيد »

قال « وانا انتهي ذلك يا امير المؤمنين .. لا زلت ظافراً غانماً »

وبعد ان حوّل الخليفة وجهه نحو القصر تراجع كأنه تذكر شيئاً واشار الى الوقوف فانصرفوا واستبقى ضرغاماً ثم قال له « الساعة ادلك على شيء يسرك فقد اصطدت اسداً هائلاً . ولا ارى اسداً الا تذكرتك لانك تسمى ببعض اسمائه » ثم اشار الى الحاجب فوقف بين يديه فقال له « قل لاصحاب الصيد ان ياتوا بالاسد الى تلك المصطبة » ومشى الخليفة الى مصطبة في بعض جوانب الحديقــة وهو يراعي ضرغاماً ويخاطبه واغتنم ساعة الانتظار واخذ يساله عن سفره فقال « ارجو ان تكون قد وفقت في هذه الرحلة الى ما يسرنا »

قال « صدعت بامر مولاي فرافقنا توفيقه فابتعنا الجواري ... »

فقطع كلامه قائلاً « انت ابتعتهن ؟ »

قال « كلا يا مولاي ...لا اقدر ان اكون تاجراً ولكنني ساعدت الجماعة في ابتياع ما يلزم وهم يكونون هنا قريباً وانما تعجلت في المجيء طوعا لامير المؤمنين »

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ١٠٩ ح ٢ (٢) سير الملوك ١٦٢

فلما قال ذلك بدا الاهتمام في وجه المعتصم واطرق ثم قال « سنتكلم بذلك بعد قليل » والتفت نحو باب الحديقة فابرقت اسرته واشار الى ضرغام فالتفت فاذا بجماعة يحملون قفصاً من قضبان الحديد على اعمدة . وفي القفص اسدٌ هائج يكاد الشرر يتطاير من عينيه . فلم يتمالك ضرغام عن قطاب حاجبيه هيبة وكأن شيئاً جاش في خاطره اذ تمثلت له الشجاعة في وجه ذلك الحيوان المفترس

اما المعتصم فكان لا يزال واقفاً فلما اقتربوا بالقفص منه امرهم بوضعه على الارض فوضعوه والاسد يزأر زئيراً هائلاً تصطك له المسامع فقال المعتصم « انه يزأر من شدة الالم لاني رميته بنبل اصاب لبته واخشى ان يموت منه واحب ان يبقى حياً لاتمتع بثمر هذا الصيد كلما رأيته » قال ذلك ومشى نحو القفص وضرغام الى جانبه والوراء تأدباً حتى اصبحا على بضعة اذرع من الاسد وكان بيد الخليفة نبل ليس معه من الاسلحة سواه لان صاحب لباسه تناول اسلحته ساعة وصوله . واستبقى النبل بيده يتشاغل به فلما دنا من القفص اخذ يداعب الاسد ويشير اليه بالنبل كانه يهمُّ بضربه والاسد يزأر ويتململ والدم يقطر من لبته وقد جمد بعضه على صدره وقائمتيه واحمرت عيناه وتناعستا فتوهم المعتصم انه يموت فرمى النبل عليه لمداعبته فاصاب عينه فهبَّ الاسد غضباً وألماً ووثب يطلب الخليفة فلطم رأسه قضبان الحديد فارتد وقد أشتد غضبه كالمجنون والمعتصم وضرغام ينظران اليه ويظهران الاستهزاء بحركاته وقلباهما يخفقان لان للاسد رهبة ولو كان في حال الاحتضار

وهم في ذلك وضرغام يتفرس في الاسد وقد شاركه بمصابه لانه تصور نفسه في مثل حاله واذا به قد ضرب جانب القفص برأسه ضربة حات منه قضيبين وافلت فذعر الناس ولم يبق احد منهم الا هرب وهم يدوسون بعضهم بعضاً الا ضرغاماً والخليفة . ولم تكن الا لحظة حتى تبين للناس ان الاسد لا يطلب غير الخليفه وقد وثب عليه كلمح البصر وقبض بمخالبه على جانبه وفتح فمه كالمغارة وهمّ ان يلتقم رأسه فبغت المعتصم واخذ يبحث بعينيه ويده السائبة عن اداة او سلاح واخذته الدهشة فذهبت قوته او نسيها فاصبح لا يجد شيئاً يدفع به عن نفسه ولا يرى وسيلة للنجاة من براثن الاسد وقد تفرق الناس من بين يديه خوفاً ودهشة الا ضرغاماً وكان اقربهم اليه فانقض على الاسد وقبض

على فكه الاسفل بيد وعلى فكه الاعلى باليد الاخرى وهو يقول «لبيك يا مولاي .. انك سالم باذن الله» وما عتم ان سمع الخليفة تمزيق شدقي الاسد . فتخلى الاسد عن فريسته وتحول الى ضرغام فرمى به ضرغام بعيداً واستل خنجره وأسرع اليه قبل ان يتجمع للوثوب وقعد على جنبه وطعنه طعنة في لبته وأخرى في خاصرته وأخرى تحت ابطه وقد استفرس وغلبت عليه القوة الغضبية حتى اصبح منظره اعظم هيبة من الاسد فوقف شاربا واحمرت عيناه وتقطب حاجباه وكاد ينهش ذلك الوحش باسنانه

وحدث جود في الحضور لحظة ثم رأوا الاسد مضرجاً بدمه وضرغام فوقه والخليفة واقف وعيناه شائعتان نحو ضرغام فتقاطروا وعلا صياحهم يهنئون الخليفه وينظرون الى ضرغام نظر الاعجاب . ولم يتمالك المعتصم ان نظر اليه وابتسم له والاصفرار غالب على سحنته من أثر البغتة ونسي موقفه فقال « ضرغام بورك فيك من اسد...انك والله ضرغام حقيقة »

فلما سمع اعجاب الخليفة رجع الى رشده فوقف والخنجر في يده يقطر دماً. ثم رمى الخنجر بين يديه وقال « اني عبد امير المؤمنين ولم أفعل شيئاً الا ببركته وانا اعلم انه اولى مني بالانتقام من هذا الوحش . ولو ترك لنفسه لم يعجزه قتله ولكنني غلبت على وجداني فلم استطع صبراً على ما رأيته من جرأته فنبت بقتله عن مولاي وهي جسارة اعتذر عنها »

فاعجب المعتصم باسلوبه في الاعتذار وازداد امتناناً له ورأى ان يؤجل ما بقي عنده من الكلام لخلوة . واراد المسير فاحس بالم في فخذه من أثر مخالب الاسد ولكنه تجلد ومشى وأمر القوم بالانصراف وتحول مع ضرغام الى قصره وأمر الحاجب ان يمنع اياً كان من الدخول عليه في ذلك اليوم الا الطبيب فامر باحضاره ولم تمض لحظة حتى اتى الطبيب فخلا بالخليفة وكشف عن فخذه فلم يجد اثراً يستحق الاهتمام لان الدرع صانت مواقع المخالب . فهنأه بالسلامة واشار عليه ان يمكث في الفراش بقية ذلك اليوم وخرج

الفصل التاسع والعشرون

الخلوة

وتسامع اهل الجوسق بما اصاب الخليفة فتقاطر الوزراء والقواد للسؤال عنه فانبأهم الحاجب بما اوصاه به فرجعوا الا ضرغاماً فان الخليفة دعاه الى مخدعه فدخل بعد ان غسل يديه واصلح من شأنه . فتحفز المعتصم للوقوف له اظهاراً لاعجابه فاكب على يده يقبلها و يعتذر عن جسارته فامر له بالجلوس الى جانبه فجلس جاثياً متأدباً فقال له المعتصم « ان حياتي الآن من يدك يا ضرغام »

فاطرق ضرغام استحياء وقال « العفو يا مولاي اني لم افعل شيئاً يستحق هذا الاطراء لان الاسد انما مات من نبل امير المؤمنين الذي اصابه في لبته من قبل وما وثوبه هذا الا من مجاهدة الاحتضار . وهب اني فعلت شيئا فانا عبد امير المؤمنين افديه بدمي »

قال « بورك فيك .. اني طالما اعجبت ببسالتك واخلاصك وانا محاط بالمداجين والملقين لا اثق الا بقليلين منهم وان كنت اظهر وثوقي بهم جميعاً . وان قائداً مثلك يندر في بلاط الخلفاء في مثل هذا الجيل الفاسد .. ولم اكن اجهل اخلاصك من قبل ولذلك جعلتك رئيس حرسي فانت جدير بهذا المنصب ولا يليق الا بك » ثم بلع ريقه والتفت نحو الباب ثم نحو النافذة كانه يتجسس المكان ليتحقق خلوه من الرقباء واطرق هنيهة وسكت وضرغام مطرق وهو ينظر اليه خلسة ثم رفع المعتصم رأسه وقال « اتعلم لماذا اسرعت في استقدامك من فرغانة ؟ »

قال « كلا يا مولاي »

قال « هل تعلم انك بين يدي المعتصم ؟ . »

قال « نعم يا سيدي اعلم ذلك »

قال « وتعلم ان دولتنا قامت بالمحافظة على الاسرار ؟ »

قال « نعم اعلم ذلك وليتأكد مولاي اني احفظ لسره من صدره »

قال « اعلم اني وثقت بك واعتقدت فيك الاخلاص وصدق الخدمة منذ رأيتك المرة الاولى وقد شعرت بشيء حببك اليّ .. »

فتحفز ضرغام للنهوض احتراماً لذلك التصريح وهو يقول « تلك منة لا استحقها ومن ابن الجندي مثلي ان ينال هذه الحظوة عند امير المؤمنين واي فضل لي اذا اخلصت الخدمة لخليفة الرسول اليس ذلك فرضاً على كل مسلم ؟ »

فقال وهو يقعده بيده « بلى . ان ذلك فرض على المسلمين ولكن المخلصين قليلون ولولا ذلك ما اضطررت الى الخروج من بغداد وانشاء هذه المدينة ولا كان ثمة داع لتجنيد هذه الاجناد من اقصى تركستان وفرغانة لاستعين بهم على قومي وعشيرتي وعلى اولئك الفرس الذين اطمعهم اخي المأمون رحمه الله بالدولة . . . اني محاط بالاعداء من كل ناحية .. لا يكفيني الاعداء الاباعد في اذربيجان وطبرستان فان الاعداء يقيمون في مدينتي وفي قصري ... ان هولاء الاتراك الذين جعلتهم بطانتي وعهدت اليهم حمايتي ونصرة هذه الدولة .. حتى هولاء لا ينصرونني الا طمعاً بالمال ... اني اعلم ذلك وانا صابر لهم اسايرهم واخادعهم وانفق الاموال فيهم وهم يظنون انهم يخدعونني ... »

وسكت وقد بدا الاهتمام في عينيه فابرقتا بريقاً يوهم الناظر اليهما ان الدمع يغشاهما فتهيب ضرغام من ذلك واطرق ينتظر ما يبدو من الخليفة

ثم رفع الخليفة بصره اليه وقال « ضرغام .. هل شاهدت الافشين في فرغانة ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

قال « وما الذي ذهب به الى هناك ؟ »

قال « لم يخبرني بسبب ذهابه ولكنني اظنه ذهب يتعهد بلده واهله في عيد النوروز ..واظنه قادماً قريباً »

قال « انه قادم طبعاً لانه لا يجد رزقاً اوسع من هذا ولكن .. »

فقال « وهل امير المؤمنين في ريب من اخلاصه ؟ »

قال « اني في ريب من ذلك وان كنت لا أجد سبباً صريحاً لارتيابي على اني اغالط نفسي واظهر الثقة به لاننا في حرب لا غنى لنا فيها عن الافشين ورجاله واتمنى ان اكون مخطئاً بظني والذي ابغيه منك الآن ان تكون موضع ثقتي وان لا تفارق قصري ... »

فاجابه على الفور « اني عبد امير المؤمنين وطوع اشارته »

قال « وانت منذ الآن صاحبي ومع ان اسمك اليق الاسماء يسالنك فقد اخترت لك اسم « الصاحب » فانت من هذا اليوم تسمى الصاحب لانك لا تزال مصاحبي فهمت يا صاحب . »

فحنى ضرغام رأسه شكراً وامتناناً وقال « لقد تكاثرت عليَّ نعم امير المؤمنين ولا اراني اهلا لها ولكنه اراد ان يرفع صنيعته و .. »

فقطع الخليفة كلامه قائلاً « كيف لا تكون اهلاً لذلك وانت انقذت حياتي من بين براثن الاسد ؟ »

فزاد ضرغام استحياء وخجلاً وقلبه يرقص طرباً لعلمه ان ترقيه في عيني الخليفة وتقريبه اليه يسرُّ حبيبته جهان ويشعر انه صار اهلاً لها — والمحبون انما يطلبون العلى ارضاء لاحبائهم — ولكنه نظر الى الخليفة مغضياً وقال « لم اعد استطيع الشكر على نعم مولاي فاعذرني »

فقال « اذا كنت تعدُّ هذه السفاسف نعماً فكيف اذا علمت بما اعددته لك من النعم الحقيقية ؟ »

فظل ضرغام ساكتا واستأنف الخليفة الكلام قائلاً « قد علمت انك لم تتزوج بعد وانما تقيم مع والدتك على حدة .. فاردت ان تقيما في قصر اخصصه لكما بجوار هذا القصر وقد آن لك ان تتزوج ... اليس كذلك ؟ »

فاطرق ضرغام باحترام وقال « لامر لمولاي »

قال « وقد اعددت لك جارية تركية من اجمل النساء عرفت فيها الذكاء والجمال . رأيتها منذ عام وبعض العام وما زالت منذ رأيتها وانا اضمر ان تكون زوجة لك »

فلما سمع ضرغام قوله اسقط بيده لان قلبه ليس له .. وقد احب جهان ولا يريد ان يحب سواها ولكنه لم يستطع مخالفة الخليفة ولا استطاع التأمين على قوله فظل ساكتا وقد حار في امره

فرأى المعتصم حيرته فلم يخطر له انه برد طلبه فقال « لماذا لا تجيب ؟ ألم يعجبك اقتراحي ؟ »

قال « كيف لا فان جوار امير المؤمنين غاية مرادي » وسكت عن امر الزواج فظنه الخليفة سكت حياء فقال « والزواج .. العلك تختلف عن سائر الناس ؟ ليس في جندي واحد لا يتمني الزواج ولذلك فانا ابعث في ابتياع الجواري من تركستان لهذه الغاية كما تعلم لاني لا احب اختلاطهم باولئك السوقة ببغداد وغيرها لئلا يغلب عليهم التخنث. ام لعلك تفضل ان تختار لنفسك جارية من الجواري اللواتي ابتعتموهن في هذه السفرة ولكنني واثق انك لا تجد في تركستان كلها فتاة اجمل من التي اخترتها لك . ويكفي ان اختياري وقع عليها . وانا اعلم ان قوادي يتنازعون عليها لفرط جمالها وذكائها ولكنني قد اختصصتك بها دونهم .. »

فلم يجد ضرغام سبيلاً للجواب ولا استحسن التصريح بما في خاطره واجل القطع بذلك لفرصة اخرى فقال « ان الزواج لا عجلة فيه الان ونحن اما في حرب او تاهب لحرب ومتى فرغنا من ذلك فاني طوع اشارة امير المؤمنين »

فاكتفى المعتصم بما سمعه واعجبه منه تأهبه للحرب واراد طمأنته فقال « وهب اننا في حرب فلست تاركك تفارق قصري ..وسترى . وانما اتقدم اليك ان تنتقل بوالدتك الى هنا كما قلت لك واخبرها ان اسمك من اليوم « الصاحب » وسأوصي بطانتي وقوادي وسائر رجال دولتي بذلك » ثم تزحزح من مكانه بشكل فهم منه ضرغام انه ياذن بانصرافه فتحفز للنهوض وهو يقول « اياذن امير المؤمنين بانصرافي لاخبر والدتي بما امر ؟ »

قال « انصرف اذا شئت وانا موعز الى القهرمانة ان تهيء لكم المنزل اليوم »

فمشى ضرغام ووجهه نحو المعتصم حتى صار بالباب وخرج . فصاح الخليفة بالحاجب فدخل وامره بما تقدم

اما ضرغام فبعث الى وردان فجاءه بالفرس فركبا وسارا يلتمسان البيت وضرغام غارق في بحار الهواجس تتقاذفه الافكار وقد سره اعجاب الخليفة به ودعوته اياه ليقيم بقربه ولكن مسألة امر الزواج على انه لم يعلق عليها كبير اهمية اذ لا دخل له بالسياسة فيسهل التخلص منه

الفصل الثلاثون

رأي آفتاب

فلما وصل الى منزله سبقه وردان فبشر والدته بقدومه فعرفت وردان من صوته وتلطفت بالسؤال عن حاله ثم وصل ضرغام فتلقته والدته وقبلته وكانت قد اعدت له الطعام فجلس على المائدة وفكره مشتغل بما سمعه من الخليفة فشعرت آفتاب بالتغير الذي طرأ عليه في تلك الغيبة من سكوته فقالت « هل لقيت امير المؤمنين »

قال « نعم يا اماه لقيته »

قالت « كيف هو وهل اخبرك بسبب استقدامك السريع ؟ »

فأبطأ في الجواب لانه خاف اذا قال لها كل شيء ان يكون قد خالف الوعد واباح بالسر ثم قال « قد اخبرني .. ولكن حدث امر غريب »

قالت « وما هو ؟ »

فقص عليها خبر الاسد وما كان من دفاعه عن الخليفة فانشرح صدرها وبان ذلك في محياها . ثم اخبرها ان الخليفة غير اسمه ونهى عن ان ينادى ضرغام وانما ينادى « الصاحب » وذكر لها السبب فزاد سرورها بذلك القربى . ثم قال « وقد دعاني للاقامة بجواره »

وكانت تقتطع لقمة من الرغيف لتتناولها فلما سمعت قوله ظهر الارتباك باناملها وشخصت بعينيها البيضاوين اليه وقالت « دعاك للاقامة بجواره ؟ . لماذا ؟ »

قال « لاكون ملازماً له ... وذلك اكرام عظيم »

قالت وقد توقفت عن ازدراد ما في فيها من الطعام « هل يريد ان اكون انا معك ايضا ؟ »

قال « نعم وقد ذكرك على الخصوص وقال تسكن انت ووالدتك هنا »

فتغير لونها وتشاغلت بالمضغ وبان قلقها من تسرعها فيه وقالت « اذهب اليه وحدك.. ولا حاجة بي الى الاقامة بقصر الخليفة »

قال « ولماذا يا اماه .. اذا كنت لا تريدين الذهاب معي فانا ايضاً لا اذهب »

قالت « اذهب ان القربى من الخليفة شرف يتماه القواد واما انا فامكث هنا على ان تتردد اليَّ حيناً بعد آخر لالمسك واقبلك »

فتعجب ضرغام من استنكافها وابائها وقال « بل تذهبين معي فنقيم هناك كما نقيم هنا وقد وعدت الخليفة بذلك ولا سبيل الى التغيير »

فوجمت حيناً ثم قالت « ننظر في ذلك بعدئذ »

قال « ليس لنا وقت للتفكير فاننا متنقلون في الغد . مري مسعودة بالاستعداد وسأوصي وردان ان يساعدها . ولا ريب انك ستستأنسين بمن في قصر الخليفة من النساء فتقضين ساعات النهار بالتسلية والاحاديث او سماع الغناء وذلك افضل من بقائك منفردة هنا . وزد على ذلك اني في حاجة الى وجودك هناك لامر يهمني انا »

فتصاعد الدم الى وجنتيها وتغيرت سحنتها ودارت عيناها دورة تكاد تنطق بما اعترض فكرها من الارتباك وقالت « اما الاستئناس فلا ابغيه من سواك فانت تعزيتي الوحيدة لا اطلب سواها . بل انا اشترط عليك اذا كان لا بد من اقامتي هناك ان تطلق لي الحرية بالبقاء في المنزل لا اخرج الى احد . وقد ذكرت انك تحتاج اليَّ فما هي حاجتك وهل اقدر على شيء وانا كفيفة البصر كما ترى ؟ »

قال « انت ضوئي وان كنت ضريرة وسأوسطك في انقاذي من سعادة قد اعدها الخليفة لي »

قالت « انقاذك من سعادة ؟ ماذا تعني ؟ »

قال « اعني ان الخليفة لفرط اهتمامه بسعادتي قد خطب لي جارية تركية قال انها أجمل نساء هذه المدينة وانه احتفظ بها من اجلي وقواده يتنازعون عليها »

قالت « وماذا قلت له »

قال « اجلت الجواب لاني استحييت من الرفض »

قالت « هل انت عازم على رفضها ؟ »

قال « وكيف اذاً . هل اقبل بها ؟ »

فسكتت وتذكرت انه عالق بجهان فقالت « وكيف ترفض امر الخليفة ؟ »

قال « وجهان ؟ اليست هي عروسي ؟ »

قالت « لذلك انت تحب ان اكون معك .. تريد ان احتال لانقاذك من هذه الخطبة .. ان ذلك هين »

فانشرح صدره وقال « اذاً غداً ننتقل جميعاً .. قولي لمسعودة ان تستعد للانتقال .. وحذري من الآن وصاعداً ان تناديني ضرغاماً فان اسمي « الصاحب » كما قلت لك واذا دعيتني بغير هذا الاسم يستاء الخليفة »

قلت « لك عليّ ذلك » وكانوا قد فرغوا من الطعام فامرت آفتاب مسعودة بالاستعداد وهو امر وردان بمساعدتها

وفي اليوم التالي انتقل الجميع الى قصر الخليفة واقاموا في منزل بجانبه وليس معهم من الخدم المخصوصين الا وردان ومسعودة . اما حاجياتهم فيقضيها خدم الخليفة

الفصل الحادي والثلاثون

احمد بن ابي دواد

قضى الصاحب في جوار الخليفة اياماً وهو يتوقع ان يسمع خبراً عن جهان او يأتيه نبأ بقدومها وقد ازداد رغبة في سرعة مجيئها للتخلص من الجارية التي دبرها له الخليفة . ولم يرتب في ان الخليفة اذا رأى جهان زهد في سائر نساء الارض فلا يلومه حينئذٍ اذا ابى التزوج بسواها . وطال غيابها حتى استبطأها وشغل خاطره لتاخرها وانقطاع اخبارها وضاق صدره عن كتمان ذلك القلق فاستدعى وردان اليه ذات يوم فلما حضر قال له « ما قولك باهل فرغانة »

ففهم وردان قصده وقال « اتعني مولاتي جهان ؟ »

قال «طبعاً اعنيها هي وقد كنت على موعد من قدومها الى هنا بعد انقضاء مدة الحزن فمضت عدة اسابيع ولم تأت ولا سمعنا عنها خبراً فمارأيك ؟ »

قال « اتريد ان اذهب للتفتيش عنها »

فاستغرب الصاحب تفانيه في سبيل خدمته وابتسم له وقال « بورك فيك يا وردان.. لا أكلفك هذه المشقة ولكنني استشيرك في الامر »

فاطرق وردان واعمل فكرته ثم قال « الرأى عندي ان تصبر مدة اخرى لا تكون طويلة . . نصبر حتى يصل مولانا الافشين فانه عائد من فرغانة كما تعلم »

قال « ومتى يكون هذا ؟ »

قال « جاءت البشائر بقرب وصوله فاذا جاء سألناه او سألنا بعض رجله لانهم قادمون من هناك حديثاً »

فاستحسن ضرغام قوله « بعض رجاله » فقال « أرى ان تتولى انت امر البحث في هذا الشأن من بعض رجال الافشين »

قال « فهمت مرادك . وهذا ما خطر لي ولم اجسر ان اعارضك »

فضحك الصاحب (ضرغام) واظهر الاستئناس برأي وردان وقال « لاتكتم رايا ترى فيه مصلحة لي . واعلم اني اعدك منذ الآن رفيقاً لي لا خادماً لاني أراك ارقى من ذلك كثيراً »

فاطرق وردان احتراماً وقال « اني لا أزال خادمك اتفانى في خدمتك . اتأذن ان اذهب لملاقاة حملة الافشين قبل وصولها ؟ »

قال « افعل ما بدالك »

فودعه وخرج

ومكث ضرغام ساعة في قصره ثم جاءه رسول من المعتصم يدعوه اليه فلبس سواده وذهب الى القصر فقيل له ان المعتصم في خلوة مع قاضي القضاة احمد بن ابي دؤاد في دار الخاصة وانه امره بادخاله عليه حال وصوله

وكان ضرغام يعرف منزلة ابن ابي دؤاد عند الخليفة وانه لا يختلي به الا لامر ذي بال. فاستاذن ودخل فرأى الخليفة جالساً على سريره في صدر القاعة واحمد بن ابي داود على كرسي بين يديه

وكان احمد هذا معروفاً بالمروءة والعصبية ومع انه عربي الاصل ينسب الى بني اياد

والمعتصم قد ابعد سائر العرب من مجلسه وقطع اعطياتهم وحط من اقدارهم واختص الاتراك ببطانته فقد كان شديد الثقة به لا يمضي امراً الا بمشورته ولا يشاور وزراءه

وأصل ابن ابي دواد من قرية في قنسرين واتجر ابوه الى الشام واخرجه معه وهو غلام فنشأ في طلب العلم ولاسيما الفقه والكلام حتى فاق معاصريه . وكان معتزلياً فصيحاً قويَّ الحجة ونال عند المعتصم حظوة ودالة لم يسبقه اليهما احد حتى صار يفتتح الكلام في حضرته وكانت العادة عند الخلفاء ان لا يبدأهم احد بالكلام حتى يخاطبوه. ومن أمثلة دالته هذه ان المعتصم غضب مرة على خالد بن يزيد الشيباني واشخصه من ولايته لعجز لحقه في مال طلب منه واسباب غير ذلك . فجلس المعتصم لعقوبته وكان قد طرح نفسه على القاضي احمد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم . فلما جلس لعقوبته حضر القاضي احمد فجلس دون مجلسه الاعتيادي فقال له المعتصم «يا ابا عبد الله جلست في غير مجلسك». فقال «ما ينبغي لي ان اجلس الا دون مجلسي هذا». فقال له « وكيف» قال «لان الناس يزعمون انه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فيشفع». قال «فارجع الى مجلسك». قال «مشفعاً او غير مشفع» قال «بل مشفعاً» فارتفع الى مجلسه. ثم قال «ان الناس لايعلمون رضا امير المؤمنين عنه ان لم يخلع عليه» فأمر بالخلع عليه فقال «يا امير المؤمنين قد استحق هو واصحابه رزق ستة اشهر لابد ان يقبضوها وان أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة» فقال «قد امرت بها» فخرج خالد وعليه الخلع والمال بين يديه وكان الناس في الطرق ينتظرون الايقاع به فصاح به رجل «الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب» فقال « له اسكت سيد العرب والله احمد بن ابى داود » [1]

هذا مثل من عدة امثلة تدل على نفوذ ابن ابى دواد ولم يكن ذلك خافياً على ضرغام فلما دخل على المعتصم والقاضي احمد عنده علم انه دعي لامر ذي بال . فلما قبل على الخليفة حياه بتحية الخلافة قائلا «السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»

فهش له المعتصم وناداه اليه وامره بالجلوس على كرسي بجانب احمد وهو يقول « مرحبا بالصاحب » والتفت الى القاضي وقال « اظنك تستغرب تسميتي هذا القائد بغير اسمه فاعلم اني عملت بحسن رأيك فيه فقد طالما اثنيت على شهامته واخلاصه وقد

(١) ابن خلكان ٢ ج ١

رأيت منه فوق ما وصفت حتى عرض نفسه للموت من اجلي .. انقذني من براثن الاسد ببسالته فقربته وسميته الصاحب وهو الآن يقيم في بعض قصوري .. »

وكان ابن ابي دواد في نحو الستين من عمره قد وخط الشيب لحيته وعارضيه فازداد جلالاً ووقاراً وهو يلبس زي القضاة بالعمامة الطويلة والطيلسان الرقيق فلما سمع اطراء المعتصم وترحيبه بضرغام هش له وحياه والتفت الى المعتصم فقال « ألا يرى امير المؤمنين ان حسن ظني في محله ؟ . انى من يوم رأيت الصاحب لاول مرة نزل من نفسي منزلاً رفيعاً وتوقعت له مستقبلاً مجيداً اعانه الله على خدمة امير المؤمنين »

فقال المعتصم « و بناء على ذلك فأرى ان لا نخفي عنه ما يدور بيننا »

الفصل الثاني والثلاثون

القواد والاتراك

وكان ضرغام قد جلس متأدباً ينتظر ما يأمر به الخليفة فقال الخليفة « اعلم يا صاحب اني كنت والقاضي نتداول في ما بلغنا من اخبار ذلك المجوسي في ارمينيا »

فعلم ضرغام انه يعني بابك الخرمي القائم على الدولة في اردبيل وكان عالماً بقيامه وبوقائع جرت بينه و بين المسلمين ولم يظفروا منه بطائل حتى استفحل أمره فقال « وهل احدث هذا الرجل حدثاً جديداً »

فقال القاضي « لا يخفى عليك ان بابك الخرمي تمرد على امير المؤمنين بارمينيا فرماه بالافشين ورجاله مرة و ببغا ورجاله مرة أخرى والمسافة بيننا و بين ارمينيا بعيدة فكانت الحرب سجالاً ولا يزال الرجل معتصماً هناك وامير المؤمنين .. » قال ذلك ونظر الى المعتصم فقطع المعتصم كلامه قائلاً « قلت لك يا صاحب انى لا اثق بالافشين هذا ولا اعلم كيف استغني عنه وقد شاهدته انت في بلاده و بين اهله وعشيرته فكيف رأيته هناك ؟ »

قال « ان لهذا الرجل سطوة عظيمة في تلك البقاع انهم يعدونه ملكاً كبيراً و يسمونه ملك الملوك و بعضهم يخاطبه باله الالهة كانوا يفعلون ذلك قبل اسلامه امـا الآن فهو يستنكف من هذا وقد رأيت يا امير المؤمنين من نفوذ كلمته عندهم شيئاً عظيماً حتى يجتمع لندائه الوف الالوف من الرجال . واذا رأى امير المؤمنين ان يخرجه من خدمته فانه فاعل ما يشاء واذا شاء ان يرمي بي في مكانه بذلت دمي وروحي في مصلحته . . لا ازعم اني اقدر على ما يقدر عليه ذلك الرجل ولكنني اعترف باني طوع ارادة امير المؤمنين والنصر من عند الله يوتيه من يشاء »

فقال القاضي وهو يوجه خطابه الى المعتصم « ان الصاحب يعبر عن اخلاصه وتفانيه في خدمة الدولة ولكنه لو سئل عن عاقبة هذا التبديل لما جهل الخطر الذي يترتب عليه. لا أرى ان يعلم الافشين أو احد من رجاله بما يخالج خواطرنا من هذا القبيل واذا اذن امير المؤمنين قلت رأياً لعل فيه نفعاً »

فقال «قل ما بدا لك » والتفت الى ضرغام وقال « ان القاضي احمد ينوب لدينا عن الوزراء والمشيرين فعندنا من الوزراء والخاصة غير واحد كما تعلم ولكنني لا اثق باحد منهم وثوقي به .. قل ايها القاضي »

فقال « ان الافشين ملك في بلده وعنده الجند والاعوان وقد رضي بخدمة امير المؤمنين طمعاً بالمال . . . ويتحدث بعض الناس انه لا يخدم المسلمين الا لذلك ولو ترك لرغبته لانضم الى بابك وحاربنا . وهو اذا صح اسلامه فلا يزال حديثاً فيه اذا جافيناه انقلب علينا واذا اتحد مع بابك اخشى اتحادهما لاسباب لا تخفى على امير المؤمنين . والذي أراه ان نظهر له الثقة باخـلاصه ونشتريه بالمال هو ورجاله ونضرب بهم ذلك المجوسي المتمرد في ارمينيا واذا غلبوه كفونا شره واذا اتضح لامير المؤمنين بعد ذلك خيانة الافشين هان علينا الاقتصاص منه اذ يكون مفرداً . واذا كان مخلصاً نال مـا يستحقه من الرضى والنعم »

فاحس ضرغام عند سماع قول القاضي ان الرجل يتكلم عن تعقل ودهاء ولو ترك هو لنفسه لم يصل الى هذا الحكم لانه من اهل الشجاعة وليس من اهل الرأي ويندر اجتماع الشجاعة والرأي في واحد . فقال الخليفة « أرى قاضي القضاة يبالغ بتخويفنا من

هذا الفارسي او الاشروسني وقد فاته من في جندنا من القواد العظام وكل منهم يدافع عن دولتنا برجاله وعدته »

قال « صدق امير المؤمنين عنده اشناس التركي وايتاخ و بغا وسيما وغيرهم ولكن هؤلاء نشأوا من العامة ليس لاحـد منهم ما للافشين من الهيبة في نفوس الجند وقد سمعنا الآن ما لهذا الرجل من السطوة في قومه وهم الوف الالوف فاذا اغضبناه لا يقوم هؤلاء مقامه . ولولا تمرد بابك هذا لم نكن لنخشى بأس الافشين ولا سواه . وانت يا امير المؤمنين شجاع باسل وقد ايدك الله بالخلافه فلا ترى الركون الى الحيلة او الصبر على المكاره ولكننا نعلم من الحديث المأثور انه قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة واذا وثقت بي فهذا رأيي والا فأنا وسائر رجال الدولة رهن ما تريد نبذل دماءنا وارواحنا في طاعتك »

فالتفت المعتصم الى ضرغام كانه يستفهمه رأيه فقال ضرغام « اني لا أرى ردًّا على قول قاضي القضاة ولم اكن لاذهب لما فطن هو له من حسن السياسة وقد سمع امير المؤمنين جوابي فاني رجل سيف اصدع بالامر فاذا رميت بي اذربيجان او تركستان او ارمينيا ركبت اليها ودمي على كفي ولكن الصواب في ما قاله القاضي والرأي طبعاً يرجع الى امير المؤمنين »

فقال المعتصم « قد ندبتكما الآن للنظر في هذا الامر لسببين الاول ان طلائع الافشين جاءت تبشر بقرب وصوله والثاني قد جاءنا جاسوس من ارمينيا ان بابك الملعون قد استفحل أمره وربما تحرك نحونا فلا ينبغي ان نمكث هنا في انتظاره . »

قال القاضي « لا اظنه يجسر على القدوم وانما هو يقنع ان نتركه في مكانه وفي كل حال فالذي أراه ان نحتفل بقدوم الافشين ونبالغ في اكرامه حتى نفرغ من حاجتنا اليه »

فقال المعتصم « قد عودتني ان لا اخالف لك رأياً وها اني مرسل اليه من يلاقيه بالهدايا والتحف »

الفصل الثالث والثلاثون

المسجد الكبير

وهم في ذلك سمعوا صوت الاذان لصلاة العصر فتحفز الخليفة للقيـام وصفق فجـاء الحاجب فامره ان يخبر صاحب وضوئه بقرب الصلاة وانه سيصلي العصر في المسجد الكبير

فلم يبق لضرغام والقاضي بدٌّ من الذهاب الى الصلاة معه في ذلك المسجد وهو مسجد سامرا بناه المعتصم و بالغ في اتقانه على شكل لم يسبق له مثيل في الاسلام فجعل جدرانه مرايا وخصوصاً المحراب حتى اذا وقف الخليفة للصلاة رأى من يدخل المسجد من خلفه . و بنى له منارة عظيمة على شكل لولبي مكشوف يصعد اليها على درج لولبي في ظاهرها يشبه منارة جامع ابن طولون في مصر[1] او لعل ابن طولون بناها على مثال تلك . وكان المعتصم يصلي غالباً في ذلك المسجد لانه على مقربة من قصره . فلما تحفز للنهوض استاذن احمد وضرغام في الانصراف وذهب كل منهما الى منزله توضى ويمم المسجد

دخل الخليفة اولاً والنـاس وقوف للتبرك برؤيته وفيهم القواد والوزراء حتى اذا دخل المقصورة الخاصة به دخل رجال الخاصة في اثره وفيهم القاضي احمد وعبد الملك الزيات وزيره وقواد الاتراك الذين ذكرناهم . واما ضرغام فدخل حتى وقف في جملة الحاشية وكانت المرايا في الجدران على شكل غريب يرى الناس صورهم فيها كان امامهم مسجداً آخر فيه اناس يصلون ووقف ضرغام في جملة الواقفين للقيام بفروض الصلاة

و بينما ضرغام واقف يصلي وعيناه على المرايا في المحراب يرى الناس يدخلون من الباب وراءه ممن يعرفهم ولا يعرفهم وقع بصره على رجل لم يكد يتثبته حتى اجفل ولم يتمالك ان التفت الى الوراء ليتحقق ظنه فاذا هو مصيب في تخيله . وكان قد رأى بالمرآة صورة سامان خي جهان وناهيك بمراه من مدهش لضرغام . وهو في ذلك اتفلق على

(١) سير الملوك ١٦٢ و E. Herzfeld, Samarra, Tafel 3

جهان . فاحتال في التقهقر رويداً رويداً حتى دنا من الباب ورآه ساسان يتقهقر فسبقه الى صحن المسجد فخرج ضرغام في اثره وهو يتفرس فيه ويكاد ينكره لما رأى في حاله من التغير عما يعلمه . فقد فارقه في فرغانة وعليه لباس اهل الوجاهة من الاقمشة الثمينة بالترتيب والنظافة مما يعوض عن قبح صورته بعض الشيء فرآه تلك الساعة في حالة يرثى لهـا من الضعف ورثاثة الثوب وقد ربط زنده وعصب رأسه ووقف ذليلاً كئيباً فأثر منظره فيه تأثير الاشفاق والخوف لئلا يكون قد اصاب جهان سوء فصاح به « ساسان ! ام انا غلطان ! »

قال « نعم انا ساسان يا سيدي »

قال « ما بالك ماذا جرى لك ؟ اين جهان »

قال « اذا اذنت لي بخلوة قصصت عليك كل شيء فقد تعبت من البحث عنك في سامرّا وانا اسأل فلم يهدني اليك احد فاتيت المسجد لعلي أراك فاعرفك فوفقت الى ذلك »

فاشار اليه ان يمشي في اثره في صحن الجامع وهو يقول « يظهر انك سألت عني باسمي القديم (ضرغام) وانا اليوم لا يعرفني احد بهذا الاسم وانما انا اسمى الصاحب.. قل اين جهان ماذا جرى لكم ما لي أراك رث السربال على هذه الحال » وكانا قد انتهيا من الصحن الى بناء مربع بشكل الكعبة كان المعتصم قد بناه ليحج الناس اليه بدل حجهم الى كعبة مكة واتخذ منى وعرفات[1] حتى لا يبقى له حاجة الى العرب ولا الى بلادهم وقلما افلح بذلك وظل البناء باقيا . فرأى الصاحب ان يدخل اليه للخلوة بساسان اذ لم يبقَ له صبر حتى يصل الى المنزل فدخل الكعبة واشار اليه ان يجلس على دكة هناك وهو يقول « اخبرني حالاً اين جهان وماذا جرى لكم »

فجلس وهو يتنهد ويتمسكن وقال « احمل اليك خبراً لا يسرك »

فاضطرب ضرغام وقال « قل حالاً هل اصاب جهان سوء ! »

قال « لم يصبها سوء ولكن .. » وبلع ريقه

---

(١) المقدسي ١٢٢

قال « ولكن ماذا اين هي ؟ قل »

قال « لا ادري اين هي يا سيدي .. قد خطفها مني اللصوص » قال ذلك وتظاهر بالبكاء

فصاح ضرغام صيحة الاسد وحملق عينيه وقد قفّ شعر شاربيه واصبح منظره مخيفاً وقال « اختطفوها ! من تجاسر على ذلك ؟ »

قال « لا اعلم يا سيدي من هم اولئك اللئام الذين اختطفوها ولكنني استاذنك بالتمهل عليّ حتى اقص عليك الخبر كما وقع »

فصبر ضرغام نفسه وتمالك وقال « قل ولكن اختصر ! »

قال « فارقتنا يا مولاي وظللنا في فرغانة بعد سفرك بضعة ايام ذقنا فيها الامرّين» قال ذلك وارسل بصره الى صحن الجامع وخفض صوته كانه يحاذر ان يسمعه احد فلما تحقق خلو المكان من السامعين قال « ان مصيبتنا اتت من اقرب الناس الينا . اتت من الرجل الذي اوصاه والدي بنا . فالافشين لم يكتف انه حرمني من ارث والدي حتى مد يده الى اختي ... »

فاقشعر بدن ضرغام من ذلك التعبير مع اعتقاده انه يعني تعديه على حصتها من الارث كما تعدى على حصته ولم يخطر له شيء وراء ذلك فلما سمع قوله قال « اظنه طمع بشيء من حقها في الارث »

فتشاغل سامان بحك ذقنه الاجرود وتنحنح وظل ساكتاً فارتاب ضرغام في أمره فقال « اليس كما قلت لك ! »

قال « لو انه اكتفى بالارث لكن خيراً ولكنه طمع فيهـا هي نفسها .. و يسوءني ان اغضبك بهذا الخبر ولكن هو الواقع ويجب عليّ ان اصدقك .. ان الافشين على كهولته طلب الاقتران باختي ولا بد انه عالم بانها مخطوبة للبطل الصاحب وانهـا يستحيل ان تقبل بسواه »

فقال ضرغام وهو يرتعد من التأثر « و بعد ذلك .. ماذا فعل ؟ »

قال « لم يفعل شيئاً لاننا تداركنا الامر بالفرار ففررت انا وجهان في قافلة بمـا خف حمله من المال والمتاع ولم نخبر احداً من اهل القصر الا القهرمانة خيزران اخذناها

معنا وركبنا باسرع ما يمكن نطلب سامرّا قبل ان يعلم الافشين بنا فقطعنا البراري والقفار وقاسينا عذاباً شديداً من الحر والبرد والتعب حتى دخلنا خراسان ودنونا من همذان . وقد فارقتنا القافلة وحسبنا انفسنا صرنا بامان . فاعترضنا قوم على خيولهم نظنهم من قطاع الطرق فدافعنا عن انفسنا دفاعاً حسناً جهد طاقتنا حتى تعطلت يدي وجرح رأسي وكنت اود ان اقتل وتبقى جهان سالمة اكراماً لك ولكن .. »

فصاح به « ولكن ماذا ؟ هل اصابها سوء .. اليست هي حية »

قال « هي حية ياسيدي ولكنهم خطفوها وذهبوا بها وبقهرمانتها .. وآخر كلمة سمعتها منها قولها « سلم على ضرغام واخبره بما جرى »

فتعاظم غضب ضرغام حتى غلى دمه واحمرت عيناه وقال « ومن هم اولئك اللصوص ؟ ألم تعرف احداً منهم ؟ »

قال « كلا لانهم كانوا ملثمين ولم يفوهوا بكلمة ولا سمعنا لهم صوتاً كأنهم فعلوا ذلك عنوةً خوفاً من انكشاف امرهم »

الفصل الرابع والثلاثون

همذان

فاطرق ضرغام مدة كان فيها كالضائع يحسب نفسه في حلم او كانه انتقل الى عالم آخر حتى انتبه لجلبة الناس في اثناء خروجهم من المسجد وتذكر ان الخليفة معهم فخاف ان يراه مختبئاً فيشك في امره فخرج واختلط برجال الدولة واشار الى سامان ان ينتظره فظل واقفاً في مكانه . وبعد قليل انفرج الوقوف وشقوا طريقاً للخليفة ووقفوا للتحية والاحترام فمرَّ بهم المعتصم وهو يتفرس في وجوههم حتى وقع بصره على ضرغام فاشار اليه ان يتبعه فاستعاذ بالله وخاف ان يكون في تلك الدعوة ما يحول دون البحث عن جهان . وتفرق الناس عن الخليفة رويداً رويداً حتى وصل الى القصر ولم يبقَ معه غير ضرغام فدخل واشار اليه ان يلحقه ففعل حتى وصلوا الى غرفة خصوصية فتحول الخليفة نحوه وقال « رأيتك خرجت من المسجد قبل الفراغ من الصلاة »

فخجل ضرغام من هذا الاستفهام وقد فاته ان الخليفة يرى الخارجين والداخلين بواسطة المرايا كما رأى هو سامان ولكن رؤية سامان فجأة انسته نفسه وموقفه . فلما ساله الخليفة عن سبب خروجه لم يرَ بدًّا من الاعتذار فقال « خرجت لمشاهدة رجل لم اكن انتظر رؤيته ويهمني امره وكان ينبغي ان اتم الصلاة حتى اخرج في أثر امير المؤمنين فاعتذر لمولاي واعد توبيخه هذا التفاتاً كبيراً الى صنيعته »

قال « اني كثير الاهتمام بشؤونك لانك صاحبي فارجو ان لا يكون عليك باس مما رأيته او سمعته »

فرأى ضرغام الفرصة مناسبة للاستئذان في الذهاب الى همذان فقال « لا بأس عليَّ ما دمت في ظل مولاي امير المؤمنين ولكن قوماً من اهلي كانوا قادمين من فرغانة الى العراق فاصابهم ما اخر وصولهم فبعثوا يستعينون بي على ذلك فهل يأذن مولاي بذهابي بضعة ايام . ؟ »

فاطرق المعتصم ثم قال « سر ولا تطل الغياب واذا رأيت ان تستعين بجند او بريد افعل »

فانحنى ضرغام شاكراً واستأذن بالانصراف ورجع الى المسجد حيث ترك سامان وقد سرّه اهتمام المعتصم بأمره ولكنه ظل مضطرب الخاطر لما سمعه عن جهان وعن الافشين وكلاهما ثقيل على السمع وعلى القلب ولم يكن الافشين قد وصل الى سامرّا فرأى ضرغام المبادرة الى همذان فامر باعداد افراس البريد ينتقل بها هو وسامان وذهب لوداع والدته وقال لها انه ذاهب في مهمة وقتية يعود منها بعد بضعة ايام فقبلته وودعته . فركب في ذلك المساء وقلبه يكاد يسبقه الى همذان من شدة القلق وكل ما وصل الى محطة من محطات البريد لاجل تبديل الركائب يسأل الناس هل سمعوا بلصوص يقيمون في بعض الاماكن هناك وكان يواصل السير نهاراً وليلاً لا ينام الا قليلاً حتى دنوا من همذان وبجانبها جبل وعر وطريق البريد بجانب ذلك الجبل وفيه محطة لخيل البريد فلما وصل الى هناك سأل سامان « ألا تذكر المكان الذي جرت فيه الواقعة »

قال « وراء هذا الجبل على ما اظن »

وكان وصولهم الى ذلك الجبل نحو الغروب وقد اعدّ له اصحاب البريد منزلاً يبيت فيه ويتناول ما يحتاج اليه من اسباب الراحة ولكنه لم يستطع صبراً الى الغــد . وكان في تلك المحطة غير واحد من السعاة والكوهبانية واصحاب الاخبار التقوا هناك صدفة وكل منهم ســائر في طريق وعلم صاحب تلك المحطة ان الصاحب من خاصة الخليفة وقد جاء للبحث عن شيء هام وانبــأ الاخرين بذلك فاصبحوا يتوقعون امره فسأل صاحب تلك المحطة قائلاً « العلك هنا من زمن طويل »

قال « من بضعة اسابيع ونحن اصحاب البريد ننتقل دائماً فهل يريد مولاي خدمة تقوم بها »

قال « اشكرك ولكنني احب ان اعلم اذا كنت سمعت بلصوص او قطاع طريق يعتصمون في بعض هذه الاودية او الجبال او يمرون من هذه الامكنة »

قال « قلما نسمع بشي من ذلك ولكنني سمعت بالامس ان جماعة من قطاع الطرق معتصمون وراء هذا الجبل ولم يصل خبرهم الى الحكومة بعد على ما اظن »

فلما سمع ضرغام قوله لم يتمالك عن المبادرة الى الامر فقال « ارسل معي رجلاً يهديني الى اولئك اللصوص » ومشى

فاعجب الرجل بشجاعته ومبادرته الى الذهاب وحده فقال « الا ترى يا سيدي ان ترسل احداً للبحث عنهم وتمكث انت هنا ؟ »

قال « كلا يكفي ان ترسل معنا رجلاً يدلنا على الطريق » ومشى وسيفه الى جانبه وقد التف بعباءته والكوفية حول رأسه وتبعه سامان ورجل من نفر تلك المحطــة سار امامهم في شعب وعرة وقد غابت الشمس واخذ الظلام يتكاثف وضرغام مطرق لا يلتفت ولا يتكلم حتى انتهى الى منعطف في ذلك الجبل فوقف الدليل واشار بيده الى نور ضعيف على إكمة امامهم وقال « هذا مقر القوم يا سيدي واخاف ان يستغشونا ويلحقوا بنا اذى »

فقال « لا تخف امكث انت هنا مع سامان ريثما اعود اليكما »

الفصل الخامس والثلاثون

المعتصم والعرب

فاظهر سامان انه يفضل الذهاب في خدمته ولكنه ابقاه هناك ومشى وحده وهو يتعثر بالحصى ويسمع لوقع نعاله قرقعة كأن غضبه اعماه عن الخطر الذي يهدده بالمسير وحده على تلك الصورة ولكنه كان شديد الاعتقاد بقوته كثير الاعتماد على بسالته . حتى اذا صار على مرمى سهم من المنزل رأى اشباحاً تتراوح بينه وبين المصباح وسمع هرير الكلاب فلم يبل . ورآه القوم قادماً وحده فلم يخطر لهم انه عدو لعلمهم ان العدو لا يجسر على القدوم منفرداً فتصدى واحد منهم وصاح « من هذا ؟ »

فقال ضرغام « قادمٌ يبحث عن ضائع .. اين هو كبيركم »

قال « قف عندك حتى نأتيك والا عرضت نفسك للخطر »

فوقف لحظة رأى في اثنائها القوم في حركة وتهامس ثم تقدم واحدٌ منهم و بيده قبس وقد تلثم بكوفية والتف بعباءة فتفرس ضرغام فيه فلم يعرفه ولكنه تحذر منه فجعل يده على قبضة سيفه وهو يتحفز للوثوب او الدفاع ولم يكد صاحب القبس يصل الى ضرغام حتى قال له « اهلا بضرغام ... اهلا بالصاحب »

فلما سمعه يناديه باسمه خفق قلبه واستأنس به واشتبه بصوته ولكنه لم يعرفه فقال « من انت .. »

وكان قد وصل اليه فازاح اللثام وادنى القبس من وجهه وقال « الم تعرفني ؟ »

فتفرس ضرغام فيه ولما عرفه صاح « حماد ؟ ما الذي اتى بك الى هنا »

قال « اتى بي الى هنا ظلم صاحبك .. تفضل » قال ذلك وصفر صفيراً ابطل نباح الكلاب وفرق الرجال الذين كانوا مجتمعين ومشى وهو قابض بيده على يد ضرغام يرشده الى الطريق وضرغام يعجب لما يراه لانه يعرف حماداً من وجوه رجال الدولة في سامرا وقد رآه فيها منذ اسابيع وكان شديد الثقة بصداقته فتبعه مطمئناً حتى وصلا الى بناء قديم حجارته ضخمة وقد تهدم بعض جدرانه . ولو تفرس القادم في ما بقي من

اتقاضه على ضوء القبس رأى عليها نقوشاً وصوراً من آثار الفرس القدماء ولكن ضرغاماً لم ينتبه الى شيء من ذلك . واذا بصاحبه قد اوصله الى غرفة ليس فيها شيء من الاثاث او الريش ولكنه شاهد في ارضها اكياساً من الحبوب وصناديق فيها الانية والمتاع كأنها اخذت من اصحابها التجار في تلك الساعة . فاشار حماد الى ضرغام فجلس على صندوق وجلس هو على صندوق آخر وقال « اظنك تعجب لما تراه . فلا تعجب»

فقال « كيف لا اعجب وقد بلغني عن هذا المكان انه مسكن اللصوص واراك فيه كواحد من اهله »

قال « بل انا زعيم اصحابه . . . ولم اكن لاكاشفك بذلك وادخلك هذا المكان لولا ثقتي بك ولتعلم عاقبة ظلم صاحبك »

قال « اظنك تعني امير المؤمنين »

قال « بل اعني امير الاتراك والفراغنة وذا احرجتني قلت انه امير الكافرين مثل اخيه المأمون »

فتشاغل ضرغام بهذا الامر الغريب عن الغرض الذي جاء من اجله فقال « اني لا أرى مسوغاً لهذه النقمة ولولا ما تعلمه من حبي لك ما صبرت على ما اسمعه منك ولكنني اذكر صداقتك واحب ان تصرح لي بما يكنه ضميرك عساي اذهب ما في نفسك من الغل فترجع الى رضى الخليفة ونحن في حاجة الى رأيك وسيفك واعداؤنا كثيرون فلا ينبغي ان نتفرق »

فاعتدل حماد في مجلسه وبان الاغتمام في وجهه وقال « انا لا الومك على دفاعك عن المعتصم لانه صديق الاتراك والفراغنة وقد عادى اهله وعشيرته من اجلهم » وانت الآن صاحبه ومن اقرب المقربين اليه لا اقول انك لا تستحق ذلك بل أنت اهل لاكثر منه ولكن [illegible] في [illegible] العرب لم تتبل بما يأتيه هذا الرجل من المظالم نحوهم . ولم يكفه انه صادرنا في ديننا وحبس الامام احمد ابن حنبل الرجل التقي البار حتى غلب رشده وسال دمه وتقطع جلده ثم قيده وحبسه[1] واضطهد كل من لم يقل بخلق القرآن [illegible] لم يكفه ذلك [illegible] قطع [illegible] العرب كافة ومنع [illegible]

---

(١) [illegible]

من رواتبهم ولم يفعل ذلك احد قبله — لا اذكرك بما كان للعرب من العز والسؤدد في عهد الراشدين والامويين يوم كان الفرس والترك وسائر الاعاجم يعدون من العبيد او الموالي لا يستنكفون من ان يكون العرب سادتهم بل كانوا يتشرفون بالانتماء اليهم. وانما اذكرك بما كان لهم من التقدم في صدر الدولة العباسية مع انها قامت بسيوف الفرس . حتى المأمون الذي حارب العرب وحاربوه فلما تغلب عليهم لم ينقص شيئاً من اعطياتهم كما فعل المعتصم هذا مع ان المامون كان معتزليا مثله يقول بخلق القرآن و يضطهد الائمة القائلين بقدمه . لعلمه ان العرب مادة الاسلام واصل هذه الدولة وروح هذه الامة . اما صاحبك فقد قطع العطاء عن كل عربي [١] . العطاء الذي يعتاش منه المسلمون . ولم يفعل ذلك عن فقر او جدب فانه ينفق الاموال الطائلة في اصطناع الأتراك والاشروسنة والفراغنة وقد بنى لهم سامرا واحضر لهم النساء والجواري واسال النضار في خزائنهم . لو كنت انت عربيا لما صبرت على ذلك

فلم يرَ ضرغام حجة يدفع بها قول حماد لعلمه انه يقول الصدق ولكن غيرته على المعتصم واخلاصه في خدمته حملاه على انتحال الاعذار فقال « لا انكر عليك ما ذكرته من مواضع النقد على امير المؤمنين ولكنك حملت ذلك منه على سوء القصد فهو قطع العطاء عن بعض العرب بعد ان تحقق عداوتهم للدولة ومنهم من حاربه وجرد الجيش عليه اما الذين يخلصون في خدمته فيبالغ في تقريبهم والانعام عليهم . هذا القاضي احمد ابن ابي دواد لا ازيدك علماً بمنزلته عند الخليفة وهو عربي . وانت ... ألم تكن مقرباً ولك منصب رفيع ؟ »

فهز احمد رأسه وقال « اراك حسن الدفاع عن صديقك الخليفة وقد اتيت بالقاضي احمد شاهداً وهو عربي من بين الوف قد لحقهم الذل والعار والفقر . اما انا فقد كان لي منصب و بئس المنصب لو بقي .. جعلني سادن الكعبة التي انشأها في سامرا ليحوّل المسلمين عن كعبة مكة ويذهب بما بقي للعرب من مصادر الرزق حتى يميت عرب الحجاز انفسهم لانهم يرتزقون من الحجاج كما تعلم فانشأ الكعبة في سامرا ليغني المسلمين عن الحجاز »

فقطع ضرغام كلامه قائلاً « ولكنه ليس هو اول من فعل ذلك من الخلفاء او

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ١٢٩ ج ١

الامراء فقد حاول ذلك الحجاج والمنصور ولم يفلحا [1] »

فقال « وهذا لم يفلح ايضا لان بيت الله في مكة فلا يقدر ان يجعله في سامرا »

الفصل السادس والثلاثون

ياقوتة

فرأى ضرغام ان الحديث قد طال في ما لا يهمه بقدر ما يهمه الامر الذي جاء من أجله فاراد ان يختصر الكلام فقال « ومع ذلك لا اجد في ما ذكرته مسوغاً يجيز لك ارتكاب اللصوصية »

فقال « لا تقل لصوصية . اننا لا نرتكب شيئاً من ذلك على الاطلاق »

فتضاحك ضرغام وهز رأسه استخفافاً بما اعتذر به حماد عما نسبه اليه هذا قائلا « لاتضحك يا صديقي البطل . اننا لا نسرق ولسنا من اللصوص وانما نحن نستولي على حقوقنا بايدينا »

فاستغرب قوله ونظر اليه وتطاول بنظره نحوه كانه يستفهم فقال حماد « ان هذه الاموال التي تجدها ملقاة هنا انما هي حق ورثناه الفقراء وابناء السبيل بامر الله تعالى في كتابه وهي عشور الاموال او اخماس الفيء فهذه كان الخلفاء في صدر الاسلام يأخذونها من اصحاب الاموال والتجار ويفرقونهــا في الفقراء والمساكين وابناء السبيل — يأخذونها زكاة ويفرقونها صدقة او عطاء وقد قطع المعتصم هذه الاعطيات فهل يموت المسلمون جوعا لانهم عرب ؟ . فنحن انما نستولي على حقوق الفقراء بالقوة لان الامام اراد ضياعها . . »

فتعجب ضرغام لقوة تلك الحجة ولكنه اراد قطع الجدل فقال « ما شأننا وذاك فقد علمتُ انك كنت في سامرا من عهد قريب وقد قطع الخليفة عطاءك فما الذي حملك على الخروج ؟

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٦٥ ج ٤

فوقف حماد وتنهد وتغيرت سحنته من الغضب الى الكآبة ونظر الى ضرغام وقال « ان ما حملني على هذا الخروج وأثار فيّ هذه الضغائن امر اصاب مني مقتلاً . اصاب قلبي فاذهب رشدي فانا ناقم على ذلك الرجل الظالم ما دمت حياً » قال ذلك وقد تصبب العرق من جبينه فازداد ضرغام رغبة في كشف خبره وتوسم من عباراته انه يشكو من حبيب فارقه فقال « وما ذاك يا اخي ... قل باختصار فاني اتيتك لامر يهمني كثيراً فشغلتني باموركَ »

قال « مهما يكن من امركَ فلست بالغاً امري . احببت جارية لبعض البغداديين واحبتني فلما اقدمت على الاقتران بها تصدى لي رجل من خاصة المعتصم اسمه الحارث السمرقندي اظنك تعرفه وطلبها لنفسه واخذها مني عنوة فشكوت امري الى الخليفة على يد القاضي احمد الذي ذكرته فاجابني — ابحث عن جارية اخرى وان هذه لا تكون لك — مع علمي انها تحبني حباً شديداً .. » ثم تنهد وقال « آه ياياقوتة »

فقال حماد « كان اسمها ياقوتة ! »

قال « نعم هذا هو اسمها . فهب اني اغضيت عن كل السيئات التي ذكرتها فهل اقدر ان اغضي عن هذه ؟ اني والله ناقم على الخليفة ودولته وما خرجت لاكون لصاً وانما خرجت لانتقم من هذه الدولة بما في امكاني .. واعداؤنا كثيرون »

فتأثر ضرغام من حكاية ياقوتة اكثر من سائر القصص لانه واقع في مثلها — والانسان انما يشارك الناس في المصائب التي اصيب بمثلها او يخشى ان يصاب بها . فالعازب لا يشعر مع الاباء اذا اصيبوا بابنائهم كما يشعر الوالدون . ولا يشارك المحب في شعوره الا الذي جرب الهوى فقال حماد «هوّن عليك ولعلي نافعك في شيء من شكواك وقد آن لي ان اسألك عن الامر الذي جئتُ في هذا الليل من اجله فاعرني سمعك واعلم اني اول من شاركك في احساسك لاني واقع مثل وقعتك »

قال « تفضل »

قال « لي خطيبة كانت في فرغانة وانا في سامرا فركبت اليَّ مع اخيها وجاريتها فلما وصلوا الى همذان هجم عليهم اللصوص واختطفوا الفتاة وجاريتها وجاء اليّ اخوها بالخبر فاسرعت للبحث عن الفاعلين فانبأني صاحب البريد عن هذا المكان فأتيت فما قولك ؟ »

قال « اما نحن هنا فلا نختطف نساءً وقد اخبرتك بما نفعله وانا على يقين انه ليس

في هذا الجوار لصوص اوقاطعو طريق»

قال « ولكن اخا الفتاة شهد الواقعة وهو الذي نجا من المعركة واخبرني »

فهز رأسه هزة الانكار وقال « نحن هنا منذ عدة اسابيع ولم نسمع بحدوث شيء من ذلك واظن الراوي كاذباً »

فانتبه ضرغام لما يعلمه من سوء نية سامان من يوم عرفه فقال « ان الراوي واقف في مدخل هذه الشعب استقدمه اليك لتسأله »

فاشار حماد الى بعض رجاله ان ينادي الرجل الواقف هناك فذهب وعاد وهو يقول انه لم يجد احداً . فذهب ضرغام بنفسه فلم يجد سامان وسأل الدليل عنه فقال مضى الى حيث لا يعلم . فبحث في البحث عنه فلم يقف له على أثر فترجح له ان في الامر سرًّا غامضاً وان الرجل قد يكون كاذباً في ما رواه حتى عن الافشين فقلت ثقته بما رواه عن هذا ولم يرَ بدًّا من الرجوع الى سامرا فاستأنف الكلام مع صديقه ونصح له ان يرجع معه فلم يرض وقال « لا أرى في رجوعي فائدة ولو اقتصر ظلم صاحبك على خسارة المال لاحتملته ولكنه طعنني في قلبي وانت اكثر الناس شعوراً معي فلا تلمني »

فتذكر ضرغام مصيبته وتصور نقمته على خاطف حبيبته فعذره وقال «صدقت اني معك كما ذكرت ولو علمت ان الخليفة الذي صادرني بخطيبتي لنقمت عليه مثل نقمتك واشد منها فافعل ما بدا لك وعلى كل حال ارجو ان تذكرني ولك مني مثل ذلك .. »

واطرق قليلا ثم قال « واذا حدث ما يبعث على مخابرتك اوالمجيء اليك فهل اجدك هنا »

فاجاب «لا اعلم اين يكون مقري بعد الليلة وما قيامي هنا الا الى اجل وانت اذا وفقتَ الى أمر يسرك واردت ان أراك فاين تكون ؟ »

قال « في سامرا »

فشكر له فودعه ضرغام ورجع وهو يفكر في ما سمعه وصورة جهان لا تذهب من مخيلته لانه في المكان الذي قيل له انها اخذت فيه والليل مظلم مثل ظلام الليلة التي خطفت فيها فتصور حالها وهم يقبضون عليها وتوهم انه يسمعها تستغيث به وتناديه باسمه فاقشعرّ بدنه وحرق اسنانه — قضى في تلك الهواجس مدة وهو يتلمس ذلك الطريق الوعر على غير هدى والدليل يسير بين يديه حتى ادرك محطة البريد فركب وعاد الى

سامرا . وطريق البيت في الرجوع اليه اقصر منها في الخروج منه ولكن ضرغاماً استطال الطريق واستبطأ وصوله لشدة رغبته في ملاقاة وردان لعله يستبشره في الامر وقد تعود ذكاءه وصدق فراسته

الفصل السابع والثلاثون

النجدة

اشرف على سامرا نحو الغروب والشمس تقابله وقد ضعف نورها وتبددت اشعتها واحمر لونها وتكور شكلها وتعاظم جرمها فظهرت كأنها كرة من نار سابحة في ضباب من دم . ونظر الى ابنية سامرا واعظمها قصر الخليفة والمسجد الاعظم ومنارته تناطح السحاب . ويخترق المدينة من الشمال الى الجنوب نهر دجلة المدارك وعلى ضفافه اشجار النخيل واقفه وقوف الجند يحملون سهامهم في عمائمهم . فشغله منظر الطبيعة عما في نفسه فاحس بارتياح فوقف هنيهة والبريدي على بغلته الى جانبه لم تدهشه ذلك المنظر لانه تعوده والنفس يختلف تأثرها من مناظر الطبيعة باختلاف حالها . واكثر الناس مشاركة للطبيعة في احوالها المحبون

واحسّ ضرغام بميل الى الانفراد هناك فاشار الى البريدي ان يسبقه الى سامرا فاطاع وبقي ضرغام وحده يراقب الشمس ساعة الغروب وهي تتراءى لعينيه من وراء جذوع النخل عن بعد وتتقلب بالوانها القزحية وان غلب عليها لون الارجوان . حتى اذا ادركت حافتها الافق استطالت تلك الحافة الى شبه خرطوم نزل وراء الافق وهبطت هي في أثره الهوينا وقد اخذت الاظلال تستطيل وتنتشر حتى توارت الشمس وخلفت مكانها افقاً اخذ احمراره في الاكفهرار شيئاً فشيئاً من الدموي الى الارجواني فالبنفسجي فالازرق على اختلاف الوانه وتفاوت اقسامها الى السواد فاستحالت الاظلال الى ظلام . فاحسّ ضرغام بانقباض نبهه الى المسير فهمز فرسه وخرج خبباً فمشى مشياً بطيئاً حتى تخلل مغارس المدينة من طرفها الاسفل وتراءى له دجلة في مكان لا

يغشاه النخيل فيممه على ان يسير على ضفته الى الجوسق

وكان الجو هادئاً فلما دنا من دجلة عاد الى تخيله فاستغرق في هواجسه والفرس يسير على ضفة النهر من تلقاء نفسه . وقد هب النسيم عليلاً وسكنت الطبيعة فلا يسمع في ذلك المساء الا حفيف الورق ووقع حوافر الفرس . ولم يكن ضرغام يسمع شيئاً لاشتغاله بافكاره . واذا بجلبة فاجأته من ورائه وسمع صوتاً وقع وقوع السهم في قلبه واجفله لانه صوت امرأة تستغيث قائلة «خافوا من الله.. اتركوني ... ياناس.. اتركوني .. » ثم اختنق الصوت . فارتعدت فرائص ضرغام لان الصوت كثير الشبه بصوت جهان وتذكر ما اصابها من اللصوص وتصور انها استغاثت بمثل هذا الكلام ولم ينجدها احد فصمم على نجدة هذه المستغيثة لعل الله يوفق جهان الى منجد ينقذها . وما تمهل ريثما يدير رأس جواده الى جهة الصوت فترجل وتحول مسرعاً على قدميه وهو يستل حسامه ويقول « لبيك لبيك .. تركوها ايها اللئام »

قال ذلك وهو لا يرى احداً لشدة الظلام فخاف ان يكون قد خدعته هواجسه وان ما سمعه هاتف يمثل له حال جهان . لكنه ما عتم ان سمع الصوت يقترب منه ورأى شبح امرأة تعدو من ضفة النهر وهي باسطة يديها نحوه وتصيح « بالله اغثني ... اشفق على حياتي ... » ورأى رجلين يجريان في اثرها وقد شهر احدهما السيف وهو يقول « الى اين تهربين يا خائنة .. اني قاتلك لا محالة »

فصاح ضرغام « عنها يارجل لا تعرض بنفسك للقتل »

فلم يبال الرجل بما سمعه وظل مسرعاً حتى كاد يدرك المرأة وكانت قد وصلت الى ضرغام وترامت على قدميه . فلما رآه ضرغام لا يزال هاجما والسيف بيده تناوله بضربة اطارت رأسه فوقع يتخبط بدمه وهجم على رفيقه وهمّ ان يضربه فرآه اعزل فامسك عن ضربه وصاح فيه « من انتم .. »

فقال « مالك ولنا ليس هذا السؤال من شأنك دع الجارية وامض لسبيلك وسترى عاقبة امرك »

قال « قف حيث انت والا قتلتك .. او قل لي من انت وما خبر هذه الفتاة »

قال « انها جارية هربت من بيت مولاها فعشنا للبحث عنها فادركناها هنا وابت

الرجوع فهددها رفيقي تخويفاً لها ولولاك لرجعت صاغرة ولكنها استفرست وسببت قتل رفيقي ... وسوف تعلم مصيرك »

فلما سمعت الجارية قوله وكانت قاعدة على العشب من التعب نهضت وصاحت « كذبتم ايها الغادرون ليس الامر كذلك »

فلما سمع كلامها ازداد شبهة بصوت جهان واختلج قلبه في صدره واستبعد ان تكون هي نفسها اذ لو كانت هي لعرفت صوته فقال للرجل « قل الحقيقة ولا تخوفني باحد والا الحقتك برفيقك »

قال « لا تغترر بما سمعته .. ان هذه الجارية هاربة من بيت الخليفة فمن يجسر على حمايتها »

قال « انا اجسر دعها وسر بطريقك »

فصاح الرجل « من انت حتى تجسر على ذلك ؟ »

فتحول ضرغام عنه وامسك الفتاة بيدها ومشى وهو يقول « قل للخليفة او لسواه ممن يدعي السيادة على هذه الفتاة انها في حماية الصاحب »

فلما سمع الرجل اسمه تراجع وبهت كانك اخرسته بالكهربائية ثم قال « اعذرني يا مولاي على جسارتي اذلم اكن اعلم ان مولانا الصاحب يخاطبني » قال ذلك وتحول راجعاً

الفصل الثامن والثلاثون

يا قوتة

اما ضرغام فترك يد الفتاة ومشى الى فرسه وكان لا يزال واقفاً في مكانه فقاده بلجامه وسار وهو يقول « امشي يا بنية لا تخافي..ولكن اخبريني عن حقيقة امرك فقد سلمت الآن من الخطر »

فقالت وصوتها مختنق « اشكر الله لانه ارسلك لانقاذي ولولاك لذهبت ضحية الظلم »

فاطربه صوتها واحب ان يتفرس في وجهها وقلقه على جهان يوهمه انها قد تكون هي بعينها ولكن الظلام كان يحول دون ذلك فقال لها « قولي ما هو خبرك »

قالت « كنت جارية لبعض الناس واعتقني سيدي لوجه الله فطلبني شاب عرفني وعرفته وتحابينا وتواعدنا على كتابة الكتاب ثم رآني رجل من بطانة امير المؤمنين يقال له الحارث السمرقندي . فتقرب اليَّ وخطبني لنفسه فابيت عليه ذلك »

فلما سمع ضرغام اسم الحارث انتبه لما سمعه من حماد فقال « وما اسم خطيبك؟ »

قالت « حماد »

قال « فانت اذاً ياقوتة ! »

فلما سمعته يناديها باسمها غلبت عليها الدهشة حتى تعلثم لسانها وقالت « كيف عرفت ذلك يا مولاي . هل تعرف حماداً .. اين هو ؟ »

قال عرفته ولكن لا سبيل اليه الآن .. ساقص عليك خبره ... اتمي حديثك »

فلم تعد تعرف لشدة فرحها كيف تتكلم فقالت « فلما أبيت على الحارث ما اراد وسط القاضي احمد لدى امير المؤمنين فطلب الخليفة ان يراني فلما مثلت بين يديه نظر اليَّ طويلاً ثم اودع اذن القاضي كلاماً وامرني ان ابقى عند الحارث بلا زواج حتى ييأس رايه فيَّ . فاخذني الحارث الى منزله وحبسني واخذ يحاول اقناعي ان اقترن به تارة بالحسنى وطوراً بالتهديد حتى جاءني منذ بضعة اسابيع وهو يهزأ بي ويقول ان خطيبي فرّ من سامرا فلم اصدقه وعزمت على الفرار الى حماد فلم اتمكن الا الليلة فركبت دجلة عند الغروب على ان اسرع الى منزل حماد وهو على مقربة من قصر الخليفة فادركني هذان الرجلان وهما من اعوان الحارث وارادا ارجاعي ولما رفضت الرجوع [illegible] لاقاذي .. جزاك الله عني خيراً »

[illegible] اكراماً لصديقه ولكنه تذكر ان حماداً برح [illegible] فظل ساكتاً وهو يفكر في ذلك وصورة [illegible] من ينقذها يا ترى كما انقذت [illegible] ياقوتة ماشية الى جانبه وقلبها يخفق [illegible] صاحب ما يعلمه على حبيبها فلما استبطأته قالت

« وعدتني يا مولاي ان تخبرني عن حماد . العله خرج من سامرا ؟ »

قال « نعم خرج منها كما قال لك الحارث »

قالت « واين هو ؟ »

قال لا ادري . . وقد لقيته منذ بضعة ايام في مكان خارج العراق واخبرني انه مسافر الى حيث لا يعلم وقد قص عليّ غضبه من الحارث والخليفة من اجلك . . كوني على ثقة انه شديد المحافظة على ودك »

فلطمت خدها بكفها وقالت « ويلاه اين أذهب وأين ابيت وكيف اعرف مقره ؟ . . »

فقال « لاباس عليك انك تمكثين في منزلي مع والدتي حتى يأتي الله بالفرج فاني على موعد من حماد ان يكتب اليّ عند الحاجة لانه صديقي »

فقالت « جزاك الله خيراً يا سيدي ولكن .. »

قال « لا تخافي يا أخية انك تكونين مع والدتي في خير وامان لا يمسك احد بسوء . ان والدتي وحيدة في البيت ولا ريب انها تتخذك ابنة لها وتستأنس بك كثيراً »

وانتبهت ياقوتة في تلك اللحظة انها على مقربة من الجوسق فوقفت وقالت « اراني بجانب قصر الخليفة ! »

قال « اني في قصر داخل هذا الجوسق »

فتراجعت وقالت « اكون اذاً في خطر اذا عرف الخليفة بامري »

قال « كوني مطمئنة . انك في مأمن عندي » وكانا قد وصلا الى باب الجوسق فلما رأى الحراس ضرغاماً وسعوا له وتقدم احدهم فاخذ الفرس الى الاسطبل وسار ضرغام مع ياقوتة حتى اتى منزله فلما رآه الخدم اسرع بعضهم الى والدته فبشروها واناروا الشموع فدخل والفتاة في اثره حتى توسط الدار واول شيء فعله انه تفرس في الفتاة على نور الشمع وحالما وقع بصره عليها خفق قلبه وبدت البغتة في وجهه لشدة المشابهة بينها وبين جهان فقال في نفسه « سبحان الخالق ما هذه الصدفة . » واحس بارتياح الى الفتاة وأعجبه ما رآه في محياها من الهيبة والجمال رغم ما كان يغشاه من الاضطراب . ويكفي لارتياحه اليها مشابهتها حبيبته بالوجه والصوت وزاده استئناساً بها ما قاساه

في سبيل انقاذها — والمرء من فطرته يحب الذين يشقى في سبيل راحتهم ولذلك كان الرجل اكثر انعطافاً بين اولاده على اشدهم حاجة اليه . وكلما تعب الوالد في سبيل ابنه ازداد تعلقاً به . ولو لم يكن قلب ضرغام مشتغلاً بجهان لتعلق بياقوتة اذا لم تكن لصديقه حماد

الفصل التاسع والثلاثون

آفتاب

اما آفتاب فكانت قد تهيأت لاستقبال ابنها فلما سمعت وقع خطواته اسرعت اليه وضمته وقبلته وتنشقت ريحه . ثم شعرت بحركة في الدار فقالت «من هو رفيقك »

قال « هل هي رفيقة لك »

فظنت لاول وهلة انه جاءها بجهان فتوجهت ببصرها نحو الحركة التي كانت تسمعها كأنها تستقبل الضيفة وصاحت « هل هي جهان ؟ »

فوقع قولها وقعاً شديداً على قلب ضرغام ففتح جرحه فتنهد وقال « كلا يا اماه ولكنها عزيزة علي لانها خطيبة احد اصدقائي

ودنت الفتاة من آفتاب وهمت بتقبيل يدها فضمتها ورحبت بها وقالت «ما اسمك يا حبيبتي »

قالت « اسمي ياقوتة يا سيدتي »

فلما سمعت صوتها دهشت وبان الاستغراب حول مبسمها وفي اختلاج عينيها البيضاوين وقالت « سبحان الله كأني اعرف هذا الصوت ... »

فقطع ضرغام كلامها قائلاً « [illegible] بين صوت جهان فانه كثير الشبه به وقد لحظت ذلك منذ سمعتها تتكلم مرة لاول »

فسكتت آفتاب ولم تجب ولكنها اخذت بيدها واجلستها وجعلت تضمها وترحب بها والتفتت الى ضرغام وقالت « كيف [illegible] ياقوتة .. واين كانت »

قال « [illegible] واما عائلتها فمن المهمة التي اخبرتك عنها اني [illegible] باعمال المدينة

فسمعت هذه الشاة تستغيث من رجلين كانا يحاولان اخذها الى رجل يريد ان يتزوجها رغم ارادتها فانقذتها منهما وجئت بها »

قالت « ومن هو ذلك الرجل »

قال « يقال له الحارث السمرقندي من اعوان امير المؤمنين »

قالت « ولماذا لم تقبل وهو ذو جاه ومال »

قال « لانها احبت رجلاً آخر اسمه حماد العربي الا تعرفينه ؟ »

قالت « اظنني سمعت صوته مرة وقد جاء معك . اين هو الآن ؟ »

قال « هو غائب وستبقى ياقوتة هنا حتى يعود . هل يسرك ذلك ؟ »

قالت « يسرني كثيراً لانها تكون تسليتي اذا خرجت انت في مهمة . والحق يقال اني شعرت من هذه اللحظة كاني اعرفها منذ اعوام . اهلاً وسهلاً بك يا حبيبتي »

وامرت مسعودة فاخذتها لتبدل ثيابها وتصلح من شأنها ثم وضعوا المائدة للعشاء فقال ضرغام لوالدته وهم على المائدة « الم يأت وردان ؟ »

قالت « جاء منذ بضعة ايام وسألني عنك فلم اقدر ان اخبره عن مكانك »

قال « هل اخبرك عن مجيء الافشين ؟ »

قالت « اخبرني انه جاء وعسكر خارج سامرا على ان ينتقل بعد بضعة ايام الينا واظن وردان عاد اليه او لعله يريد الذهاب اليه غداً او بعد غد »

قال « حسناً » ولم يطيلوا السهرة التماساً للراحة . فباتوا تلك الليلة واصبح ضرغام في اليوم التالي وقد عادت اليه هواجسه واصبح شديد الميل لملاقاة وردان ليسأله عما سمعه من اصحاب الافشين عن جهان . وفي اصيل ذلك اليوم جاءه رسول الخليفة يطلب حضوره فلبس سواده وقلنسوته وذهب اليه في دار العامة فاستأذن ودخل فوجد القاضي احمد فسلم ووقف فاستدناه اليه وامره بالجلوس فجلس فقال وهو يبتسم في وجهه « متى عدت من السفر »

قال « اتيت مساء البارحة يا مولاي وكنت عازماً على المثول بين يدي امير المؤمنين ولو لم يأتني رسوله »

قال « من لقيت في طريقك ؟ »

فانتبه انه يشير الى ياقوتة لعلمه ان الحارث لا بـد من ان يشكوه فقال « لقيت فتاة بين يدي رجلين يعذبانها »

قال « هل انقذتها ؟ فقد تعودت النجدة بارك الله عليك »

فعلم ان الخليفة يشير الى فضله عليه في انقاذه من مخالب الاسد فخجل لاطرائه وتجاهل وقال « لم اتمالك يا امير المؤمنين عن انقاذها ثم علمت انهـا تنتمي الى بعض رجال الدولة فحملت تبعة عملي طمعاً بحلم امير المؤمنين وهو ذنب استغفر عنه »

فضحك المعتصم وقال « قد اصطدت صيداً حلالاً انت اولى الناس باحرازه .. كيف رأيت هذه الفتاة .. هل هي جميلة ؟ »

قال « لا باس بها يا مولاي »

قال « قد وجب عليك اقرارك »

فلم يفهم ضرغام قصده فابتدره القاضي احمد قائلاً « اتذكر أن امير المؤمنين خطب لك جارية »

قال « نعم »

قال « هذه هي الفتاة بعينها »

فاستغرب ضرغام ذلك الاتفاق وتحير في الجواب فقال القاضي « ان امير المؤمنين رأى هذه الفتاة للمرة الاولى منذ اسابيع وجاء بها الحارث يخطبها لنفسه وكان رجل آخر يدعي انها له وكنت حاضراً فقال لي امير المؤمنين انها تصلح للصاحب وامر الحارث ان يحتفظ بها حتى يطلبها . وفي هذا الصباح جاء الحارث يشكوك لانك اختطفت ياقوتة منه فاجابه « انها للصاحب ولا سبيل لك اليهـا » فخرج مفحماً ولذلك قال مولانا انك اصطدت صيداً حلالاً ووجب اقرارك عليك »

فلما يسع ضرغاماً غير الدعاء للمعتصم على التفاته وقال « ان امير المؤمنين يتصرف بعبيده ومواليه كما يشاء »

فقال المعتصم « احرزت اجمل نساء سامرا بارك الله لك فيها »

ثم صفق فجاء الحاجب اليه فأشار اليه اشارة فهمها وخرج ثم عاد ومعه غلام يحمل طبقاً عليه عقد من الجوهر يتلألأ كالشمس فاشار الخليفة الى الغلام ان يقدمه الى

الصاحب فقدمه فبهر ضرغام من لمعان ذلك العقد ووقف احتراماً فابتدره المعتصم قائلا « هذا عقد تلبسه ياقوتة وتتحلى به »

فانحنى ضرغام احتراماً وامتناناً وقال « قد غمرني امير المؤمنين بانعامه »

قال « انك اهل لاكثر من ذلك »

فتناول ضرغام العقد ولفه بمديله وكرر الدعاء . ثم استأذن بالانصراف وخرج

الفصل الاربعون

وردان وسامان

عاد ضرغام الى منزله والخواطر تتقاذفه ولم يزده امر الزواج بياقوتة قلقاً هذه المرة لانه عوّل على استبقائها في بيته حتى يجد خطيبها فيعطيه اياها فلا يدري الخليفة هل تزوجها ام لا . فوصل المنزل ولقي والدته فسألته وياقوتة حاضرة عن سبب ذهابه الى الخليفة فقال « دعاني لامر يتعلق بياقوتة »

فاجفلت ياقوتة لانها كانت تخاف وشاية الحارث لكنها اطمأنت لما رأته يقول ذلك وهو يبتسم ونظرت اليه باستعطاف . اما والدته فسألته عما جرى فقال « شكانا السمرقندي الى امير المؤمنين فارجعه خائباً واوصاني بياقوتة خيراً »

فانشرح صدر الفتاة وازدادت اعجاباً بضرغام وسمو منزلته عند الخليفة ونفوذ كلمته في الدولة واعجبت بهيبته وجلال طلعته . والاعجاب اذا رافقته الالفة والعادة تحول الى غرام ولكن ياقوتة كانت مشتغلة القلب بعماد ورأت ضرغاماً فوق ما ترجوه لنفسها . ولما سمعت قوله عن الخليفة توردت وجنتاها حياء ولم يمنعها الحياء من الكلام لانها كانت عاقلة رابطة الجاش فقالت « اشكر لمولاي الصاحب فضله فقد انقذني من العار والموت ورفع منزلتي اذ جعلني تحت حمايته »

فمد ضرغام يده الى جيبه واخرج العقد وقدمه اليها وقال « هذا هدية من امير المؤمنين لك »

فاصبحت ياقوتة لا تدري كيف تعبر عن احساسها فناولت العقد ودفعته الى آفتاب فقبضت عليه وتلمست حباته وقالت « يظهر انه عقد جدير بك » وتقدمت نحوها والبستها اياه

كل ذلك لم يشغل ضرغاماً عن قلقه واضطرابه وكل ما اصابه في مساء الامس وصباح ذلك اليوم يذكره بحبيبته وخصوصاً العقد لما لبسته ياقوتة فقال في نفسه « ماذا لا تكون جهان هنا وتلبسه » فلما تصور ذلك اقشعر بدنه وترك الغرفة بحيلة وخرج ليسأل الخدم عن وردان هل جاء فاذا هو داخل وفي وجهه بغتة . ولما رأى ضرغاماً حياه باحترام فقال ضرغام « قد طال غيابك فما الذي اعاقك .. تعال الى خلوة نتحادث فيها »

فسار في اثره الى غرفة من غرف القصر جلسا فيها وقال وردان . قد اعاقني تاخير الافشين عن الحضور لانه لم يصل الى سامرا الا منذ بضعة ايام ولم اتمكن من اتمام مهمتي الا اليوم »

فقال « وما الذي عرفته عن جهان »

فتوقف وردان لحظة ثم قال « عرفت من صديق لي في حاشية الافشين لا يخفاه من احواله خافية ان جهان خرجت من فرغانة قبل خروجهم منها .. »

قال ضرغام « قد عرفت ذلك في اثناء غيابك من سامان اخيها »

فتغير وجه وردان عند سماع اسم سامان وقال « سامان هنا ! اين هو .. اين هو .. ؟ لاقبضنّ روحه .. لعنه الله من منافق »

فاستغرب ضرغام شدة لهجته وقال « ولماذا تريد قتله . ما الذي فعله ؟ .. »

قال « ساقص عليك فعله وانما ارجو ان تخبرني عما قصه هو عليك »

قال « اخبرني انه خرج من فرغانة مع اخته فراراً من الافشين فلقيهم اللصوص في همذان فاسروا جهان وقهرمانتها وجاء هو ليخبرنا »

قال « انك عارف بعمل اللصوص اذاً .. بقي عليّ ان اخبرك عما فعله هذا اللعين اليوم . سرت امس لاتمم مهمتي في البحث كما امرتني فلم استطع الا صباح اليوم فلقيت صاحبي فقص عليّ الخبر . وبينا هو يكلمني لمحت سامان ماراً على فرسه يطلب عرض البر ولم اتحققه فسألت صاحبي اذا كان هو قد رآه فقال انه هو بعينه وانه جاء البارحة

في اواخر الليل وطاب مقالة لافشين فقال له وقص ليه حبر اختطاف جهان ولكنه ... الذنب في ذلك لك واساء القول فيك ولم اعلم ذلك الا بعد ان غاب عن بصري ولم يبقَ سبيل اليه ولولا فراره لقبضت على عنقه وقتلته خنقاً قبحه الله من اجرود لئيم »

وكان ضرغام قد ادرك قبل ذلك الحين نفاق سامان وسوء نيته فاصبح لا يصدق شيئاً من اقواله ولكنه لم يرَ بدًّا من تصديق قوله عن اختطاف اللصوص جهان فقال « قد عرفت نفاق هذا الذئاب من قبل .. ولكن هل تظنه كاذباً في ما رواه عن اختطاف جهان ؟ يا حبذا ذلك »

قال « ربما كذب في كيفية الاختطاف ولكن يظهر انها اخذت بلا شك وما علينا الا ان نبحث عن الذين اخذوها »

قال ضرغام « وما العمل »

قال « نرسل الجواسيس نبثهم في المشرق كله من هنا الى فرغانة فمن سمع خبرًا او تنسم شيئاً يرشدنا الى الفاعلين »

قال « قد رأيت الصواب فافعل ذلك بحكمتك واسرع فيه »

فقال « سمعاً وطاعة وخرج »

ولما خلا ضرغام بنفسه عاد الى التفكير في الافشين وما سمعه من سامان عن طمعه بجهان وارتاب في صدق الرواية ولكنه رأى ان يفاتحه بالامر ليزول سوء التفاهم من بينهما واجل ذلك فلم تتم له فرصة

وجاءت الاخبار في اثناء ذلك بقيام بابك واستفحال امره فاصدر الخليفة اوامره الى الافشين بالسفر مع جنده الى اردبيل ولم تتسنَّ لضرغام مقابلته

الفصل الحادي والاربعون

فراق فرغانة

والسبب في ضياع جهان انها لما عزمت على الفرار من فرغانة مع اخيها وقهرمانتها كما تقدم اعدت كل ما تحتاج اليه مما خف وزنه وغلا ثمنه وعولت على اخيها في تدبير قافلة يسيرون في ظلها تجنباً لخطر البوادي التي لا بد من قطعها قبل الوصول الى العراق. فاخبرها سامان يوماً انه هيأ كل شيء فاخذوا في نقل الاحمال بحجة الرغبة في السفر الى مصيف قريب . ولما آن ذهابها وعلمت انها لن تعود الى ذلك البلد سائر حياتها عظم عليها فراق مسقط رأسها وهجر قصر ابيها وقد تعودت هواءه وماءه واظلاله والفت اهله ومنازله واسواقه فقضت ايامها الاخيرة وهي منقبضة الصدر وقد ذهبت بشاشتها واخوها يهون عليها الخروج وقهرمانتها ترى في خروجها شططاً . واما هي فمع كل ذلك لم تتردد في الامر لحظة واحدة رغم ما احست به من الوحشة

وفي الليلة التي قضوها على اهبة الرحيل استدعت قيم الدار اليها واوصته بالقصر واهله خيراً واسرَّت اليه انها ربما طال غيابها فليكن اميناً نشيطاً . فاسف لسفرها وان لم يعرف حقيقة غرضها ولو علم لبكى بكاءً مرًّا على فراقها لانه كان يحترمها الى العبادة وكذلك كان احساس كل من عرفها او عاشرها لما فطرت عليه من اللطف والذكاء والهيبة والجمال كما علمت . وفي الصباح التالي خرجت على فرسها الادهم كانها ذاهبة الى متنزه او مصيف وركب معها اخوها وقهرمانتها ولم تمالك عند خروجها من باب المدينة ان التفتت ودمعت عيناها اسفاً على ما خلفته هناك من ثمار شبابها وجني والدها لكنها تماسكت واسترجعت رشدها وعزت نفسها بما ستلقاه من اسباب السعادة بقرب حبيبها

وكانت القافلة التي سافروا معها قادمة من بلاد الهند باحمال المطريات والبهارات والانسجة قاصدة خراسان فضموا احمالهم الى احمالها وقد اعتمدت جهان في ذلك على اخيها . ولبست ثياب السفر واقلعت القافلة في مساء ذلك اليوم وهي مؤلفة من قطارين

مسلسلين من الجمال والبغال على بعضها الاحمال وعلى البعض الآخر الرجال. غير المشاة من المكارين والسياس على اقدامهم ومعهم الكلاب وادوات الطبخ والنوم وكل شيء . فالقافلة كالبلد يمشي باهله ودوابه واثاثه . تمشي ساعات من النهار وساعات من الليل تختلف مقاديرها باختلاف الفصول وحسب اوجه القمر يحدق بها خفر من الرجال تعودوا الاسفار والاخطار اشداء الابدان يعرفون الطرق ولهم صداقة وهيبة عند قبائل التركمان بدو الترك وهم متفرقون في البادية بين نهر جيحون ونهر الشاش والمسافة بين النهرين تعدّ بالاسابيع وقد تتجاوز الشهرين ناهيك بما في اثنائها من اللصوص وقطاع الطرق . ولذلك لايجسر على السفر هناك غير القوافل الكبيرة . والقافلة تنتظم في اثناء المسير نظام الجند للحرب وفي ساعات الراحة تضرب الخيام وتوقد النيران وتذبح الاغنام او الابقار وتنصب القدر على النار و يشتغل القوم بالاكل والنوم .

ولم تكن جهان جربت هذا السفر ولا ذاقت مثله ولا سمعت به في حياتها فكم يكون ذلك ثقيلاً عليها فكانت تحمله بالصبر وتعزي نفسها بلقاء الحبيب فاذا تصورت ذلك اللقاء هان عليها احتمال كل المشاق — كل ذلك من معجزات الحب وان امره لعجيب .

لو اردنا تفصيل ما لاقوه في سفرهم الطويل من حرّ النهار و برد الليل وخوف قطاع السابلة واهل الغزو وما اصابهم من عطش او جوع لفراغ مؤونتهم من الماء او الطعام قبل بلوغ المكان الذين يتزودون منه لضاق بنا المقام فنقول بالاختصار ان القافلة لما بلغت الى الري اشار سامان على اخته بالتخلي عنها والمسير على انفراد لان القافلة تسير متثاقلة وهي في كل حال لا ترافقهم الى العراق لان طريقها نحو الشمال . فاذعنت جهان لرأي اخيها وانفردوا باحمالهم ودوابهم عن القافلة . وفي مساء ذلك اليوم باغتهم جماعة من الرجال على الخيول في مكان بعيد عن همذان وكانت جهان على فرسها فدافعت عن نفسها دفاع الرجال واظهر سامان دفاعاً كثيراً ولكنهم غلبوا اخيراً فقبضوا على جهان وقهرمانتها وشدوا وثاقهما وتركوا سامان بحجة ايصال الخبر الى ضرغام

فلما رأت جهان نفسها في الاسر صاحت بكبير القوم وهم جميعاً ملثمون وقالت له « ما الذي حملكم على هذا العمل . . ؟ اذا كنتم تطلبون المال فهذه احمالنا خذوها

واطلقوا سراحنا ونعاهدكم اننا لا نطالبكم بشيء منها »

فاجابها الفارس وهي اول مرة سمعت كلامه قال « لسنا لصوصاً يا سيدتي ولا حاجة بنا الى المال وانما أمرنا ان نحمل عروس فرغانة الى اعظم رجل في الارض لم ترضَ به طوعاً فعساها ان ترض به كرهاً ... »

الفصل الثاني والاربعون

في الاسر

فلما سمعت قوله انتبهت لنفسها وعلمت انها مكيدة نصبت لها وكانت تفضل ان يكون القوم لصوصاً يطلبون المال ولا تكون هي المطلوبة . ليس لانها تخاف ان تغلب على امرها فانها كانت من رباطة الجاش وثبات الجنان على ما علمت . ولكن شق عليها فراق حبيبها فارادت ان تزداد يأساً فقالت « ولكن هذا العمل يا صاح لا يشبه اعمال العظماء »

قال « وماذا يعمل الرجل اذا اضطر ولم ير وسيلة لنيل مرامه غير هذه ... ؟ ماذا يعمل اذا تعرض للخطبة فارتد خائباً وهو كبير القدر تأبى نفسه الخيبة »

قالت « يترك الطلب ويستغني عن الخطبة »

قال « واذا كان مفتوناً قد غلب على امره »

قالت « دعنا من ذلك فاني لا اراكم الا لصوصاً تطلبون المال فهذه الاموال لديكم واتكفل لكم باضعافها اذا اطلقتم سراحنا »

قال « اما نحن فاذا اعطيتنا المال شكرناكِ كثيراً وان كنا لا نقدر ان نطلق سراحك . ولكن لا ينبغي لك ان تحزني ياسيدتي على شيء اضعته بهذا الانتقال فانك ذاهبة الى اعظم رجل في العالم واذا احسنت معاملته كنت مالكة الرقاب »

فاشكل عليها فهم حقيقة مايعنيه فقالت « لم افهم مرادك ولا من هو ذلك الرجل

الذي تعنيه »

قال « ستعلمين كل شيء بعد بضعة ايام . . . كوني مطمئنة انك ستسيرين معنا معززة مكرمة ومتى وصلنا المكان المقصود كنت في ارغد عيش واسعد حال »

قضت عدة ايام مع قهرمانتها واولئك الوفد على اتم ما يرام من الاعزاز والاكرام وكانوا قد حلوا وثاقهما في صباح اليوم التالي وقاموا بخدمتهما احسن قيام من الطعام والشراب والمبيت

وقد اتيح لجهان الفرار لو اطاعتها نفسها عليه ولكنها اكبرته وخافت مغبته — وكبير النفس لا يطاوعه وجدانه على الفرار حتى من الموت

مرت في اثناء هذه الرحلة بمدن وقرى وجبال واودية وسهول وحزون ورأت اقواماً من امم شتى فعلمت من بعض القرائن انها مرت باذربيجان وجاءها ذلك الزعيم ذات يوم واخبرها انها صارت في ارمينيا وانها لا تلبث ان تدخل اردبيل . فعلمت حينئذ انهم سائرون بها الى بابك الخرمي فتذكرت انه كان قد طلبها من ابيها ولم تقبل به فتحققت انها محمولة اليه فاخذت تتأهب لمدافعته وعلمت انها مكيدة من اخيها فندمت على الركون اليه

وقد اصاب ظنها بسامان لانه طبع على اللؤم وزاده غضب والده نقمة عليه وعلى اخته وكان طلاباً للعلى ولم يستطع ذلك بعلو الهمة والبسالة كما يطلبه كبار الرجال فالتمسه بالحيلة والخداع — وليس اشأم على الامة من ان يعجز رجال المطامع فيها عن نيل العلى باعمال توافق مصلحتها فيلتمسونها بتضحية تلك المصلحة في سبيل مطامعهم

فانتظم سامان في سلك الخرمية وهي جمعية سرية قامت على مقاومة اصحاب السيادة وزعيمهم في ذلك العصر بابك الخرمي صاحب اردبيل. وكان الخرمية يسعون في تأييد سلطته سرًا وكان شديد البطش يبالغ في اقتناء النساء لا يسمع بامرأة جميلة الا سعى في احضارها اليه فاذا لم يستطع ذلك بالجاه طلبها بالمال فاذا اعجزه احضارها بالمال حملها بالقوة . فشاع خبره في الافاق وسمع بجهان فبعث يخطبها على يد سامان فلم يرض ابوها فدس الى سامان انه اذا اتاه بها رفع قدره وقلده منصباً عالياً واكرمه بالمال. ولم يكن سامان قادراً على شيء في حياة ابيه فلما توفي ابوه وقد حرمه من الارث ازداد رغبة في

الانتقام ولقي الاصبهبذ نائب بابك في فرغانة ايام النوروز في بعض جلسات الخرمية التي كان يحضرها سرًّا فيغيب عن البيت اياماً وابوه لا يعلم سبب غيابه وانما كان يقضي تلك الايام في المداولة والمواطأة فتواطأ مع الاصبهبذ على ان يحتال في حمل جهان الى اردبيل وهو لا يبالي بعواطف المحبين لدناءة طبعه وهو اجرود لم يجرب شمائر الرجال . وعزم على ذلك خصوصاً بعد مقابلته للافشين واطلاعه على وصية والده فاصبح همه الانتقام من الافشين فوجد في اجابة طلب الاصبهبذ نيل ما يتمناه من الثروة والنفوذ والانتقام من عدوه فاتفق مع الاصبهبذ على ان يهيئ رجالاً يكمنون في الطريق بين الري وهمذان ليقبضوا على جهان في اثناء سفرها الى العراق ليظهر للملا انهم اخذوها منه قهراً . وبعد ان اخذوها لم يكن غرضه من الذهاب الى العراق الا القاء الفتنة بين ضرغام والافشين وهو يعلم بسالة ضرغام وتفانيه في سبيل جهان فان علم انها اخذت بسبب الافشين لا يصبر عن قتله . وكان سامان قليل الدهاء فلم يحسن سبك حيلته فلم يطل اختفاؤها على ضرغام فرجع سامان من العراق وهو يعتقد انه اتم مهمته وفاز بمرامه

الفصل الثالث والاربعون

اردبيل

اما جهان فلما علمت انها على مقربة من اردبيل قصبة ارمينيا في ذلك الحين اخذت تتهيأ لدفع ما يهددها هناك . وكانت تسمع ببابك وتعرف انفاسه وتهتكه وتعلم انه مقيم في اردبيل . وما عتم الركب ان وصلوا الى غيضة اشبة كثيرة الادغال والاشجار اذا دهم اهل اردبيل امر لجأوا اليها فتمنعهم وتعصمهم ممن يريد اذاهم فهي معقلهم ومنها يقطعون الخشب الذي يصنعون منه الصواني والقصاع[1] واستغرقت جهان في هواجسها وهي تنظر الى تلك الغيضة وتفكر في كيف تخاطب بابك وتدفع اذاه وتذكرت ضرغاماً فقالت في نفسها هل بلغه ما نابني وما الذي بعده ؟

---

[1] ياقوت ج ١

وهي في ذلك رأت الركب يتحولون عن الطريق المؤدي الى اردبيل ويدخلون تلك الغيضة . واتاها رجل منهم اوما اليها ان تحول شكيمة جوادها الادهم نحو الغيضة ففعلت وهي لا تعرف السبب . وساروا في طريق وعر يخترقون الاشجار المشتبكة وجهان تلتفت يميناً وشمالاً لعلها تعرف سبب ذلك الفرار واذا برئيس الركب جاءها وزاملها بجواده وخاطبها باحترام قائلاً « اراكِ تستغربين تحولنا الى هذا الطريق . . او لعلك تخافين ... »

قالت « اني لا اخاف شيئاً . . . ولكنني استغربت دخولكم هذا الطريق الوعر بعد ان كنا على مقربة من اردبيل »

فاكبر الرئيس جسارتها وكبر نفسها وقال « اظنك لم تشاهدي الراية المنصوبة على مقربة من الطريق »

قالت « كلا واين هي ! »

فاوما اليها ان تنظر وهو يصعدبها الى اكمةهناك فلماصعداقال لها « ألا ترين هذه الراية ؟ »

فلما وقع نظرها عليها خفق قلبها لانها راية الافشين فقالت « انها راية المسلمين »

قال « نعم وقد جاءنا احد الكوهبانية (وهم اصحاب الاخبار عند الفرس القدماء يشبهون قلم المخابرات في هذه الايام) واخبرنا ان مولانا قد غادر اردبيل واحتلها المسلمون بعده »

قالت « اظنك تعني بابك ... والى ابن ذهب ؟ »

قال « اخبرنا الكوهبانية انه اوغل في ارمينيا وتحصن في بلد منيع يقال له البذّ عند نهر أرس ونحن ذاهبون اليه »

وآنست من الرجل لطفاً واكراماً كثيراً فطمعت في ان يطلق سراحها بعد ان شغل القوم بالحروب فقالت « فانتم ذاهبون بنا الى البذ ؟ »

قال « نعم يا سيدتي وهي على بضعة ايام من هنا »

قالت « ولا بدّ من ذهابي معكم ؟ »

فادرك الرجل انها تعرض باطلاق سراحها فقال « لا بدّ من ذلك لان امر مولانا قضاء لا سبيل الى تبديله وزد على ذلك اننا لو تركناك كنت في خطر شديد ان لم يكن من اللصوص فمن الوحوش »

وكانت خيزران على فرس وراء فرس جهان فالتفتت جهان اليها فابتدرتها خيزران قائلة « وما الذي تخافينه عند بابك ومثلك لا تخف موقفاً »

فازدادت جهان نشاطاً بهذا التشجيع وعلمت ان خيزران لم تقل ذلك الا وهي لا تجد سبيلاً للنجاة وعادوا الى المسير صعداً وجهان تلتفت الى ما حولها تتامل وحشة ذلك المكان وسعة تلك الغيضة فوقع بصرها على مدينة اردبيل عن بعد ورأت ساحتها الكبرى غاصة بالجند والرايات الاسلامية وهي تعلم طبعاً ان الافشين نفسه ليس هناك لانها تركته في فرغانة وان المقيمين في اردبيل فرقة من جنده

وكان الوقت ظهراً وصدرت الاوامر الى الركب ان يستحثوا خيولهم للخروج من الغيضة قبل دخول الليل خوفاً من المبيت فيها

خرجوا من الغيضة ثم واصلوا السير فمروا باشق وختش و برزند وغيرها ورأت جهان رايات المسلمين على اسوار تلك المدن . واما الجند فكان معظمه في اردبيل وليست هذه المدن الا محطات لاختزان المؤونة اللازمة له في اثناء انتقاله لمحاربة بابك. فكانت كلما تقدمت احست ببرودة الطقس حتى اسرفوا بعد بضعة ايام على البذ وهو اشبه بالمعقل او القلعة منه بالمدينة لانه مؤلف من عدة قصور كالقلاع يحيط بها كلها سور هائل عليه الابراج والابواب فوقها اعلام الخرمية . والارض على اجمالها في تلك الجهات جبلية وعرة يصعب سلوك الجند فيها باثقاله واحماله . فعلمت ان بابك التجأ الى ذلك المعقل لمناعته حتى يكاد يستحيل على المسلمين اخذه

وسبق واحد من الركب الى البذ يستأذن في الدخول و يسال عن المكان الذي ينزلون جهان فيه ثم عاد واشار بالدخول من باب غير الذي كانوا عازمين على الدخول منه. ولما صارت جهان داخل السور شعرت كأنها في قفص فاستوحشت واحست خيزران بوحشتها فساقت فرسها الى جانبها وسألت كبير القوم عن المكان الذي هم سائرون اليه فقال « ان مولانا في شغل خارج البذ وقد امر ان نأخذ عروسه الجميلة الى قصر النساء هذا تمكث فيه مكرمة معززة حتى يأتي »

فاجفلت جهان عند سماعها قوله « عروسه » ولكنها تجلدت وظلت ساكتة حتى اقبلوا على القصر وله سور خاص ورحبة وحديقة كأنه حصن قائم بنفسه ووقف لهم

الحرس ووسعوا . فدخلت جهان وقهرمانتها على فرسيهما من الباب الكبير حتى اذا دنت من الباب الصغير المؤدي الى المساكن ترجلت وترجلت خيزران معها واسرع بعض الخدم لتناول الفرسين وقد ادهشهم ما رأوه في تلك القادمة من الجمال والهيبة لانها لا تغطي وجهها . ولم يقع نظرها على نظر احدهم الا شعر بقوة لم يعهدها بسواها مع ان ذلك القصر يحوي مئات من اجمل النساء لان بابك كان مولعاً بانتقاء الجميلات كما علمت

الفصل الرابع والاربعون

هيلانة

ثم اسرع رئيس الركب اليها ووقف باحترام وقال « ارجو ان تكون سيدتي قد اغضت عن جسارتي في حملها على غير ما تريد متى علمت اني محمول على ذلك بامر سيدنا ومولانا ولكنني بذلت جهدي في راحتها وحفظ كرامتها فهل تذكرني لدى الامير اذا سنحت لها فرصة لانها ستكون الآمرة الناهية .. »

فقالت « ما اسمك»

فقال « بهزاد يا سيدتي »

قالت« الى اين انا ذاهبة الآن ؟ »

قال « الى قهرمانة القصر وهي تقوم بما تحتاجين اليه من اسباب الراحة . . »

وكانت خيزران واقفة تسمع ما دار بينهما فقالت للرجل « ألا نعرف من اهل هذا القصر أحداً معرفة خصوصية » ارادت ان تستعين برأيه في واحدة تثق بها

فقال « اعرف اكثرهن وهن من امم شتى ولكنني اظن مولاتنا تستأنس بالسيدة هيلانة على الخصوص فانها من بيت الامراء وقد عرفت بيت زوجها بارمينيا قبل ان امر مولانا بابك باستقدامها . وكنت في جملة من حملها اليه وتسامرنا في اثناء الطريق فرأيتها عاقلة لطيفة واظن مولاتنا تسرُّ بمعاشرتها .. والآن استأذن بالانصراف فقد اقبلت القهرمانة .. وانا اسمي بهزاد يا سيدتي . ! » وانصرف

ظلت جهان واقفة بجلال وهدوء وقوف الملكة بباب قصرها حتى وصلت القهرمانة

اليها وهي عجوز طويلة القامة تدل ملامحها على ما كانت عليه من الجمال في شبابها وقد لبست ثوباً يتلألأ بالوشي والتطريز حول جيدها العقود وفي يديها الاساور وفي اذنيها الاقراط

فوقع نظرها على جهان بما في وجهها من آثار السفر الطويل وقد توردت وجنتاها كأن النار لفحتهما ورأت في عينيها معاني لم تعهد مثلها في واحدة من مئات النساء اللواتي هن تحت ادارتها ولا مثل ذلك الجمال الجاذب . واستغربت على الخصوص رباطة جأشها لعلمها انها اخذت رغم ارادتها وكانت تعلم بعلو منزلتها وكيف طلبها بابك من ابيها فلم ترض به وكانت تتوقع ان تراها منكسرة الخاطر باكية نادبة فلما رأتها رابطة الجأش عادئة ظنتها راضية بما قسم لها . ولما دنت منها رحبت بها وضمتها وهي تقول « مرحبا بعروس فرغانة . . يشق عليَّ ان تحملي الينا قسراً وارجو ان تكوني قد غيرت رأيك »

فلم تجبها جهان على سؤالها ولكنها ابتسمت ومشت معها في دهليز القصر وهي مطرقة ولو تلفتت لرأت نساء القصر يتسابقن ويتزاحمن للنظر الى ضرتهن . ولما شاهدن جمالها وهيبتها حسدنها لانها سيكون لها المقام الاول عند بابك . اما هي فما زالت سائرة لا تبالي حتى ادخلتها القهرمانة الى حجرة مفروشة بالطنافس فرشاً حسناً وقالت لها « هذه غرفتك يا حبيبتي استريحي فيها »

قالت « واين ثيابي ؟ . . فقد اخذوها في جملة الاحمال »

قالت « ستكون عندك بعد قليل » وخرجت وارسلت اليها صناديقها

ولما خلت جهان بخيزران في تلك الغرفة ايقنت انها وقعت في الفخ فانقبضت نفسها ولم تمالك عن البكاء وهي تتجلد وخيزران واقفة بجانبها تمسك نفسها مراعاة لها فلما رأت دموعها تنحدر على خديها انفطر قلبها وترامت على قدميها وهي تقبل طرف ثوبها وتقول « آه يا سيدتي ما الذي اصابنا . . كيف جئنا وكيف اخذنا ؟ واين نحن . . اين ضرغام الآن . » وما زالت في الانتحاب وجهان تبكي ولا تتكلم . وشعرت خيزران انه [illegible] بين يدي سيدتها [illegible] وقالت « ولكني واثقة بعقلك وقوة جنانك وانتِ اي رغبة امرتك بكل ما تريدين »

قالت « لا احتاج الى شيء الآن .. سمعت بهزاد يثني على امرأة من نساء هذا القصر اسمها هيلانة فلعلها تؤنسنا اذا عرفناها ... هل لك ان تبحثي عنها وتأتيني بها ؟ وقبل ذهابك اخرجي لي ثيابي »

.فاعدت لها ما تحتاج اليه ومضت وكانت الشمس قد أذنت بالزوال واخذ الخدم في انارة القصر بالشموع فبدلت جهان ثيابها واستلقت للاستراحة والتفتت الى ما حولها فلما تصورت نفسها في تلك الغرفه و بينها و بين فرغانة بضعة اشهر وكذلك بينها و بين سامرا فكرت في ضرغام وهل يعلم ما اصابها وتذكرت اخاها سامان وقالت في نفسها اين هو يا ترى هل قتل في المعركة ام فرّ الى مكان آخر. وعولت على ان تتخذ وسيلة لايصال الخبر الى ضرغام ليعلم مكانها لعله يستطيع انقاذها بالسيف او بغيره . وهي تفكر في ذلك قرع الباب ودخلت خيزران وهي تقول « قد جئتك بالسيدة هيلانة يا مولاتي »

فجلست جهان وهمت بالوقوف لملاقاتها فاسرعت هيلانة واجلستها وجاست الى جانبها وهي تهش لها وترحب بها كأنها تعرفها من عدة اعوام . واستأنست جهان بها استئناساً كثيراً وأحست كانها في قصر ابيها بفرغانة بين اهلها لانها آنست في وجه تلك المرأة لطفاً ومودة واخلاصاً فضلاً عن الجمـال . وكانت هيلانة شقراء الشعر زرقاء العينين بيضاء البشرة لا يبارح الابتسام فمها فابتسمت جهان لها ورحبت بها وشكرت تلطفهـا فقالت هيلانة وهي تضحك ضحك تشجيع وايناس لاضحاك خفة او طيش « مرحباً بعروس فرغانة فقد طالما سمعت بجمالك وتعقلك وقد مضى علينا مدة ونحن في انتظار مجيئـك »

فقالت « ما زلت احسبني ذاهبـة الى الجحيم حتى رأيتك فخفت المصيبة عني ولكن ... » وغصت بريقها وتشاغلت باصلاح عقدها

فاحست هيلانة عند سماع صوتها بلذة وشعرت بجـاذب نحوها وكانها تذكرت مصيبتها هي فانقبضت نفسها وقالت « هكـذا اراد المولى يا حبيبتي ... ولو قست مصيبتك بمصيبة سواك لهان عليك امرك . لو عرفت كيف فعلوا بي لرأيت انك مرحومة »

فتوسمت جهان من اسلوب كلامها انها تحب ان تقص حديثها فرأت من التأدب ان تسألها عنه فقالت « فكيف كان ذلك ؟ »

فتنهدت هيلانة وغلب عليها الجد وقالت « لا بد انك عرفت من وجهي وضعف لغتي الفارسية اني غير فارسية ولا انا تركية ولا ارمنية وان كنت اخذت من ارمينيا ولكنني يونانية الاصل ربيت في بيت والدي في عمورية ولما كبرت خطبني بطريق من بطاركة ارمينيا وتزوجني وحملني الى بلده ... ولم اكد اقيم معه عاماً او عامين حتى بلغ هذا الخرمي خبري (وخفضت صوتها) فبعث يطلبني من زوجي ولما سمع اباءهُ بعث قوة من رجاله اغتنموا غياب زوجي وحملوني اليه بالقوة وحبسني هنا منذ بضعة اعوام ولا اعرف اين زوجي ولا الذي فعله بعدي . واما هو فيعرف مقري طبعاً ولكنه لا يجد سبيلاً اليَّ هذا اذا كان لا يزال حيًا » قالت ذلك وشرقت بريقها ثم مسحت دموعها سريعاً وابتسمت وقالت « لم يكن غرضي ان اكدرك بهذا الحديث ولكنني اردت ان اخفف مصابك »

اما جهان فاعظمت مصاب هيلانة وهمت ان تقص عليها حديثها فارجعها الحياء فتشاغلت بالتنهد واحبت تغيير الحديث فقالت « اين هو بابك هذا . وكيف تعيشون هنـا ؟ »

قالت « ان الرجل يقيم في قصر غير هذا اقرب الى اسوار هـذا البلد لملاحظة الاستحكامات وينقل من شاء من نساء هذا القصر اليه لتقيم عنده يوماً او بضعة ايام على ما يتراءى له . »

قالت « بلغني انه اليوم في شاغل عن القصر واهله »

قالت « نعم انه يتأهب لحرب شديدة »

قالت « مع من ؟ »

قالت « جاءه اصحاب الاخبار بالامس وكان قد ارسلهم ليتجسسوا احوال المسلمين في العراق فاخبروه ان المسلمين يتأهبون لارسال نجدة عظيمة يقودها الافشين صاحب أشروسنة بنفسه »

فلما سمعت اسم الافشـين ارتعدت فرائصها وتذكرت انه علة كل مصائبها ولو

فانتبهت هيلانة لرأت أثر ذلك التغيير في عينيها ولكنها لم تكن تعرف عن جهان الا انها بنت مرزبان فرغانة طلبها بابك ولم ترضَ به فاستجلبها قسراً . فقالت جهان «وهل جاء الافشين نفسه »

قالت « لا ادري اذا كان قد وصل ولكنه آت من غير بدّ . ولذلك فان بابك خرج من البذ في جماعة من رجاله ليقيم له الكمناء وينصب الارصاد في اثنـاء الطريق وربما لا يعود الينا الا بعد بضعة ايام »

فسرها هذا التأجيل وانتبهت لمـا ذكرته عن الجواسيس الذي عادوا من العراق فقالت « هل تعرفين احداً من الجواسيس الذين ذكرت رجوعهم من العراق ؟ »

قالت « كلا .. ولكن خادمتي تعرف واحداً منهم .»

وكانت خيزران قد ذهبت وعادت بالعشاء الى سيدتها ووقفت تسمع الحديث فلما سمعت قول هيلانة ان خادمتها تعرف احد الجواسيس ابتدرتها قائلة « اي خادمة يا سيدتي ؟ »

قالت «التي قابلتك الآن ودلتك عليّ»

قالت « عرفتها .. بالحقيقة انها لطيفة .. كانها اقتبست اللطف من سيدتها »

فقالت هيلانة وهي تضحك « ولذلك فان ذلك الجاسوس وقع في هواها ولا يزال يحمل اليها الهدايا يريد ان يتزوجها ولا تسأله عن شيء الا فعله »

فسري عن جهان عند سماع ذلك ونظرت الى خيزران فرأتها تنظر اليها ففهمت مرادها فقالت خيزران « أريد ان اقترح عليها خدمة تكلف خطيبها بها في طريقه الى العراق هل تساعدينني على ذلك ؟ »

قالت « حبًا وكرامة . . اعدّي ما تريدين ارساله ومتى عاد بمهمته الى العراق كلفناه به »

فتهلل وجه خيزران فرحاً لعلمها انها تستطيع ايصال خبر سيدتها الى ضرغام . ثم وضعت المائدة فتناولوا العشاء معاً وتذكرت هيلانة ان جهان في حاجة الى الراحة من تعب السفر فاستأذنت في الذهاب على ان تعود في الصباح فتأخذها الى غرفتها

الفصل الخامس والاربعون

سامان

وباتت جهان تلك الليلة والهواجس تتقاذفها . وقد شغل خاطرها على الخصوص بامر الجاسوس وارادت ان تكتب الى ضرغام كتاباً ولكنها خافت ان يقع الكتاب عمداً او سهواً في يد احد فتكون العاقبة وخيمة . فصممت اخيراً على ان تبعث الرسالة شفاهاً . فلما نهضت في الصباح اخبرت خيزران بما عزمت عليه فاستحسنت تحفظها وقالت « يكفي ان نبعث الى سيدي ضرغام كلمة بان جهان في البذ عند بابك فقط »

قالت « هذا الذي اراه فاخبري صاحبتك بذلك »

فقالت «الا تذهبين لزيارة هيلانة . ومتى صرنا هناك اقابل الخادمة وافهمها اللازم

قالت « حسناً .» واخذت في اصلاح شأنها وهمت بالخروج واذا باحد الخصيان دخل يقول « اين السيدة جهان ؟ »

فلما سمعت جهان اسمها اجفلت وظنت بابك آتياً او انه بعث يطلبها وما عتم ان وصل الخصي الى الغرفة فلاقته خيزران وسالته عما يريد فقال « ان اخاها يريد مقابلتها »

وسمعت جهان ذكر اخيها فتنازعها الفرح والغضب ـ فرحت لعلها تسمع منه خبراً عن ضرغام وغضبت لاعتقادها انه خدعها فقالت لخيزران « ادخليه »

و بعد قليل دخل سامان وعيناه تذرفان الدموع وقد احمرتا من كثرة البكاء ولما اقبل عليها ترامى بين يديها وهو يبكي فشغلها بذلك عن تعنيفه ولم تفهم سبب بكائه فابتدرته قائلة « ما بالك — ما الذي يبكيك ؟ »

قال وصوته مختنق من البكاء « لا ادري .. »

قالت « كيف لا تدري .. قل .. قل حالاً »

فلم يجبها ولكنه سكت وجعل يمسح دموعه بكمه وهو مطرق فقالت له « من اين اتيت ؟ »

قال « من سامرّا »

فقالت « وكيف ضرغام ؟ هل لقيته »

فلما ذكرت ضرغاماً عاد الى البكاء فاختلج قلبها في صدرها ووقفت فجأة وصاحت فيه « قل .. ما بالك ؟ . كيف ضرغام .. اين هو ؟ »

فتراجع وامسك يدها كانه يستمهلها ريثما يسكن روعه ثم قال « لا اعلم اين هو »

قالت « قلت انك كنت في سامرا »

قال « نعم كنت فيها . ولكنه ليس هناك »

صاحت « ضرغام ! ليس بسامرا ؟ »

قال « ليس هناك يا اختي .. ليس هناك . وقد سألت الناس كافة فلم اسمع له خبراً »

فقالت وقد اخذتها الدهشة « و بعدئذٍ .. كيف .. ماذا ؟ . قل .. »

قال « ماذا اقول .. ان ضرغاماً ليس في سامرا .. ولم يره احد رجع اليها بعد ذهابه الى فرغانة »

فلما سمعت قوله غلى الدم في عروقها وكاد الغضب يغلب على رشدها لكنها تجلدت وامسكت نفسها فتقدمت خيزران واخذته بيده نحوها وقالت « قل لي صريحاً ما الذي سمعته »

فقال « وهو يخفض صوته يحاذر ان تسمعه اخته وهي واقفة تسمع « لما سطا علينا اللصوص كما تعلمين وتحققت انهم قضوا على حبيبتي جهان وعليك رأيت من اوجب واجباتي أن ابلغ ذلك الى البطل ضرغام فاسرعت الى سامرا وقصدت البيت الذي اعرف انه يقيم فيه فوجدته خالياً خاوياً وسألت كثيرين عنه فلم اقف له على خبر .. واخبرني احدهم .. » قال ذلك و بلع ريقه وسكت مطرقاً فلما وقف هناك اصغت له جهان وتطاولت بعنقها واشارت اليه خيزران ان يقول ماذا اخبره احدهم فقال « اخبرني ان عدونا الاكبر الذي هو سبب مصائبنا جميعاً بعث اليه جماعة من رجاله كمنوا له في بعض المنحنيات وغدروه » ولما وصل الى هنا بكى

فلما سمعت جهان قوله ورأته يبكي امسكت نفسها حتى كف عن البكاء ثم تفرست في وجهه تفرس ناقدٍ وهو مطرق لا يستطيع النظر اليها كان اشعة نارية تنبعث من عينيها فتبهر بصره — والمنافق من طبيعته لا يستطيع تثبيت بصره في عيني احد ولا سيما

اذا كان في غضون نفاقه ـــ فالخبر الذي سمعتهٔ عن ضرغام بدلاً من ان يقيمها و يقعدها حتى يخرجها عن الصواب كما يتوقع الناس من امثالها في مثل موقفها لم يزد على انه نبه تعقلها و بعثها على التأمل واعمال الفكرة فتذكرت كذب اخيها غير مرة ولم يدلها قلبها على سوء اصاب حبيبها فقالت « هل تقول الحق يا سامان ؟ »

قال « و يلاه و كيف اذن .. هل اختلق الاخبار من عندي ؟ ان الذي رأيته وسمعته قصصته عليكِ واتمنى من صميم فؤادي ان يكون الخبر كاذباً »

فاطرقت هنيهة ثم قالت «من الذي انبأك اني هنا ومن ادخلك القصر بهذه الحالة »

فلما سمع سؤالها ارتج عليه ولم يكن مستعدًّا للجواب لان معرفته مكانها تدل على علاقة بينه و بين اللصوص فهو عند ذلك شريكهم . فتوقف حيناً فما امهلته ان يهيئ الجواب وقالت « لا اطلب منك جواباً و يكفي ما قد فهمته ولنا وقت آخر نتعاتب به . اذهب الآن الى اصحابك الخرمية لعلهم يكافئونك على صنيعك معهم .. اذهب » قالت ذلك وخرجت من الغرفة وكانت قد تهيأت للذهاب الى هيلانة فتحول سامان وهو يهز رأسه و يتظاهر بتعجبه من تعصب اخته ضده ولماذا لا تصدقه

فلما خلت خيزران بجهان قالت « ارى يا سيدتي ان لا نستخفي بما ذكره سامان بل نبعث في تحقيق ذلك »

قالت « لا ريب عندي بنفاقه ومع ذلك كلفي الجاسوس بما ذكرناه قولي له يذهب الى سامرا و يسأل عن ضرغام رئيس حرس الخليفة ومتى لقيه يخلو به و يخبره اني هنا فقط »

فاطاعتها ولما وصلتا الى غرفة هيلانة رحبت بهما وجلست السيدتان للحديث ووقفت الخادمتان لحديثهما واتمت خيزران مهمتها

الفصل السادس والاربعون

بابك

مضت ايام وجهان تنتظر رجوع بابك من سفرته حتى ترى ما يتم لها معه وكانت تسمع بشدته وفظاظته . ففي ذات صباح وهي في غرفتها اتتها القهرمانة وهي كما لا يخفى رئيسة القصر والمسئدة في سكانه . وما من امرأة او خادم او خصي الا وهو يلتمس رضاها ويخف لخدمتها لانها الوسيلة الوحيدة بينهم وبين بابك . الا جهان فانها لم تكن تستطيع التكلف باظهار غير ما تضمره فكانت اذا لقيت القهرمانة لاطفتهـا مع حفظ كرامتها فلم تكن تطريها او تتملقها والقهرمانة لا تستنكف من ذلك لان جهان وقعت من نفسها موقعاً عظيماً واجلت قدرها منذ شاهدتها فكانت تميزها بالمعاملة وتلاطفها في الحديث — ففي ذات اليوم جاءت القهرمانة ووجهها يتهلل بشراً وبعد ان حيتها قالت « ابشري يا عروسنا ان العريس قد جاء »

فاجفلت جهان من هذا التعبير ولم تجب فحملت القهرمانة منها ذلك محمل الحيـاء فقالت « جئتك من قبل مولانا بابك فانه رجع من سفره ولما علم بمجيئك سرَّ سروراً كثيراً وامرني ان ادعوك اليه »

فاجابتها جهان بهدوء وسكينة « الى اين ؟ »

قالت « الى قصره »

قالت « اليس هذا القصر له ايضاً ؟ »

قالت « بلى ولكنه تعود ان تنتقل نساؤه اليه للاقامة معه هناك »

فهزت جهان رأسها هزَّة الانكار والاباء وقالت «لا» ولم تزد

فاستغربت القهرمانة جوابها بهذه الصراحة وهي في ذلك الاسر بين مخالب الاسد وظنتها تنكر الخروج حياء فقالت « ان بين هذا القصر وقصر بابك دهليزاً مسقوفاً تسير فيه المرأة مكشوفة كأنها في غرفتها ولا يراها احد .. تفضلي . قومي »

فظلت جهان جالسة لا تبدي حراكاً غير اشارة الانكار فغضبت القهرمانة لهذا

الاستخفاف وقالت بصوت عال « انصح لك يا بنية ان تنهضي معي ولا تستخفي بهذا الرجل فانه فتاك لا يبالي اذا غضب ماذا يعمل من قتل اوفتك » ثم خفضت صوتها ودنت منها ووضعت يدها على كتفها بتعجب وقالت «وانا شديدة الحرص عليك لاني احببتك منذ رأيتك .. قومي يا حبيبتي قومي » فرفعت جهان بصرها اليها وقالت « اشكرك لهذا الاحساس ولكنني لست ذاهبة من هذه الغرفة . . »

فنفرت القهرمانة من ذلك الجواب وتحولت نحو الباب وخرجت وكانت خيزران واقفة تسمع ما دار بينهما وساءها ما ابدته سيدتها من الانفة والشدة وهمت بلومها بعد خروج القهرمانة فسبقتها جهان قائلة « لا تقولي شيئاً يا اماه فاني لا ابالي بما يكون من هذا الجلف العاتي . . . يريد ان اخطو اليه بارادتي . . ما انا فاعلة . وما قدّر يكون . لا يغرنك انفرادي واسري فاني اشعر بمثل قوتي وسلطاني وانا في قصر والدي وبين اهلي واعواني . ذريه يفعل ما يشاء فان عروس فرغانة وخطيبة ضرغام لا تذل نفسها لانسان . » ولما ذكرت ضرغاماً غصت بريقها فسكتت ونشاغات بالنهوض وكانت قد لبست ثوبها والتفت فوقه بمطرف من الخز وتخمرت بشال مزركش التماساً للدفء لانها في اقليم بارد . فوقفت ومشت في ارض الغرفة وهي مطرقة تفكر في ماذا عسى ان يفعل بابك اذا بلغه اباءها وعزمت على الدفاع والثبات لآخر نسمة من حياتها

وهي تفكر في ذلك وخيزران واقفة لا تبدي حراكاً سمعت سعالاً جهورياً لم تعهد مثله في ذلك القصر فعلمت انه سعال بابك وآنست في القصر حركة وجلبة لان اهله لم يتعودوا دخول بابك عليهم وسمعت جهان صوت القهرمانة تخاطب بابك ونظرت لجهة الصوت من نافذة صغيرة تطل على الرواق فرأت بابك قادماً والخدم الى كل من الجانبين يخرون سجداً والنساء يحنين رءوسهن احتراماً والجميع يحيونه كما يحيون معبوداتهم واكثرهم من المجوس وهو يمشي مشية المختال الفخور

فلما وقع نظرها عليه ارتعدت فرائصها لاول وهلة ولم تستغرب ما شاهدته من سجود الناس فقد تعودت مثل ذلك لوالدها في قصره لكنها ابت ان تكن هي ايضاً في جملة الساجدين . بل شعرت بميل الى المغالاة في الترفع شأن الانسان اذا كان في رفعة واصيب بما يحط من منزلته بعض الشيء كالفقر او الذل فانه يصبح اكثر ميلاً الى

المحافظة على مقامه وربما كان متواضعاً قبل نزوله فيصبح بعده مترفعاً متكبراً

وكان بابك ضخم الجثة عظيم الهامة كبير الوجه جاحظ العينين ضخم الشفتين كبير الكفين بارز الصدر اذا مشى ترنح في مشيته ترنح الخيلاء والكبرياء .. وتعود ان تصدر في موقفه او مجالسه حتى لو اراد الانثناء لتناول شيء وقع منه لم تطاوعه اعضاؤه . ولا غرابة بذلك في من لا يفتح عينيه الا على المسبحين باسمه المستهلكين في ارضائه اذا امر اطاعوا واذا نهى رجعوا . وهو رئيس الخرَّمية في جمعيتهم وقائدهم في حروبهم . وكان شجاعاً شديد البطش قوي العضل ابي النفس . ولولا انغماسه في الملذات والشهوات لكان مثال الرجال العظماء ولا يبلغ الرجل هذا المبلغ من السلطان والجاه ما لم يكن على شيء من الفضائل والمواهب . ولكنه ادمن الخمر فكان يشرب منها مقداراً كبيراً ولا سيما في ايام السلم اذا قعد للتمتع بملاذه . وكان في ذلك اليوم قد اعدّ مائدة الشراب في قصره و بعث في طلب جهان وجلس في اثناء انتظارها يشرب ولما جاءته القهرمانة بخبر رفضها كانت الخمر قد عملت في راسه فاعظم انكار جهان السعي اليه فغضب وجاء ليعاقبها بنفسه

فلما دنا من غرفتها تقدمته القهرمانة وفتحت الباب وقالت « هي هنا يا مولاي » ورجعت واشارت الى خيزران ان تخرج معها فخرجت وتباعدت وهي تراعي سيدتها باذنيها

الفصل السابع والاربعون

الانفة

وكانت جهان لا تزال واقفة فلما رأته داخلاً قعدت فاستغرب استخفافها ولكنه ما وقع بصره عليهـا ورأى تلك الهيبة وذلك الجمال الرائع وما يتجلى في عينيها من الذكاء وما ترسلانه من الاشعة الكهربائية حتى دهش . ومع كثرة من رأى من جميلات النساء

الفارسيات والكرجيات والشركسيات والروميات و بعضهن اجمل من جهان تكويناً واصفى لوناً لكنه لم تقع عينه على فتاة فيها ما في جهان من البصر الجاذب فخف غضبه لكنه لم يألف الرجوع عن رأيه وانما تعود ان يسترضيه الناس سواء كان محقاً في غضبه او محقوقاً . فلم يتمالك عند ما رأى استخفاف جهان به ان قال « وتقعدين ايضاً وانا واقف ؟ »

وكانت هي مع تجلدها ورباطة جأشها تنتفض من شدة التأثر لاول وهلة فتشاغلت باصلاح شعرها لا تبالي بما يبدو من وجهها او عنقها ولما سمعته يخطبها رفعت بصرها اليه وتفرست في عينيه وهو ينظر في عينيها فاحس بسهم اصاب منه مقتلاً وكأن الغضب تسرب من صدره حتى خرج من اطراف انامله وسري عنه . اما هي فاجابته « هل ينفعك قيامي ان لم تمتلك فؤادي ؟ »

فتوسم من جوابها فرجاً فقعد على وسادة بجانبها وقال « ارجو ان يكون لي نصيب من ذلك الفؤاد .. اذ لا اظن احداً اجدر به مني وانت تعلمين من هو بابك صاحب الحول والطول زعيم الخرمية قاهر جنود المسلمين .. ويسوؤني اني حملتك اليَّ قهراً ولكني لم افعل ذلك الا بعد ان فشلت من نيلك بالحسنى . فكيف رايتني ؟ »

فلما سمعت تلطفه وتقربه قالت « رايتك بطلاً باسلاً وتزعم انك ملك قاهر وما انت الا اسير »

فاجفل وقال « اسير ! ماذا تقولين ؟ »

قالت « نعم انك اسير ... اسير شهواتك . فمن كان ملكاً عظيماً قاهراً لا يليق به ان يكون عبداً لشهواته . . اني اشمّ رائحة الخمر من هنا »

قال « يظهر انك تزعمين كما يزعم اولئك اليهود الذين يسمون انفسهم مسلمين فيحرمون الخمر وهل في ملذات العالم اشهى منها بل هي ام الملذات لانها تستنهض القوى وتستحث مطالب الجسد فتزيد في ما تشتهيه النفوس من الطعام والشراب وغيره فاذا قطعته فقد اضعت اطيب اسباب الحياة »

فتزحزحت من مجلسها واشارت بفمها اشارة الاستخفاف والاستغراب وقالت « تقول انك صاحب السلطان وقاهر المسلمين وتزعم ان ملذات الحياة الطعام والشراب

وغيرها من مطالب الحيوان . . ؟ وعندي ان مطالب الرجل ان يكون سيداً جليلاً نافذ الكلمة يهابه البعيد ويحبه القريب »

فقطع كلامها قائلاً « الست كذلك ؟ »

قالت « كلاّ . . . ربما خافك البعيد ولكن القريب لا يحبك . . والذين حولك يسبحون باسمك ويعظمونك انما هم يتملقونك فاذا غبت قالوا فيك كل قول قبيح ولا لوم عليهم فانك لم تفعل ما يحببك اليهم »

فملّ بابك البحث في موضوع احسّ انه مغلوب فيه ورأى من الجهة الاخرى انه بالغ في التنازل لتلك الفتاة واكبر ان تكون منه بمنزلة الواعظ او المرشد فقال « ما لنا ولهذا الجدال الآن ؟ هيا بنا يا جهان » ووقف وهو يمد يده ليمسك يدها ويعينها في النهوض فجذبت يدها منه وظلت قاعدة

فمد يده ثانية لتمسكها فوقفت ويدها وراء ظهرها وهي تقول « قف عندك يا بابك انك بهذا العمل تؤيد قولاً انت تنكره على الناس .. لا تدن مني »

فقال « ومن يدنو منك اذن غيري ؟ انت عروسي وقد بعثت في استقدامك من اقصى بلاد الترك لاجعلك سعيدة فلا تجعليني شقياً ؟ »

قالت « من كانت مطالبه حيوانية وكان ذا سلطان نافذ لا يشقى لان يده تطول ما يريد ان لم يكن بالمال فبالسيف فكيف نشقى لاني لم اسلمك يدي وفي قصورك مئات من النساء الجميلات فاحسب اني غير موجودة واتركني وشأني »

قال وكلاهما واقف « لو لم اكن اتوقع السعادة بقربك او لو كان في من بقي عندي غنى عنك ما تكبدت المشقة في استقدامك ولم اكن لانال ذلك لولا حبيبنا سامان . »

فتحققت من ذلك ان اخاها هو الذي اسلمها فتحولت نقمتها اليه واصبحت لا تدري ممن تنتقم ولا كيف تنتقم فتجاهلت ما فهمته عن سامان وقالت « تكبدت كل ذلك من اجلي لتجعلني مثل نساء قصرك ؟ »

قال « بل ابالغ في اكرامك واهدي اليك الجواهر والبسك احسن الملابس واختصك بالتقريب والمجالسة واجعلك سيدة هذه المدينة ولا امنعك شيئاً تطلبينه »

قالت « تلبسني الجواهر ؟ ما الجواهر عندي الا حجارة لامعة لا ترفع نفساً ولا تعلي مقاماً وهـذا صندوقي مملوء من الجوهر والدر وقـد تركت قصري وعقاري في فرغانة . ولو بقيت هناك لكنت ملكة من الملكات ولكن رأيت هذه الاموال من اسباب شقائي فتركتها ... »

فقطع كلامها قائلاً « بلغني ان اباك المرزبان اقام عليك وصياً الافشين صاحب اشروسنة ... ما لنا ولكل ذلك تعالي تناول الطعام معاً » ودنا منها فتراجعت فغضب وعمد الى تهديدها فنظر اليهـا شزراً وقال « اذا كنتِ لا تاتين طوعاً اخذتك كرهاً وانت تعلمين اني اذا قلت فعلت . فقد كنتِ في فرغانة واتيت بك الى ارمينيا . فهل يشقّ عليّ ان انقلك من قصر الى قصر بينهما مئة خطوة ؟ »

قالت « اظنك تحسبني الآن وانا على مرأى منك اقرب اليك من يوم كنت في فرغانة . اعلم انني لا ازال بعيدة عنك كاني في فرغانة او ابعد منها »

قال « تقولين ذلك وانت بين يدي ولو شئت لقضيت عليك بيد من حديد او امرت رجالي فيحملونك اليّ موثقة ؟ . . ولكنني لا ازال ارجو رجوعك الى رشدك »

فنظرت في عينيه نظرت حادة ملؤها التوبيخ والترفع وقالت « قد تقبض على عنقي وربما استعنت برجالك فاوثقتني او قتلتني . ولكنك تنال كل ذلك قبل ان تستطيع لمسة او نظرة مما كنت ترجوه مني .. اقتل . اذا جبنت عن قتلي فانا لا اجبن عن قتل نفسي فلا تحتقرني او تهددني . فاعلم انك تخاطب فتاة اكبر منك نفساً وار بط جأشاً واقوى جناناً واذا كنت تحسبها كسائر من في قصرك من اللقيطات او المسبيات او الرقيقات فقد اخطأت . انك تخاطب ابنة مرزبان فرغانة ... قادتها التقادير اليك فاغتنم صداقتها ودع غير ذلك . او فامض في سبيلك وأرحني وارح نفسك »

وكانت تقول ذلك بلهجة صاحب السيادة والسطوة و بابك يشعر انه يكاد يغلب على امره بين يديها كأن لها عليه سلطاناً وكلما ارسلت اليه نظرة حلّت من عزائمه عقدة فقال « والآن .. ما الذي تريدينه »

قالت « اريد ان تتركني وشاني »

قال « اتركك اياماً تفكرين في امرك املك ترجعين الى صوابك وتعلمين انك اذا

اطعتني نلت السعادة » قال ذلك وتحوّل حتى خرج من الغرفة وقد تغير وجهه وكانت القهرمانة وخيزران واقفتين تسمعان شيئاً من الحديث وكلتاهما معجبة ببسالة جهان وانفتها وبعد ان كانت القهرمانة ضدها اصبحت معها ولم تتظاهر بذلك لكنها صارت تلاطفها وتراعيها من ذلك الحين

اما جهان فلم تقل ما قالته لبابك على سبيل التهديد ولكنها كانت قد اعدت ما يلزم للدفاع او الانتحار عند اليأس . وقد فتحت باب الاستمهال عنوة ريثما يعود الجاسوس وتعلم ماذا جرى لضرغام ثم تنظر في الذي تعمله

الفصل الثامن والاربعون

الجاسوس

ولم ينقض ذلك اليوم حتى شاع حديث جهان في القصر واطلعت عليه النساء ولم تبق واحدة الا اعجبت بها واصبحن ينظرن اليها نظر الصغير الى الكبير او نظر الجاهل الى العالم . وخصوصاً صديقتها هيلانة فانها حينما علمت بخروج بابك من القصر هرولت الى جهان واخذت تسألها عما جرى وجهان تتواضع في التعبير وتلتمس الاعذار لبابك على تغاضيه فلم يكن ذلك الا ليزيد جهان احتراماً في عينيها حتى تعشقتهـا واصبحت حديث اهل البذ ومضرب امثالهم وهي لاتعبأ بشيء من ذلك وانما همها استطلاع خبر ضرغام وابلاغ خبرها اليه ولم تعد ترى سامان

مكثت حيناً في انتظار رجوع الجاسوس وكانت قد اخلصت الود لهيلانة فقصت عليها متاعبها باختصار فشاركتها في ذلك واصبحت شديدة الاهتمام بشأنها ولم تكن اقل قلقاً لرجوع الجاسوس من جهان نفسهـا . فاتفق يوم رجوع الجاسوس ان جهان كانت عند هيلانة في غرفتها وخادمتها قائمة بالخدمة اللازمة وخيزران غائبة فلاحظت جهان في وجه الخادمة تغيراً وكانت تراقبها فقالت هيلانة « اسأليها عما قاله لها خطيبها »

فبغتت هيلانة لتلك المفاجاة قالت « وهل تظنينه جاء »
قالت « نعم جاء .. ويظهر انه لم ياتنا بخبر مفرح »
فاستغربت تكهنها واشارت الى خادمتها فاتت فقالت لها « هل عاد صاحبنا من سامرا ؟ ومتى ؟ »
قالت « نعم يا سيدتي اتى منذ ساعتين »
قالت » ولماذا لم تخبرينا بذلك »
فقالت «لو اتانا بخبر سارّ ابادرت الى نشره .. »
وكانت جهان تسمع ذلك فغلبت عليها البغتة وصعد الدم الى وجنتيها وقالت « ماذا قصّ عليك ؟ »
قالت « قال لي انه سال عن الرجل الذي طلبت منه البحث عنه في سامرا كلها فلم يقف له على خبر »
قالت « هل نقدر ان نراه ونسأله شفاهاً ؟ »
قالت « لا ادري اذا كانت القهرمانة تأذن بذلك »
فقطعت هيلانة كلامها وقالت « هي تأذن بكل ما تريده جهان عروس فرغانة لانها سحرتها ... قولى للقهرمانة انها تطلب مقابلة فلاناً لتكلفه بامر »
فذهبت الخادمة وعادت به فسألته عما يعلمه فقال « سالت عن ضرغام يا سيدتي فلم اجد احداً يعرفه »
قالت « ألم تسال عنه في قصر الخليفة ؟ »
قال « سألت عنه هناك فلم اقف على خبره »
قالت « اظنك لو سألت عن رئيس الحرس لوصلت اليه »
قال « سالت عن رئيس الحرس فقيل لي ان اسمه الصاحب »
قالت « هل انت واثق مماتقول ؟ »
قال « نعم يا سيدتي وقد دققت البحث عن رئيس الحرس نظراً لما رأيت من اهتمام الناس بـه فقيل لي انه رجل شجـاع باسل وان الخليفة يحبه حباً شديداً وقد زوجه فتاة جميلة من بنات قصره واهداه هدايا ثمينة »

فثبت عندها انه يقول الصدق وقد يخطر لهـا ان يكون الصاحب ضرغاماً نفسه لولا حديث زواجه وهي لا تصدق ان ضرغاماً يتزوج و يتركها فتأكد عندها ما قصّه عليها اخوها من قبل وان الافشين سعى في قتله فزادت تقمّها وغلب اليأس عليهـا واستغرقت في الهواجس وقد نسيت موقفها ولم تنتبه الا وخيزران تدعوها فخجلت لاستغراقها ونهضت تطلب غرفتهـا للاختلاء بنفسها ونسيت ان خيزران نادتها فلما خرجت من عند هيلانة لقيتها خيزران فقالت « الى ابن يا سيدتي »

قالت « اظنك دعوتني وقد نسيت .. ماذا تريدين ؟ »

قالت « كنت في حديقة القصر فرأيت بابك خارجاً من قصره فظننته خارجاً الى الحصون والمعاقل واذا هو دخل هذا القصر وطلب الى القهرمانة انه يريد مقابلتك الآن اوعزت اليّ اطلب اليك ذلك »

فاجفلت وقالت « بابك الآن يطلب ان يراني ؟ »

قالت « نعم وهو في غرفتك »

قالت « وفي غرفتي ايضاً ؟ ما العمل يا اورمزد ساعدني .. اني اراني في ورطة يصعب التخلص منها ... اعلمتِ الخبر الذي جاء به الجاسوس ؟ »

قالت « نعم يا سيدتي علمته .. »

قالت « وما رأيك ؟ »

قالت « هل لي رأي بوجودك ؟ يظهر ان مولاي ضرغاماً ليس في سامرا »

قالت « لا يخيفني غيابه عنها وانما يخيفني ان تصدق رواية اخي سامان بشأنه .. الم تسمعيها »

قالت « سمعتها ولكن من يعلم الصحيح »

الفصل التاسع والاربعون

الانقلاب العجيب

وكانتا تتكلمان وهما تمشيان على مهل حتى اشرفتا على الغرفة فتراجعت جهان وقالت « والآن لا بدّ من مقابلة بابك ؟ ماذا اقول له او لعل عنده خبراً جديداً .. »
وهي تتردد في ذلك سمعت صوت بابك ينادي من داخل غرفتها «جهان .. جهان» فاسرعت وركبتاها تصطكان وهي تتجلد حتى اقبلت على باب الغرفة فاطلت على بابك وكان جالساً فوقف لها واستقبلها وهو يبش و يبتسم فلما رأت ابتسامه اطمأن خاطرها ولاسيما لما رأته وقف لها ورحب بها بعد ما كان من مجافاتها وابتدرها قائلاً « اني اقف لعروس فرغانة وان كانت هي تحتقر بابك ولا تقف له »
قالت « ان جهان لم تحتقر بابك وانما احتقرت خصالاً فيه قد ذكرتها »
قال وهو يجلس ويدعوها الي الجلوس« واذا نزع تلك الخصال منه هل تحبينه ؟ »
ولاح لها من خلال كلامه انه يقول ذلك جدًّا ليس على قبيل المجاملة او المداعبة فاظهرت ارتيابها قائلة « اراك تسخر من فتاة اغضبتك فاحببت التشفي منها ولكنني اخلصت لك النصيحة وعرضت نفسي للخطر من اجل ذلك »
قال والاهتمام باد في محياه « لا يا جهان .. اني لا اسخر منك ولكنني اعملت الفكرة في ما قلته لي فقضيت مدة غيابي عنك وانا افكر في اقوالك وحقيقتها تنجلي لي رويداً رويداً . وكلما انجلت شعرت بالخجل من نفسي وندمت على ما فرط مني . . كنت منغمساً في الملذات والاكثار من النساء لاني لم اجد واحدة تملأ عيني وتملك قلبي . وانت لا ادري ما الذي غيرته من وجداني . . اراني منذ خاطبتك قد حدث فيَّ تغيير لم اعهد مثله من قبل كانك روح مرسلة اليَّ من عند اورمزد ... وانما همي الآن ان تقولي لي انك تحبينني .. » قال ذلك والعرق يتلألأ على جبينه
فاستغربت تقلابه ولم تخف انه يداجيها او يخدعها لانها قرأت الاخلاص في عينيه واكبرت ان ترى ذلك الرجل الفظ الشديد يتقرب اليها بتلك العبارات فقالت

« هل تعني ما تقول ؟ »

قال « نعم . . ولا حاجة بي الى المداجاة كما تعلمين لاني الآمر الناهي . ولكنني عملت بنصيحتك لانها نزلت منزلة الدم من قلبي والسواد من عيني فهجرت الخمر وسأترك كل النساء من اجلك ... صدقت ياجهان ان العيشة الهنيئة في الحب المتبادل . وها انا احبك فهل انتِ تحبينني ؟ . لا عذر لك في الرفض الآن »

فاطرقت واستغرقت في افكارها وفي ما سمعته تلك الساعة عن ضياع ضرغام حتى يئست من وجوده . . وكيف ان ذلك الجبار يخطب رضاها و يشترط على نفسه ان ينقطع لخدمتها ويهجر الخمر والنساء سواها . فحدثتها نفسها ان تجيبه بالايجاب فاعترضها خيال حبيبها فتصورت انه وجد بعد ذلك فكيف تقابله وباي عين تنظر اليه . فظلت حيناً وهي تعمل فكرتها و بابك صابر ينظر اليها و يراقب حركات عينيها فلما استبطأ جوابها قال « اظنك تفكرين في الافشين »

فلما سمعته بذكر الافشين خلته يعلم شيئاً عنه فقالت « وكيف عرفت اني افكر فيه وما هي علاقته بي »

قال « أليس هو الوصي عليك ؟ »

قالت « بلى . واذا كان وصياً »

قال « لا اخفي عنكِ ما سمعته وان كنت تحاولين اخفاءه عني . علمت ان الافشين بعد ان جعله والدكِ وصيا عليك طمع بزواجك فرفضت طلبه أليس كذلك؟ »

فاطرقت وبدأ الحياء في محياها ولاح الغضب في عينيها ولم تجب فقال بابك « وان فتاة ترفض الافشين ملك اشروسنة ثم ترفض بابك صاحب ارمينيا رغبة في الفضيلة لهي جديرة بالعبادة . . وبلغني ان الافشين انتقم منك انتقاماً جارحاً . . . واورمزد . لانتقمن لك منه اشد الانتقام »

فلما سمعت تعريضه بالانتقام من الافشين مالت الى القبول ولكنها ما زالت ترجو لقاء ضرغام فقالت « اذا كنت تعني ما تقول وانك تنتقم لي من الافشين وقد افشيت اسراراً عرفتها عني فاسمح ان انبهك الى امر . . انت تعلم اني فارسية مثلك وابي مرزبان كبير لم تكن تخفاه خافية من اغراض الفرس على العرب . فانت متواطئ

مع الافشين والمازيار صاحب طبرستان على قلب دولة المسلمين[1] .. أليس كذلك اصدقني »

قال « صدقت هذا هو الواقع فعلاً »

قالت « فما معنى ان يحاربك الافشين بجيش من المسلمين ؟ »

قال « هو يظهر نصرته للمسلمين ليجمع النقود منهم ويرسلها الى بلده ومتى وجد المال اللازم اتحدنا جميعاً وقلبنا هذه الدولة »

فنظرت اليه نظراً نافذاً والاستغراب باد في عينيها وقالت « هـذا هو اعتقادك حقيقة ؟ »

قال « نعم »

قالت « انت قائد هذا الجند وزعيم هذه العصابة والناس يجلون قدرك ويسبحون باسمك ويسجدون لك . وتنطلي عليك هذه الحيلة ؟ »

قال « ولماذا تحسبينها حيلة ؟ . اني اعرف الافشين من قبل وقد اجتمعنا وتعاقدنا على هذا الامر منذ بضع عشرة سنة ومعنا صاحب طبرستان وما زلنا نجدد العهد كل مدة واي مصلحة له في المخادعة ؟ »

فتفرست في عينيه وقالت « ان الافشين يخدعك ليكسب المال بسبب قيامك لانك لو لم تقم انت لحرب المسلمين لم يبقَ له باب للارتزاق فهو يخادعك . اما المازيار صاحب طبرستان فربما كان اخلص طوية ولكنه لادخل له في عملك ... فاذا شئت ان اجيبك على ما طلبته مني فيسوءني ان تكون مخدوعاً وانت البطل صاحب السطوة تحارب برجالك فاذا فزت طالبك الافشين بحق الشركة واذا غلبت استفاد من غلبك .. »

فانتبه بابك كأنه هبّ من رقاد ورآها تقول الصدق وشعر بسلطانها عليه وقال « بورك فيك انك صاحبة الرأي الصائب .. صدقت ان الافشين مداجٍ »

فقالت « فمثلك يجب ان يكون هو صاحب الامر واليـه المرجع لا شريك له يقاسمه ولا منازع ينازعه . فاذا رأيت ذلك كنت انا عونك حتى في التجنيد والحرب

---

١ تاريخ طبرستان لابن اسفنديار « الترجمة الانكليزيه » .

بشرط ان لا يتم زواج الا بعد الفراغ من هذه الحرب وعند ذلك افتخر اني نلت اكبر رجل في فارس »

فتحمس بابك وقال « ولكن قولي قبل كل شيء .. هل انت تحبينني منذ الآن؟»

قالت وفي شفتيها ابتسامة الظفر « ومتى كان الحب يهمك ؟ »

قال « منذ وجدت المرأة التي تستحق محبتي فارجو ان استحق محبتها .. فهل تحبينني ؟ »

فامسكت نفسها لحظة ثم قالت « نعم ... لا ... » ولم يطاوعها لسانها على هذا التصريح ثم استأنفت وقالت « احبك محبة الاخ حتى نفرغ من هذه الحرب »

قال « يكفيني ذلك يا جهان »

فاستدركت وقالت « وارجو ان لا يعرفني الناس بهذا الاسم لاني سأخاطب الجند وربما شاع ذكري فلا احب ان يعرفني الافشين او غيره ... فاسمي منذ الآن جلنار»

قال « حسناً يا جلنار » واحس من تلك الساعة براحة ولذة واعتبر نفسه انتقل من مصاف المنهمكين المسرفين الى طبقة اهل الفضيلة والحب . ولو بحث عن السبب الحقيقي لذلك الانتقال لوجد انه « الحب الصادق » لانه لم يتعود غير الانغماس في المشتهيات سدًّا للمطالب الحيوانية ولم يجرب الحب المتبادل بينه وبين فتاة تملك قلبه وتملأ عينه كما فعلت جهان .. فتبدلت حاله وعادت اليه اريحيته واصبح طوع رأي جهان لا يقطع امراً هاماً الا بعد استشارتها .. ولم يعرفها اهل البد الا باسم « جلنار » لانهم لم يكونوا يعلمون بوجودها قبل تبديل اسمها

وتحفز بابك للوقوف وهو يقول « هذا هو بدء سعادتي يا جلنار فاني لم اكن في عمري كله اسعد حالاً مني في هذه الساعة .. » ووقف واتمّ حديثه قائلاً « لكنني استأذنك في امر اظنه لا يسوءك — وذلك ان خاصتي قد تعودوا مجالستي على مائدة الشراب وفيهم المولعون بالخمر ولم يوفقوا الى من يغلبهم على قلوبهم كما فعلت انت بقلبي ... فهؤلاء اذا باغتهم بابطال تلك المائدة اخاف ان يتغيروا او يغضبوا وانا في حاجة اليهم في هذه الحرب فارى ان اسايرهم واجالسهم واوهمهم اني اشرب معهم ريثما ارى ما يكون »

قالت « لا بأس من ذلك ولكنني ارجو ان تعزم منذ الآن على تبغيض المسكر اليهم بالتدريج »

فاشار مطيعاً وهو واقف وقوف الغلام بين يدي مربيته واصبح وهو مثال الاستبداد والعنف لين العريكة يلذ له الخضوع والاذعان — يدلك ذلك على نفوذ المرأة العاقلة عند الرجل اذا هي اتته من طريق القلب واحسنت الاسلوب في رده عن النقائص . على انها لا تستطيع شيئاً من ذلك الا بطريق الحب . فيجب عليها اولاً ان تجعله يحبها فمتى ملكت قلبه اصبح كما تشاء . اما اذا ارادت اصلاحه بالانتقاد في غير الوقت المناسب فقد تزيده تمسكاً بزلاته

اما جهان فسرها تغير بابك وقبوله بما اشترطته عليه لما فيه من صيانة نفسها ريثما تحقق امر حبيبها والانتقام من الافشين .. وتذكرت في تلك اللحظة اخاها سامان فاستوقفت بابك وقالت « لي طلبة ارجو ان تقضيها »

قال « لك كل ما تريدين »

قالت « سامان · اخي . انت تعرفه وتعرف انه خانني وغدر بي . . . . لا اطلب الانتقام منه ولكنني اريد ابعاده من هذه المدينة لان في وجوده خطراً على هذا الجيش . . . لا اطلب قتله او سجنه بل اكتفي بأبعاده لأمن شره »

قال « كنت عازماً على ابعاده من عند نفسي وان كان قد خدمني بخيانته . . . اذ لولاه لم احظ بعروس فرغانة ولكنني اخاف ان يخونني كما خان شقيقته . كوني مطمئنة اني مبعده سريعاً .. واين تحبين الاقامة الا تنتقلين الى قصري ؟ »

قالت « دعني في هذا القصر كما انا فاني مستأنسة باهله وان قضت الاحوال بان نلتقي لمشورة او تدبير تواعدنا في حينه »

فلم يراجعها وتحول وهو يبتسم وينظر في وجهها نظر المحب المتهيب ولم يستطع تثبيت نظره في عينيها . اما هي فوقفت وهشت له فودعها وهو يقول « نحن على وفاق منذ الان .. وانت تحبينني ؟ »

قالت « اننا اخوان .. انت اخي بابك وانا احبك محبة الاخ وارعاك رعاية الاخت لاخيها وسترى اني باذلة نفسي في سبيل راحتك »

خرج بابك من بين يديها وقد غلب على امره . ولما مر بالدهليز ووقع بصره على من فيه من الجواري والسراري وما فيهن الا من تتمنى رضاه وتتملقه وتتزلف اليه واذا غضب استرضته ووقفت بين يديه وقوف الذل او سجدت سجود العابد . فتصور كيف غلبته جهان على رأيه واصبح لا هم له الا استرضاؤها وقد لذ له تنازله في اكتساب قلبها بعد ان تحقق استقلال فكرها وصدق لهجتها وعلو همتها وشعر بانعطاف نحوها وخاف ان يكون سبب شقائه اذا هي لم تحبه بمثله . فلما فعلت اصبح ما تخيله من الحب الطاهر المتبادل بينهما من اكبر اسباب سعادته

الفصل الخمسون

اليأس

فلنترك البذ واهله ولنعد الى سامرّا فقد تركنا فيها ضرغاماً بعد ان بث الجواسيس في انحاء المشرق الى فرغانة وغيرها . فلبث برهة من الدهر ينتظر عود الجواسيس فعادوا وما فيهم من سمع خبراً او عرف شيئاً يهديه الى مكانها . وكان ضرغام في اثناء الانتظار على مثل الجمر لا يدري ماذا يعمل فلما خاب انتظاره غلب عليه اليأس وفكر في صاحب الذنب بضياعها فلم يجد غير الافشين ثم تذكر ما سمعه عن سامان ونفاقه وغدره فارتاب في امره . وكان يقضي ايامه منفرداً في منزله الا اذا خرج المعتصم واصطحبه للصيد او الرياضة او الصلاة او نحو ذلك . وكان يستأنس بياقوتة استئناساً كثيراً لكمالها ومشابهتها بجهان وكلما شاهدها تذكر صاحبه حماداً وودّ من صميم فؤاده ان يجمعها به لعله يوفق الى من يجمعه بحبيبته

ولما طال انتظاره وانقطعت اخبار جهان عنه ويئس من وجودها استولت عليه السويداء ولم يعد يرى للحياة معنى وود لو انه يشغل نفسه بحرب او نكبة او مرض او يموت ويتخلص من عذاب الشوق والقلق . ولا يجد سبيلاً الى الموت بغير الانتحار وهو يعده جبناً لا يرتكبه غير الضعفاء اذا غلبوا على امرهم وشوركوا في عقولهم . فترفع عن الانتحار وفي نفسه بقية امل في العثور على خبر جهان . وقد كبر عليه من

الجهة الاخرى ان يموت ولا يثأر لها فوقع في حيرة وظهرت حيرته في وجهه فلم يكن يراه احد الا تبين في محياه القلق رغم ما كان يحاوله من التكتم والمغالطة ولا سيما بين يدي والدته لئلا يحزنها ولم تكن هي لتخفى حاله عليها رغم ما كان يظهره من عدم المبالاة . وكان اذا سألته عن جهان واخبارها قال « انهم لم يقفوا لها على خبر وقد انفذت آخرين لجهات اخرى » ويظهر امله بالعثور عليها وهي توهمه انها صدقت قوله وتزيده املاً بلقائها

ولم تكن له تعزية غير وردان وقد اصبح على طول العشرة اقرب الناس الى ثقته وموضع امله . فكان اذا اخذته الحيرة او استولى عليه القلق شكا اليه حاله واستشاره في امره ووردان يخفف عنه . حتى سمعه مرة يشكو البقاء في الحياة وهو يتمشى في حديقة القصر ووردان الى جانبه فقال له « ومثلك لا يأخذه الضعف الى هذا الحد يا مولاي »

قال « لا تقل مولاي .. لانك صديقي يا وردان ... ولذلك رأيتني اشكو اليك همي .. واكاشفك بما في ضميري .. اني لا ارى معنى للحياة مع اليأس من لقاء جهان »

قال « لكل نفس اجلها لا يستطيع احد تأخيره ولا تقديمه .. واصبر ان الله مع الصابرين »

قال « لقد مللت الاصطبار ولا ارى راحة بغير الموت .. ولكنني احتقر الانتحار واصحابه .. »

فانتبه وردان لرأي يوافق ما في نفسه منذ جاء العراق و يلائم ضرغاماً فقال «هل كرهت الحياة ؟ »

قال « كرهتها ... نعم كرهتها »

قال مثلك يكره الحياة و يعجزه السبيل الى النجاة منها وهو من خاصة المعتصم وكبار قواد المسلمين والحرب قائمة لا يخمد سعيرها بينهم و بين جيرانهم الفرس او الروم او العرب او غيرهم ؟ »

فانتبه ضرغام لامر كان ينبغي ان ينتبه له من قبل وقال « صدقت ان الموت في ساحة الوغى ميسور لمثلي ولكن امير المؤمنين ضايقني بتقريبه فقد جعلني صاحبه ومنعني

من السفر »
فقال « اظنه لا يمنعك بعد الآن »
قال « ولماذا ؟ »
قال « لان الاخبار تتوالى باستفحال امر الخرمية في ارمينيا حتى ضاق الافشين ذرعاً عن بابك وحصونه »
قال « من انبأك بذلك ... كنت احسب الامر عكس ما تقول والخليفة لايخفي عني شيئاً »
قال « ان الخليفة لا يخفي عنك خبراً عرفه ولا ذنب له في اخفاء ما لم يعرفه »
قال « هل تعرف شيئاً عن هذه الحرب لا يعرفه الخليفة ! »
فحك وردان ذقنه وتشاغل لحظة بالسعال ثم قال « نعم يا سيدي .. لان الوزراء ورجال الخاصة يرون من حسن السياسة كتمان بعض الاخبار عن الخليفة »
قال « صدقت ولكنني من الخاصة ولم يبلغني شيء مما تشير اليه .. »
قال « ولا اظنه يبلغك من سواي لاني سمعته من مصــدر لا علاقة له برجال البريد الذين يحملون الاخبار الى الخليفة »
فاستغرب ضرغام ذلك وقال « ماذا سمعت ؟ قل »
قال « سمعت ان بابك الخرمي بعد ان انتقل من ادربيل الى البذ واتخذها حصناً له تضاعفت قوته »
فقطع ضرغام كلامه قائلاً « هذا ما سمعناه بالامس »
قال « وهل عرفت سبب استقوائه بعد ان كاد يعمد الى الفرار ؟ »
قال « نعم . انه استقوى بمن انضم اليه من الاقوام النافمين على المسلمين »
فتبسم وردان وقال « هذا هو السبب الفرعي ولعله يبلغ الى الخليفة اليوم على يد صاحب البريد .. اما السبب الاصلي فهو غير ذلك »
قال « وما هو »
قال « اخبرني بعض القادمين من ارمينيا خبراً كدت انكره لولا ثقتي بالناقل ان بابك المشهور بالتهتك والانغماس بالمسكر والفحشاء كما تعلم قد اخذ في الرجوع عن هذه

الرذائل واصبح اذا جالس رجاله على مائدة الشراب لا يشرب معهم . وانه انقطع الى تدبير جنده واستجماع قواه واستنهاض الناس على المسلمين ... اخبرني ذلك رجل يعرف دخائل البذ .. و ينسبون هذا التغيير الى امرأة من نسائه ذات عقل وتدبير اسمها جلنار غلبته على رأيه وتصرفت في اموره»

فاطرق ضرغام لحظة وقد ساءه رجوع بابك عن رذائله لانه كان يرجو ان تكون عوناً لهم عليه .. وكان يفكر في ذلك وهو واقف بجانب شجرة من التفاح يتلاهى بضرب بعض أثمارها المتدانية بخيزرانة في يده ووردان واقف الى جانبه . واذا بعض غلمان الخليفة جاء مسرعاً . فلما رآه ضرغام علم انه قادم من عند الخليفة يدعوه اليه فاجابه انه آت فرجع الغلام

فالتفت ضرغام الى وردان وقال « اظن الخليفة يدعوني للاطلاع على اخبار الحرب »

قال « اذا اقترح مولاي ان يسير في هذه الحرب فليأمر ان اكون في خدمته لاني عالم باحوال تلك البلاد وطرقها فلعلي انفعه في شيء »

قال « حسناً » وتحول الى المنزل لبس قلنسونه وسواده وذهب الى دار الخاصة الخليفة فوسع له الحاجب وادخله بلا استئذان فلم يجد عند الخليفة الا القاضي احمد ولكنه قرأ في محياه القلق والغضب فلما اقبل وحيا بش له الخليفة وامره بالجلوس فجلس متأدباً فقال له الخليفة « اظن الصاحب قد مل الانزواء في هذا القصر وقد ضايقناه بهذا الاكرام وامساكه عما تتوق اليه نفسه من خوض المعامع »

فادرك ضرغام (الصاحب) ان الخليفة يمهد له طلب السفر الى الحرب وانه لم يفعل ذلك الا وهو يرى الحاجة ماسة الى نجدته فقال « ان البقاء بجوار امير المؤمنين نعمة وبركة ولكن الضرب بسيفه فرضٌ مقدس وقد طالما حدثت نفسي ان التمس من امير المؤمنين ان يرمي بي الى الحرب القائمة في ارمينيا وانا اتهيب فاذا اذن لي وكان ذلك موافقاً لرضاه فقد غمرني بفضله وانا في كل حال صنيعته وربيب نعمته »

فاستحسن الخليفة مبادرته ونظر الى القاضي احمد فالتفت القاضي الى ضرغام وقال « ان امير المؤمنين ضنين بك حريص على قربك كما تعلم ولكنني لحظت منك

في هذه الاثناء انقباضاً حسبته ناتجاً عن هذا الانحباس لعلمي ان القواد والشجعان لا يسرهم الا خوض المعامع والظفر في الحرب ونحن الآن في حرب بارمينية وقدصبرنا على ذلك المتمرد لاعتصامه في حصونه فاشرت على امير المؤمنين ان يوجه بك الى هنالك فيأتي النصر على يدك »

قال « اني على ما يريد امير المؤمنين وانا على اهبة السفر من هذا الساعة »

فقال الخليفة « انت تعلم ان جند المسلمين في ارمينية تحت قيادة الافشين فهل يشق عليك ان تكون من قواده »

قال « لا يهمني ان اكون في هذا الجهاد رئيساً او مرؤوساً وانما يهمني ان اكون سيفاً من سيوف امير المؤمنين القاطعة »

فهش له الخليفة وقال « بورك فيك . . وسأبعث الى الافشين ان يعرف قدر الصاحب دون سائر القواد » قال ذلك واشار اشارة الصرف

فوقف ضرغام وقال « يأذن مولاي بانصرافي والتمس دعاءه وبركته وارجو ان لا اعود اليه الا وقد فتح البذ وقتل طاغيته »

فابتسم له الخليفة فخرج بعد ان امر له الخليفة بالخلع والانعام واحس ضرغام من تلك الساعة ان قلقه قد ذهب لدخوله في ما يشغله عن الهواجس

وكان وردان في انتظاره بباب القصر فلما خرج وعلم بما تم له استأذن بالذهاب معه فقال « حسناً . . ولكنني كنت احب ان تبقى قريباً من والدتي هنا »

قال « لا بأس عليها وهي في قصر الخليفة و بين يديها الخدم الموالي »

فوافقه ومضى الى والدته اخبرها ان الخليفة امر بذهابه الى الحرب فاظهرت استحسانها تنشيطاً له وقالت « اطلب الى الله ان يعيدك ظافراً »

ثم تحول الى ياقوتة وحياها فلما علمت انه يتأهب للسفر دمعت عيناها فنشطهاوقال « ادعي لي بالتوفيق لعلي ألاقي حماداً في طريقي — لا تحسبيني غافلاً عن واجباتي » قال ذلك وتنهد تنهداً خفياً لانه تذكر مصيبته بضياع حبيبته

فاجابته ياقوتة بدمعتين ارسلتهما على خديها وهي مطرقة لا تتكلم فتركها وخرج وامر وردان بالاستعداد للسفر و بعد ايام تأهب وودع والدته واوصاها بياقوتة خيراً وسافر في فرقة من خاصة رجاله الفراغنة كلهم اشداء

الفصل الحادي والخمسون

معسكر الافشين

جرت بين جندالمسلمين والخرمية مواقع كثيرة في اردبيل وغيرها واستقرّ الخرمية اخيراً في البذ مدينة بابك وهي مدينة حصينة اوقلعة كبيرة مؤلفة من قصور وقلاع حولها سور ضخم له الابواب الكبيرة وعليه الابراج الكثيرة والطريق اليه وعر بين الجبال والاودية وكان جند المسلمين اولاً في اردبيل فلما فرّ بابك منها الى البذ شمالاً اقتفوا أثره . و بين البذ واردبيل عدة مواضع جعلها المسلمون نقطاً عسكرية تحفظ لهم خط الرجوع وتضمن الاتصال مع سامرّا مقر الخليفة . فكانت الميرة القادمة من العراق اذا دخلت ارمينية انزلوها في اردبيل ومن هناك ينقلونها تحت الخفر الى نقطة عسكرية اسمها حصن النهر ويعود خفراؤها الى اردبيل و يتولى خفارتها جند آخر من حصن النهر الى ارشف وهكذا الى خش فبرزند الى روذ الروذ وهي آخر محطة قبل البذ و بينهما بضعة فراسخ

وكان الافشين قد كلف الكوهبانية وهم اصحاب الاخبار ويشبهون قلم المخابرات في جنود هذه الايام ان يختاروا محلاً يعسكر فيه وان يكون حصيناً . فاختاروا في روذ الروذ ثلاثة اجبل عليها انقاض ابنية قديمة فاقام عسكره عليها وسد الطرق الموصلة بينها و بين البذ بالاحجار الضخمة حتى صارت كالحصون ثم حفر خندقاً وراء الحجارة عند كل طريق الا طريقاً واحداً يخرج منه رجاله اذا اراد الهجوم — بذل في هذا العمل جهداً شديداً فكانت الرجالة تنقل الحجارة وتحفر الخنادق والعساكر تحرسها ليلاً ونهاراً

وكان بين روذ الروذ والبذ واد بين آكام وعرة فعبى رجاله وعهد كل فرقة منهم الى قائد من قواده وهم ثلاثة جعفر الخياط وابو سعيد واحمد بن الخليل اقامهم في محطات بينه وبين البذ قبل الوادي الفاصل بينهما. فاصبح معسكر الافشين كبيراً جدًّا اذا اراد النهوض او المسير به جعل علامته ضرب الطبول لبعد المسافات واحتجاب الفرق بعضها عن بعض بالجبال والاودية . فاذا سار ضرب الطبول واذا وقف امسك عن

ضربها . فيقف الناس جميعاً في مصافها وعلى ترتيبهم . وكان للافشين مجلس على اكمة يشرف منه على البذ ويرى قصر بابك وغيره من قصور المدينة

وكان بابك كثير الاعتماد في حروبه على الكمناء فكان يرسل طوائف من رجاله يكمنون في الاودية ووراء التلال ليفاجئوا جند المسلمين ويغدروا بهم . وكان الافشين كثير الاهتمام بذلك فيرسل الجواسيس او الكوهبانية للبحث عن الكمين

قضى في ذلك الحصار مدة طويلة وهو يشاغل الخرمية فيأمر قواده المشار اليهم فيقطع كل منهم الوادي الى الجانب الآخر بازاء البذ في كردوس من رجاله فيقف كل منهم بكردوسه هناك وبابك يخرج فرقة من جنده تحمي باب السور ويمنع الاعداء منه فاذا انقضى النهار امر الافشين رجاله بالعود الى معسكره الاصلي وراء الخندق فيرجع اولاً اقربهم من البذ ثم الابعد فالابعد حتى يدخلوا الخندق ويبيتوا هناك . وكان الخرمية يتضايقون من هذه المطاولة فعزموا على الفتك فراقبوا رجوع كراديس الافشين من جانب الوادي ذات يوم كالعادة حتى لم يبق منهم الا جعفر الخياط بكردوسه فخرجوا عليه وارتفعت الضجة فرجع جعفر بنفسه ورد الخرمية الى باب البذ ووقعت الصيحة بالعسكر حتى بلغت الافشين فرجع ورأى جعفراً واصحابه يقاتلون فاشفق عليه وخاف ان يفسد عليه تدبيره

أما جعفر فجاءته نجدة من المتطوعة وهي فرقة تنصر المحاربين رغبة في الغنائم والسبي فاشتد ازره وهجموا على السور وتعلقوا به وكادوا يصعدونه ويدخلون المدينة وبعث جعفر يستمد الافشين بخمسمائة راجل ويؤمله بدخول البذ حالاً . فبعث اليه الافشين يقول له « انك افسدت عليَّ تدبيري فتخلص قليلاً قليلاً وخلص اصحابك وانصرف » ثم تحركت كمناء بابك فاضطر جعفر الى الرجوع وهو يأسف لضياع الفرصة

وقضى المتطوعة بعد ذلك اياماً حتى قلت علوفتهم وزادهم وهم يتذمرون ويقولون لو تركنا الافشين لدخلنا البذ . وضج سائر الجند يطلبون الحرب وهو يخشى الفشل . او لعله كان يطاول رغبة في جمع المال . لان المعتصم كان قد جعل له على كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وكل يوم لا يركب فيه خمسة الاف درهم سوى الانزال والمؤونة (١) فجمع من ذلك مالاً كثيراً كان يرسله الى اشروسنة

(١) ابن الاثير ١٦٥ ج ٦

الفصل الثاني والخمسون

سامان

واتفق وهو جالس ذات يوم في فسطاطه بالمجلس الذي يطل منه على البذ ان وقع نظره على جماعة من رجاله يقودون رجلاً يظهر من قيافته عن بعد انه من اهل البذ وما عتم ان وصلوا به اليه حتى عرف انهم يقودون سامان اخا جهان فلما وقع بصره عليه اجفل لكنه توقع ان ينتفع منه بشيء فصاح بالرجال ان يتركوه فتقدم سامان وهو مطاطيء الرأس حتى دنا من سرير الافشين فجثا فامره الافشين ان يقف وبش له وقال « ما وراءك يا سامان من اين اتيت ؟ »

قال « من البذ يا سيدي »

فلما سمع قوله توسم منهُ خيراً فاشار اليه أن يقعد فقعد وتأدب في مقعده فابتدره قائلا « ما الذي ادخلك هذه المدينة »

فهز رأسه وقال « اتيت اليها في خدمة مولاي الافشين »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « ما زلت منذ تشرفت بلقيا مولاي في سامرًّا وانا ابحث عن جهان عملا بامره حتى علمت انها عند بابك .. »

فدهش الافشين لقوله فصاح به « جهان هنا الان .. هنا في البذ ؟ »

قال نعم يا سيدي »

قال « وما الذي جاء بها الى هذا البلد البعيد ؟ »

قال اخبرتك يا مولاي ان اللصوص خطفوها مني بقرب همذان فما زلت اجد في البحث حتى علمت ان بابك هذا هو الذي بعث في اختطافها لانه سمع بجمالها وكان قد خطبها من والدي فمنعه منها . وكانه اقام الكمناء يترقبون خروجها حتى تمكن من غرضه »

فقال « وبعدئذ ؟ الا تزال هنا ؟ »

قال « ان امر اختي هذا يحيرني .. انها لا تستقر على حال فبعد ان رفضت النعمة

التي عرضها عليها صاحب اشروسنة رضيت ببعض رجاله .. والآن اراها قد رضيت ببابك واصبحت اعز نسائه اليه تستهلك في نصرته . وكم نصحت لها ان ترجع عن غيها وحرضتها على المجيء الى الافشين لانه ولي نعمتها فأبت فلما رأيتها متشبثة بعنادها تركتها وجئت اليك »

قال « بورك فيك ولكن بلغني من بعض الجواسيس ان اعز نساء بابك اليه امرأة اسمها جلنار يقولون انها قوية العقل حسنة التدبير وانها اعانته وشدت ازره كثيراً »

فقال « هي جهان نفسها ياسيدي وقد غيرت اسمها تمويهاً . وواعدت صديقها الجديد ان تنصره على جند المسلمين فهي تتفانى في نصرته ولولاها لقضي عليه من زمن مديد »

وكان الافشين يعلم خبث طوية سامان ولكنه سايره رغبة في استعانته على امر لا ينفعه فيه غير الخبثاء ولم يفته ان سامان يكرهه ولو استطاع قتله لقتله فعمد الى مداجاته فهز رأسه وحك ذقنه واصلح قلنسوته وهو يتحرك في مقعده وقال « بئس ما كافأتنا به هذه الفتاة على احساننا فقد اغضبناك في مصلحتها فكافأتنا بالعقوق ... ولكن ذلك من اسباب سعدك ... » وبلع ريقه يظهر انه ينوي له خيراً سيصرح له به بعدئذ وعاد فاستأنف الكلام قائلاً « الم يعلم ضرغام بوجود جهان هنا ؟ »

قال « كلا ولا هي تعلم بوجوده حياً »

فلم يصدق قوله فقال « وكيف ذلك وضرغام لم يذخر وسعاً في البحث عنها »

قال قد ساعدني على ذلك تغيير الاسماء .. كن على يقين انها تعتقد ما قلته لها عنه انه قتل وهو لا يزال يعتقد انها خطفت الى مكان مجهول .. فعلت ذلك خدمة لمولاي الافشين رغم ما قاسيته من اعراضه وحرماني « قال ذلك ونظر الى الافشين وعيناه ترقصان فضلاً عما فيهما من الحول الكثير »

فقال « قد علمت الان صدق خدمتك واذا برهنت لي ذلك باتمام هذه المهمة تأكد نجاحك »

قال « اني رهين الاشارة سل ما تشاء فابذل نفسي في خدمتك »

قال « تقول انك كنت في البذ فما الذي تعرفه عن اهله وحصونه ورجاله ؟ »

قال « ان المدينة منيعة كما ترى وفيها الجند والاسلحة والخرمية متضامنون في اموالهم وانفسهم يتفانون في خدمة زعيمهم ولكنني ارجو ان يغلبوا على امرهم »

قال « بماذا ترجو ذلك »

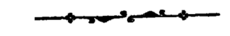
قال « ارجوه مما اعلمه من داخلية هذا البلد .. اعرف ان فيها من الاسرى المسلمين وغيركم عدداً كبيرًا منهم . . ٧٦٠ من النساء والاطفال ولا يخفى على مولاي ما عرف به بابك من الفتك حتى قدروا الذين قتلهم حتى الان بنحو . . . ٢٥٥ نفس فترى الناس قد ملوا سيادته حتى المقيمين في بلده واذا تمكن عشرون رجلا منكم ان يدخلوا المدينة و يراهم الناس فاهل المدينة جميعاً يسلمون »

قال « ما رأيك في الجهة التي نهاجم البلد منها حتى نضمن الدخول اليها »

فوقف سامان وأشار بيده الى جبل في طرف البذ وقال « من هنا يا سيدي . . أرأيت هذا الجبل فان بابك يقيم الكمناء في سفحه لعلمه ان العدو اذا تجاوزه هان عليه دخول المدينه فاذا احتال مولاي في الاتيان من ورائه ظفر »

فسر الافشين من قدوم سامان وهمّ ان يستزيده ايضاحاً فاذا بالحاجب دخل وهو يقول « ان بريد امير المؤمنين بالباب »

قال « يدخل »



الفصل الثالث والخمسون

البريدي

فدخل البريدي وعلى وجهه امارات السفر والتعب وعلى صدره الصفيحة النحاسية التي يعلقها سعاة البريد وعليها علامة خاصة . فلما دخل حياً ووقف فناداه الافشين « تقدم .. ما وراءك »

فتقدم البريدي ودفع اليه لفافة حريرية عليها ختم الخلافة فتناولها وقبلها ثم فض الختم فاذا داخلها انبوبة من فضة مختومة فصها وفتحها فاخرج منها كاغداً ملفوفاً نشره وأخذ يقرأه وسامان يراعي حركاته وملامحه فرأى في وجهه تغيراً فتجاهل حتى اذا

فرغ من تلاوته اشار الى البريدي بالانصراف فانصرف والتفت الافشين الى سامان وهو يبتسم ليزيده ايناساً رغبة في خدمته وكان سامان لا يزال واقفا فأمره بالجلوس وقال « اتعلم فحوى هذا الكتاب ؟ » قال « من اين لي ان اكون نبياً اعلم الغيب؟»

قال « انه كتاب المعتصم يستحثني فيه على الثبات ويخبرني انه أرسل الي نجدة بقيادة صاحبه ضرغام »

فاظهر سامان الاستغراب وقال « العل صاحب اشروسنة في حاجة الى هذه النجدة وهو الملك والقائد وجنده قد ملأ السهل والجبل »

قال « كلا .. وامير المؤمنين يعلم ذلك .. ولكني اخاف ان يكون الرجل قادماً لغير الحرب .. اخشي ان يكون قد عرف بجهان .. وهب انه علم او لم يعلم فجهان لا يمسها احد سواي ان لم يكن حباً بها او افتتاناً بجمالها فانتقاماً من كبريائها ووقاحتها اني لا أنسى جسارتها ذلك اليوم في فرغانة »

قال « اما ضرغام فلا شك عندي انه لم يعلم بوجود اختي هنا بل هو لا يعتقد انها في قيد الحياة .. ونظراً لكلفه بها فربما كره الحياة بعدها واتى الى ساحة القتال رغبة في الموت فاني ارى في الناس جنوناً لم اجربه .. اراهم اذا احب احدهم الاخر فعل فعل المجانين حتى يعرض حياته للخطر من اجله واذا اصاب احدهما الموت اراد الاخر ان يتبعه .. اني لا افهم ذلك »

فضحك الافشين حتى بانت نواجذه وقال « ان كان قد جاء يطلب الموت فاهلاً به ومرحباً .. له علينا ذلك حباً وكرامة . اما استغرابك ما تراه من تفاني المحبين فانت معذور به لانك اجرود لا تشعر مثل شعورهم » ثم اطرق هنيهة وقال « اذا هجمنا غداً على البلد ودخلناه فاين تكون اختك ؟ »

فوقف سامان والتفت الى البذ واشار بيده وهو يقول « أرأيت هذا القصر الفخيم عند الباب الشرقي ؟ هذا هو قصر النساء وفيه تقيم جهان . ومن اراد الوصول اليه حالاً فليأته من ذلك الباب » ثم اشار بيده الى قصر في جهة الغرب وقال « وهذا القصر عند الباب الغربي هو قصر بابك نفسه انه امنع القصور ولا يهاجمه احدٌ الا قتل فافعل ما بدالك »

ففهم الافشين غرضه وتحرك من مقعده وهي اشارة الصرف فتحول سامان وطلب الانصراف فقال له الافشين « انت تمكث هنا ولا تخرج من هذا المعسكر الا عند الحاجة لنستأنس بك »

ففهم سامان قصده فقال « احب ان اكون اسيرًا عندك حتى تتحقق صدق خدمتي لكنني اتقدم اليك ان تبقي خبري مكتوماً عن ضرغام وغيره والا فسد تدبيرنا »

فاشار الافشين برأسه ان «نعم» ثم نادى غلامه وامره ان يكرم سامان ويحتفظ به فخرج سامان من حضرته وقد سر واستبشر — سرّه ان الافشين احسن لقياه ووعده بارث ابيه انتقاماً من اخته . واستبشر بقرب الانتقام من اخته متى جاء ضرغام فيدبر له مكيدة يقتله فيها . ونسي انه كان ناقماً على الافشين وقد استعان بضرغام عليه وان اخته صاحبة الفضل الاكبر عليه . ولكنه كان يجري في اعماله على هوى نفسه بلا قاعدة فلم يبغض الافشين اولاً لانه تعدى حدوده في الوصاية أو لانه اراد السوء باخته وانما بغضه لانه حرمه من الارث . ولم يحب ضرغاماً لشهامته واريحته أو قرابته وانما اظهر حبه له ليستعين به في نيل مرامه . ثم انه لم ينقلب هذا الانقلاب في الحالين الا رغبة في مصلحة نفسه فلم يكن له قلب يحب ولا نفس تشعر ولا وجه يخجل فتحولت جوارحه الى مجرى واحد هو حب المال وزاده حباً فيه يأسه من احترام الناس له لسجاياه او مناقبه فاراد ان يكتسب احترامهم بالمال ظناً منه انه متى صار غنياً احترموه واجلوا قدره . ولا نظنه كان يلتمس حبهم لان من كان يهمه ان يحبه الناس لا يرتكب دنيئة يكرهونه من اجلها

فسامان لم يكن يرجو حب الناس له وانما كان يطلب احترامهم الظاهر ولو لعنوه في قلوبهم . ويطلب الرفعة والثروة ليستعين بهما على التشفي والانتقام . فمن كان هذا دأبه كان عدوًّا للبشرية وامثاله كثيرون لكنهم لا يظهرون

الفصل الرابع والخمسون

الصاحب

لما خلا الافشين بنفسه بعد خروج سامان اعمل فكرته ملياً في ما سمعه منه فرآه يلائم مصلحته وما همه ان كان سامان يفعل ذلك حباً به او خوفاً منه او طمعاً بالوصية وراجع ما سمعه عن جهان وتذكر جمالها وكبرياءها فسره انه ظافر بها ولا شك عنده انها متى وقعت بيده هذه المرة رضيت به . فاعترض فكره هذا ضرغام لان حبها له كان سبب فشله للمرة الاولى فاصبح هو العقبة الوحيدة في طريقه . وتذكر ما ألغز به سامان من حيث الايقاع بضرغام فعلل نفسه بذلك وزاد رغبة في قتله بالحيلة وهو هين عليه

قضى الافشين اياماً في مثل ذلك حتى جاءه صاحب الخبر بقدوم الصاحب مع رجاله . وفي صباح اليوم التالي جاء ضرغام فلاقاه الافشين واظهر الترحيب به واثنى على رغبته في نصرة الدولة . فاجابه الصاحب شاكراً ولحظ الافشين في وجهه تغيراً من الانقباض على اثر يأسه من جهان وربما ادرك الافشين ذلك لكنه تجاهل وجعل يبالغ في اطراء بسالته وعلو همته فقــال ضرغام « لا فضل لنا في خدمة الدولة ونصرة الدين الحنيف »

قال « صدقت وقد جئت في ابان الحاجة اليك فاني لا ارى بين قوادي من يركن اليه في المهمات نظيرك وقد خبرتك وعلمت شجاعتك وصبرك »

فقال ضرغام « كنت قد استطلت الحرب واستبطأت الفتح فلما عاينت هذه الحصون ووعورة هذه الارض رأيت الافشين قد اتى ما تعجز عنه الابطال . وانا عالم ان مجيئي لا يزيد شيئاً في معداته ولا يهون عليه فتحاً ولكنني مللت الاقامة واحببت ان يكون لي في هذه الحرب نصيب . وقد عاهدت نفسي ان اتصدى لاشد الوقائع خطراً ...فارم بي حيثما شئت »

فتحقق الافشين ما ظنه من يأس ضرغام واحب تغيير الحديث ريثما يدبر له

مهلكاً فقال « بورك فيك . وما نحن في عجلة للحرب الآن بعد ان تستريح من عناء السفر .. اخبرني عن اهل سامرّا كيف هم وكيف امير المؤمنين »

قال « كلهم في قلق من امر بابك هذا ولكنهم يثقون على ثبات الافشين وتدبيره... وقد آنست من الخليفة رغبة في الفراغ من هذه الحرب فجئت لالقي نفسي في اقرب السبل لهذا التعجيل ولو كان فيه موتي فاني اتعجل الشهادة .. » قال ذلك وابرقت عيناه بريقاً حادًّا قرأ الافشين من خلاله حديثاً طويلاً فقال « غداً تنظر في ذلك وأما الآن فاخرج بنا نطلعك على معسكرنا ومواقع القواد ونظام الخنادق والحصون والمكامن » قال ذلك ونهض وامر ان تهيأ الافراس

فنهض ضرغام وهو يقول « قد رأيت بعض هذه المعاقل فعلمت ان مولانا الافشين قد اتى في تنظيمها بالمعجزات »

ومشى الرجلان وبين ايديهما الخدم حتى ركبا وقضيا بقية ذلك اليوم في التجول بين الحصون والاستحكامات . فرأى ضرغام جنداً كبيراً وتدبيراً حسناً وسره اهتمام الافشين في اطلاعه على ذلك من تلقاء نفسه فقال له « ان مثل هذا الجند لا ينبغي ان يصبر على فتح هذا البلد طويلاً »

قال « غداً اقص عليك سبب الابطاء »

وافترقا . فذهب ضرغام الى فسطاطه وكان وردان في انتظاره وقد اصبحا صديقين حميمين . وضرغام ينظر الى وردان نظره الى صديق مخلص ووردان كذلك لكنه ما زال يخاطب ضرغاماً باحترام ووقار ولا سيما امام الناس . فلما اجتمعا قص ضرغام ما لقيه عند الافشين الى ان قال « وقد وعدني الافشين ان يسرع بالفتح والححت عليه ان يرمي بي في اخطر المواقع فاذا لم ارجع فانت مكاف منذ الآن ان تنوب عني برعاية والدتي المسكينة » قال ذلك واختنق صوته فتنحنح حتى يخفي اختناقه وعاد الى اتمام الكلام فقال « وانت تعلم قلب والدتي وما قاسته في محبتي ... وياقوتة احتفظ بها ريثما يمن الله عليها برجوع خطيبها اظنك تعرفه . . واما جهان فاذا كانت لا تزال في قيد الحياة ولقيتها بعد موتي فبلغها ما تعلمه من وجدي .. »

فقطع وردان الحديث وقال « لا توصني فاني لست باقياً بعدك وما صحبتك في

هذه المهمة الا لاكون في خدمتك حيثما سرت »

قال « نعم ولكن ما تكون خدمتك لي يوم القي بنفسي الى القتل وانا انما افعل ذلك فراراً من بقاء هو اثقل على قلبي من العدم وانت لا باعث لك على هذا اليأس »

فتنهد وردان واطرق وارسل دمعتين تقطرتا من مآقيه وكأنه خجل من ذلك الضعف فرفع بصره وقال « ان نصيبي من اليأس كبير جداً ولو علمته لطلبت ان اسير انا امامك واذا بقيت حياً قصصته عليك .. وفي كل حال ارجو ان لا تراجعني في الذهاب بين يديك حيثما سرت وان يكون مصيري مثل مصيرك »

فاعجب ضرغام باريحيته ولم يستغرب تعريضه بسبب يأسه فانه كان قد شعر بشيء من ذلك ولم يشأ ان يستطلعه اياه الا اذا همّ هو نفسه ان يكاشفه به فقال « لك ما تريد يا وردان وغداً ترى ما اعده لنا الافشين من المهام »

اما الافشين فقضى تلك الليلة مع سامان يدبران المكيدة . وفي صباح اليوم التالي اتى ضرغام الى الافشين ومعه وردان فدخل ضرغام الى الفسطاط والافشين وحده فيه فرحب به فسأله ضرغام عما دبره فقال « لا ازال ارى الصبر على الحصار برهة اخرى »

فاجفل ضرغام لهذا التغيير وساءه تأجيل الموت فقال « ولماذا »

قال « لاني ارى في هجومنا اليوم خطراً كبيراً .. فقد قضيت البارحة وانا اقدّر واقيس وافرض التعبية على كيفيات مختلفة فلم اوفق الى تعبية تضمن لنا النصر »

قال « هل تخبرني عما تخافه على جندنا لعل لي فيه مخبراً ؟ »

فنهض الافشين ومشى حتى وقف بباب الفسطاط وضرغام بأزائه واطل من ذلك الباب على البذ وحصونها فقال « أرأيت هذه المدينة انها امنع من عقاب الجو ولا سيما من جهة الغرب حيث ترى ذلك القصر الضخم فانه قصر بابك الذي يقيم فيه فاذا وصلنا باب السور الذي يليه اخذنا المدينة »

قال « وما الذي يمنعنا من اخذه »

قال « ألا ترى هذا التل الشاهق المشرف على المدينة من غربيها .. لا سبيل

اليه الا من ورائه والطريق هناك وعر لا يسلكه الجند الكثير ولا يجسر الجند القليل على سلوكه لما يلقاه من نبال الخرمية ومجانيقهم عن الاسوار . وبابك كثير الاعتماد على الكمناء فنخاف ان يكون له كمين او غير كمين وراء ذلك التل او في واديه »

فقال ضرغام « انا اذهب في طريق ذلك التل مع رجالي الفراغنة »

قال « اذا فعلت ذلك عبيت انا سائر الجند حول الاسوار من سائر جهاتها والفتح مضمون لنا باذن الله »

فقال ضرغام « ومتى يكون الهجوم »

قال « متى شئت »

قال « الليلة .. دعوني اداهم القوم ليلاً فاذا اصبح الصباح وانا داخل البذ حياً اهجموا انتم على سائر المدينة فيكون فتحها امراً مقضياً »

قال الافشين « بل ارى أن نتهيأ جميعاً للهجوم ليلاً وذلك ان تذهب انت برجالك من وراء التل وتمكث تجاه المدينة حتى ترى ناراً اوقدها هنا بعد نصف الليل وعلامتها انها مثلثة اي تكون ثلاث نيران متحاذية فاذا رأيتهـا علمت ان الجند كله مهاجم المدينة من سائر جهاتها فاهجم انت برجالك من تلك الجهة . ولكن لا يخفى عليك يا ولدي انك في اشد المواقع خطراً »

قال « لا ابالي بالخطر .. انا ذاهب الآن لاهيىء رجالي وارجو أن نلتقي جميعاً في قصر بابك غداً » قال ذلك وضحك ضحكة مغتصبة كشر فيها عن اسنانه كما يكشر الاسد اذا هم بالوثوب . وكان الغضب واليأس قد زادا وجهه هيبة وقوة فازداد شارباه وقوفاً وحاجباه خشونة وعيناه بريقاً وحدة حتى تهيب الافشين النظر اليـه والتفرس في عينيه فقال له « لو كان لنا عشرة مثلك لفتحنا البذ من زمن بعيد » اراد بذلك ان يثبته في عزمه وهو على يقين أنه لا يستطيع تجاوز التل الى السور لما يجعله بابك هناك من آلات الدفاع الخطرة فضلا عن الكمناء . واغرب من ذلك ان ضرغاماً ودع الافشين ليذهب ويتهيأ للهجوم وهو لا يعرف شيئاً عن الطريق ولم يسأل عنه . وفرح الافشين لانه لم يسأله عن الطريق لان جهله يؤكد فشله

تحول ضرغام عن باب الفسطاط وهو يقول للافشين « غداً نلتقي هناك » واشار

يده الى قصر بابك والافشين يهش له . حتى اذا توارى عن الخيمة لقيه وردان فماشاه وهو يقول له « ما الذي تمّ الاقرار عليه ؟ »

قال « الليلة نهاجم البذ ونأخذه »

قال « من أين ؟ »

قال « نأتيه انا والفراغنة من وراء ذلك التل حتى ندخل من الباب الغربي وبجانبه قصر بابك فنكون اول من دخله أو نموت تحت الاسوار .. وهو المطلوب »

فلما سمع وردان قوله وقف والتفت اليه وقال « هل تعرف الطريق الى ذلك التل ؟ »

قال « لا .. لا اعرفه .. ولكن .. »

قال « ولكن ماذا •• انه طريق طويل ينبغي لسالكه ان يسير من وراء التل مسافة عدة ساعات حتى يأتي الى سفحه تجاه السور »

فانتبه ضرغام لتسرعه وقال « وهل تعرف الطريق انت يا وردان ؟ »

قال « نعم اعرفه »

قال « فانت دليلنا بل انت قائدنا هلم بنا الى رجالنا ليتهيأوا من الآن فننتقل بهم اصيل هذا النهار بالطريق الذي تعلمه حتى نصل في العشاء الى تجاه المدينة »

قال « حسناً » ومشيا وكلاهما ساكت يريان الخطر الذي يهددهما واليأس يعزيهما عنه • حتى وصلا معسكر الفراغنه وهم قليلون لا يتجاوز عددهم بضع مئات لكنهم اشداء متنخبون يستهلكون في طاعة ضرغام ولو قال لهم القوا انفسكم في النار لتسابقوا اليها

اما الافشين فبعد خروج ضرغام من عنده جاء سامان فقص عليه ما فعله وقال « الكفالة عندك يا سامان »

فقال « سمعاً وطاعة » وخرج • وامر الافشين جنده بالتعبية للهجوم في ذلك الليل ليأخذوا القوم على غرة وجعل فرقته تهاجم المدينة من جهة الباب المؤدي الى قصر النساء الذي تقيم فيه جهان أو جلنار حتى اذا فتح البلد ودخل الناس للنهب قبض هو على قصر النساء وسلم جهان الى من يحتفظ بها ثم يلتفت الى قيادة الجند

الفصل الخامس والخمسون

التل

اما ضرغام فلما تهيأ رجاله للمسير مشى بهم ووردان دليلهم وداروا حول التل حتى وصلوا الى مكان فيه يشرف على البذ من جهة الغرب فمكثوا هناك وقد مضى العشاء واظلمت الدنيا فامرهم ضرغام ان يتربصوا وهم على اهبة الهجوم وانفرد بوردان على اكمة ونظرا الى البذ فرأيا فيه انواراً متفرقة كما يطل القادم على بلد في الليل من بعيد فانه لا يرى الا انواراً ويندر ان يتبين شيئاً من ابنيتها او قلاعها . وعلم ضرغام ان ورداں يعرف البذ فاخذ يسأله عن مواقع تلك الانوار فقال « ان اقرب هذه الانوار الى السور واكثرها شعشعة انوار قصر بابك وهو الذي سنفتحه أو نقتل تحته ونرى انواراً بعيدة في الجانب الآخر من البلد فهناك قصر النساء ولا اظنك تجهل استكثار هذا الرجل من النساء وانغماسه في الملذات »

قال « كلا .. وقد اخبرتني بالتغيير الذي اصابه من عهد غير بعيد وان سبب ذلك التغيير امرأة من نسائه ذات عقل وتدبير ... كم ينبغي ان تكون تلك المرأة عاقلة ! »

قال « انها عاقلة ولذلك يقال انها غالبة على رأيه لا يقطع امراً الا بمشورتها »

فتنهد ضرغام و بلع ريقه وقال « ما لنا ولذلك الان دعنا ننظر في الطريق الذي سنتخذه في الهجوم ... ما الذي يحول بيننا وبين المدينة الآن ؟ »

قال « بيننا وبينها واد »

قال « وكيف نقطعه »

قال « نقطعه من مكان كالجسر فوقه ومتى صرنا في الجانب الآخر كنا قريبين من السور فنهجم عليه ونتسلقه . ولا اظننا نجد عليه حامية لان الخرمية لا يخطر لهم ان عدوهم يأتيهم من هذا الطريق الوعر أو يجسر على النزول من هنا »

قال « هلم بنا ننزل »

قال « تمهل يا مولاي حتى تطمئن القلوب ويهجع الناس ولا يحـ ن بنا المسير الا بعد نصف الليل وبعد أن نرى النار التي سيوقدها الافشين »

قال « حسناً » وتحول الى رجاله واوصاهم بالسكون والتربص في اماكنهم وان لا يوقدوا ناراً ولا يخرجوا صوتاً حتى يأمرهم بالتقدم ثم تركهم واشار الى وردان فلحقه فلما خلا به قال له « تعال نتجسس الممر الذي قلت عنه لنرى هل هو سالم أو لعل فيه عقبة »

فاستحسن وردان رأيه وعجب لسهره على جنده ومشيا مدة طويلة في ارض صخرية كثيرة الحجارة يتلمس الماشي ارضها تلمساً وكان الظلام مخيماً لا يرى الرجل الا ما بين يديه • وقد ساد السكون لا يسمع في ذلك الهدوء حفيف شجر ولا خرير ماء أو نقيق ضفادع لكنه قد يسمع كشيش ثعبان ينساب بين الصخور أو رفرفة ناعق يحلق في الجو • فلما مشي ضرغام ورفيقه كان لوقع اقدامهما صوت بذلا الجهد في اخفائه لئلا ينمّ عن مكانهما

مشيا ساعة في مثل ذلك حتى اقتربا من الوادي ورأيا فوقه شبه جسر من الصخور يمر عليه الاثنان والثلاثة معاً . فقال ضرغام « تحدثني نفسي ان اسير توًّا الى السور فاصعد عليه والناس في غفلة ومتى صرت داخل السور يشتد ازر المسلمين بي فيكون هجومهم ادعى الى الظفر »

فقال « اخاف عليك كميناً أو مخبأ والاحسن ان نعود معاً او اعود انا وحدي ونستدعي الرجال ونتعاون على العمل »

قال « اذهب انت واتركني هنا حتى تعود بهم »

فقال « احذر يا مولاي .. واذا رأيت داعياً نادِ وردان واذا مكثت ولم تحرك ساكناً لا خوف عليك »

قال « اني ماكث هنا حتى تعودوا »

فتحول وردان صاعداً نحو الفراغنة وظل ضرغام وحده فلما خلا بنفسه طر الى السور فوجده على بعد مئتي خطوة منه فلم تطاوعه نفسه على الانتظار في مكان واحد فرأى أن يتمشى الهويناء حتى يصل الى السور ثم يعود . فمشى وهو لا يعرف

الطريق وانما جعل وجهته السور . وكان ينقل قدميه وهو يحاذر أن يسمع وقعهما ويرفع السيف بيده لئلا يلطم حجراً فيخرج صوتاً . ولما دنا من السور وجده عالياً وعليه الابراج ولكنه لم يسمع صوتاً ولا رأى نورًا الا في برج كبير فوق الباب رأى فيه ضوءًا ضعيفاً . ولم يسمع الا صهيلاً بعيداً كأنه آت من داخل المدينة

حتى اذا صار على مقربة من السور سمع حركة فوقف ويده على قبضة حسامه وما شعر الا وعشرات من الرجال خرجوا من وراء الصخور بين يديه ومن خلفه وبايديهم السيوف مشرعة كانهم كانوا ينتظرون قدومه فتحقق انه كمين خرج عليه فاستل حسامه وصاح فيهم صيحة اجفلتهم ووثب وثوب الاسد يضرب ذات اليمين وذات اليسار ضرب رجل شديد البأس قوي القلب يطلب الموت وكانوا يفرون من امامه فرار الظباء من الاسد وهو يتبعهم ولا يدري ما نصبوه له فما درى الا وهو يهوي في حفرة فانقلب وسقط السيف من يده وقد شدت الحبال حول قدميه وكتفيه واخذوا في استخراجه من الحفرة . واذا هو يسمع جلبة وقرقعة ودبدبة وصوت وردان ينادي لبيك يا سيدي . فتحول الكمين نحو الصوت وتركوا عند ضرغام من يخفره . وعلم ضرغام ان رجاله اتوا لانقاذه ولا يزالون بعيدين فزار زئير الاسد ونادى « وردان اقطع هذه الحبال »

فما كان الا كلمح البصر حتى وصل وردان اليه وقطع الحبال . فلما افلت ضرغام تناول سيفه وصاح بالحرمية ورجاله وقتل اكثرهم وفر الباقون ولم تمض ساعة حتى خلت تلك الساحة منهم فصاح ضرغام في رجاله هلم الى السور . وما أتم كلامه حتى سمع صوتاً هائلا كأنه دبدبة جبل يتدحرج واذا بوردان يقول « تنحَّ يا سيدي انهم يدحرجون عجلات من اعلى الجبل عليها صخور كبار[1] لا تلبث أن تصل الينا ولا تفيد الشجاعة في دفعها »

فتنحى ضرغام وقد كلت ذراعه من كثرة الضرب والطعن ولو لم ينبهه الى التنحي من طريق العجلات لقتل تحت واحدة منها اذ لم يمض يسير حتى وصلت كالسيل الجارف أو كالرجم المتساقطة أو هي كجلمود صخر حطه السيل من علِ

(١) ابن الاثير ١٩٢ ج ٦

ولما استقرت تلك العجلات في آخر انحدارها جاء بعضها بلصق السور تماماً بحيث يمكن التسلق فوقها الى سطحه • وشاهد ضرغام ذلك فصاح برجاله « على السور » وركض امامهم وسيفه مشرع ولم يكد يفعل حتى رأى ظهر السور قد امتلأ بالرجال وفي ايديهم النبال فاخذوا يرمون بها على الهاجمين وهولاء لا يبالون وفي مقدمتهم ضرغام وقد وقعت قلنسوته وتمزق قباؤه وانتبش شعره وتقطعت سراويله • ولو رأى نفسه بمرآة في تلك الساعة لانكر انه هو ضرغام صاحب الخليفة

وكان وردان يقتص اثر ضرغام فرآه قد صعد على احدى العجلات بقرب الباب وهمّ بتسلق السور فعمل مثل عمله واذا بباب السور قد فتح بعضه وخرجت منه فرقة من الخرمية احاطة بالعجلة ومن عليها والقوا الحبال على ضرغام ووردان فتحولا واعملا السيف في الحبال فتقطعت وصاح ضرغام « ما بالكم تحاربوننا بالحبال اين سيوفكم ايها الجبناء »

فلم يجبه احد منهم وهو واقف على العجلة يعمل السيف فيهم حتى زلقت قدمه عن خشب العجلة فوقع وارتطم رأسه بحجر فغاب رشده . فلما رآه وردان في هذه الحال شغل به عن نفسه فتكاثر عليهما الرجال وقبضوا عليهما وحملوهما الى داخل السور

فصعدوا بهما الى البرج فوق الباب والقوهما بين يدي رئيس حامية ذلك الباب فامر بالماء فرشّ على ضرغام فلما صحا تحفز ليقبض على سيفه ويهمّ بالوثوب فاذا هو موثق بين يدي صاحب الحامية والتفت فرأى وردان الى جانبه في مثل حاله فعظم عليه الاسر فصاح في القوم قائلاً « عار عليكم ان تلجأوا في النجاة الى الحبال فان كنتم رجالاً حكموا السيف ••• اقتلوا ولا تأسروا »

الفصل السادس والخمسون

المكاشفة

قال ضرغام ذلك والتفت فرأى رئيس الحامية جالساً على مقعد وعليه القلنسوة

والسراويل من لباس الخرمية ولم يتفرس فيه لضعف النور وشاهد بين يديه جماعة من رجال الحامية الذين نجوا من المعركة وعليهم آثار القتال وسمعهم يلغطون بالفارسية وهو يعرفها فخاطب الرئيس بها بمثل ما قال بالعربية فلم يجبه . ولكنه اشار الى رجاله فخرجوا واغلق الباب وراءهم وتقدم الى ضرغام فحل وثاقه ثم وثاق وردان وقال بالعربية « قم يا ضرغام ••• قم واجلس »

فلما سمع ضرغام الصوت اجفل لانه يعرف صاحبه والتفت الى الرجل وتفرس في وجهه فعرفه فصاح « حماد ؟ »

قال « نعم حماد » وهو صديقه خطيب ياقوتة . فنظر اليه والدهشة بادية في وجهه وقال « ما الذي جاء بك الى هذا المكان »

قال « جئت بعد مفارقتك اياي قرب همذان بيضعة ايام لسبب لا تجهله وقد دخلت في خدمة هذا المجوسي طلباً للانتقام من صاحبك الظالم •• اما كان الاجدر به ان يدخر هذه السيوف في الدفاع عنه بدلاً من ان تكون عليه ؟ »

فابتسم ضرغام رغم ما هو فيه من القنوط وقال « ليس صاحبي ظالماً » ثم تذكر وعده البحث عن جهان فقال « خفف عنك اني حامل اليك خبراً يسرك وارجو ان تكون حاملا مثله لي »

فبغت حماد وبدت الدهشة في عينيه وقال « ماذا ؟ هل وجدت ياقوتة ؟ واين هي »

قال « نعم وجدتها وهي الآن في منزلي بسامرّا عند والدتي معززة مكرمة »

فظن حماد نفسه في حلم لفرط دهشته ولم يتمالك عن النهوض من شدة الفرح وقال « ياقوتة في منزلك الآن ؟ » واكب عليه وقبل رأسه ووجهه وهو يقول « هل هي في خير وصحة . ؟ اني اشكر لك فضلك •• ثم تراجع وتغيرت سحنته كأنه تذكر امراً ازعجه وقال « ولكنني لسوء الحظ لم اوفق الى خدمتك مثل توفيقك في خدمتي. على اني لم ادخر وسعاً في السعي والاستفهام •••• كيف فعلت انت هل وقفت على خبر جهان ؟ »

قال « لم اغادر وسيلة من وسائل البحث وذهب سعيي عبثاً » وسكت وقد

انقبضت نفسه و بدا الاهتمام في وجهه وقال « لو انك تركت رجالك يجهزون عليّ لفعلت خيراً معي لاني لم آت هذه البلاد التماساً للفخر بالفتح أو الكسب بالغزو وانما اتيت لالقى حتفي واتخلص من هذه الحياة » قال ذلك وهو يحرق اسنانه و يتململ

فشعر حماد بحقيقة حاله فاخذ يخفف عنه فقال « لا تيأس يا صديقي البطل من الفرج فانه يأتيك وان حسبته مستحيلاً .. انت تعلم ما كان من امري مع ياقوتة وكيف تركت وطني واهلي يأساً منها وها انت تقول انها سالمة فاتاني الفرج من حيث لا انتظر. ولا اخفي عنك اني هممت بمثل فعلك وكدت اعرض نفسي للقتل .. ولكنني وقفت الى امر هدأ روعي وساعدني على الصبر اظنك لو وقفت اليه لصبرت مثلي »

وكان ضرغام يسمع حديثه وهو غارق في الهواجس ولحظ حماد فيه ذلك فاستلفت انتباهه بيده فوضعها على كتفه ثم نزع بها قطعة من تراب مجبولة بالدم كانت لاصقة عليه من جملة لطخ الدم على ثيابه التي تقطعت أو تناثرت . فانتبه ضرغام لكلام حماد فاصغى فقال حماد « ألم توفق الى فتاة تشبه حبيبتك فتتعزى برؤيتها ... ان ذلك يخفف كثيراً من لوعة البعد و يساعد على الصبر .. »

فتذكر ضرغام مشابهة ياقوتة لجهان فقال « نعم وفقت الى ذلك ولكنني لم اشعر بما يخفف اللوعة وكانت رؤية ذلك الشبيه كثيراً ما تهيج اشجاني .. »

فهز حماد راسه هزة الاستغراب وقال « اما انا فاني استأنس بشبه ياقوتة استئناساً يكاد يذهب بقنوطي وان لم يكن لي وصول اليها . فقد رأيت لياقوتة شبيهة في هذه المدينة هي اعز نسائها جانباً واسماهنّ رتبة وامنعهن مقاماً لكنها لا تحتجب فتخرج مسفرة لا تبالي ان يراها الناس وكنت كلما نظرتها تيمنت بطلعتها وتعللت برؤيتها كالظمآن يستغني بالفاكهة الرطبة عن الماء الزلال »

وكان وردان جالساً يسمع ولا يقلّ عنهما قلقاً ولكنه رأى من الأدب ان لا يدخل في الحديث من تلقاء نفسه فلما سمع حماداً يذكر شخصاً يشبه ياقوتة تذكر شبه ياقوتة لجهان وهمّ ان يستوضح حماداً فرأى ضرغام قد سبقه الى ذلك وقال بلهفة « واين رأيت شبيهة ياقوتة ؟ »

قال « رأيتها في هذه المدينة في قصر بابك نفسه ... لا اظنكم تجهلون الفتاة

التي قامت بنصرة بابك وغيرت طباعه وردّته عن الرذائل التي كان غارقاً فيها . . »

قال وردان « اظنك تعني جلنار »

قال « نعم اياها اعني .. انها تشبه ياقوتة شبهاً عجيباً فكنت اذا رأيتها حسبت ياقوتة امامي . وكانت تتردد الى قصر بابك أو تخرج معه على فرسها مكشوفة الوجه فلم اشاهد في حياتي اجمل منظراً ولا اكثر هيبة وجلالاً منها »

فاحس ضرغام للحال باختلاج قلبه ولو كان الضوء كافياً لرأى حماد الدم يتصاعد الى وجنتيه وقد ابرقت عيناه واطرق لحظة راجع فيها ما يذكره عن ياقوتة ومشابهتها لجهان فقال في نفسه لعل هذه جهان فالتفت الى حماد وقال « ومن هي جلنار هذه ومن اين اتت »

قال « هي من جملة نساء بابك حملت اليه من بلد بعيد كما حمل عشرات من امثالها لكنها كانت اشدهنّ تأثيراً عليه وقد أثرت في نفسه مثل تأثير السحر . فبين ترى رفيقاتها مختبئات في قصر النساء اذا رأينَ بابك سجدن له تراها راكبة فرسها الادهم تجول في المعسكر تأمر وتشير وامرها نافذ على الكبير والصغير »

فلما سمع ضرغام قوله « فرسها الادهم » احس باعضائه ترتعد أو هي قشعريرة البغتة ولم يتمالك عن النهوض وهو يقول « فرسها ادهم .. جهان جهان .. اين هي .. حماد اين هي ؟ »

فاستغرب حماد لهفته ولم يفهم مراده فقال « كيف عرفت انها جهان واسمها جلنار »

قال « عرفت ذلك من وصفك فقد ذكرت انها تشبه ياقوتة وانا اعرف ياقوتة وهي شديدة الشبه بجهان وذكرت ان جوادها ادهم وانها حملت من بلد بعيد وكلها تنطبق على وصف جهان ولا عبرة بتغيير الاسم . فانت تعرفني مثلاً باسم ضرغام وليس في سامرّا احد يناديني بهذا الاسم الآن فاني اسمى الصاحب ... فهي جهان بلا شك وقد شعرت بذهاب اليأس من قلبي .. قل اين هي الآن »

قال « اظنها في قصر النساء لانها تبيت هناك وتخرج عند الحاجة الى قصر بابك »

فتنهد ضرغام تنهد الفرج وتحوّل يأسه الى الاهتمام ونظر الى ثيابه الممزقة وهو

يهم بالخروج للبحث عن جهان فاستوقفه حماد وقال « اخلع ثيابك والبس ثياب الخرمية حتى لا ينكرك الناس وكذلك يفعل وردان وفي صباح الغد نخرج معاً الى قصر النساء »

فقطع ضرغام كلامه قائلاً « اصبر الى الغد ؟ .. كيف اصبر .. وهب اني صبرت فهل تصبر المدينة وقد احدق بها المسلمون من كل ناحية ولا بد من اخذها الليلة . ومن العجب ان يخفى ذلك عليك »

قال « لا تستغرب ذلك لاني من جملة قواد بابك وقد انتدبني في هذه الليلة لحراسة هذا الباب لان بعض الجواسيس انبأه بعزمكم على الهجوم من هذه الناحية فاتيت في الغروب واقمت الكمناء حتى رأيناكم قريبين فامرتهم بالهجوم عليكم وكان ما كان .. تعال بدل ثيابك » والتفت الى وردان ليقول له ذلك ايضاً فوجده مطرقاً وقد اخذت الهواجس منه مأخذاً عظيماً فقال « ما بالك يا صاحبي ألعلك مصاب مثل مصابنا »

فتنهد وردان وقال « نعم يا سيدي .. وستعلم ذلك متى خرجنا الى قصر النساء . وانا ارى الخروج الآن كما يرى مولاي الصاحب ضرغام »

فاطاعهما وبعد ان لبسا زي الخرمية خرج بهما وقد اوصى رجاله بخفارة الباب حتى يعود — يوهمهم ان الاسيرين الذين حملوهما اليه دخلا في جملة الاسرى الذين قبضوا عليهم في تلك الليلة . فلما اطل حماد عن السور رأى البذ كثيرة الاضواء وسمع الضوضاء في وسطها فصاح في رجاله فلم يجد منهم احداً فنادى خادمه فاسرع اليه فقال « اين الرجال »

قال « ألم تسمع يا مولاي طبل الهجوم »

قال « كلا » وكأنه شغل عنه بما كان فيه من الدهشة

فقال الغلام « ضربت الطبول وصدر الامر ان يجتمع الرجال للدفاع عن الباب الشرقي لان المسلمين داهمونا ليلاً وهجم معظمهم عليه ويقال ان قائدهم الاكبر معهم هناك »

فقال « الافشين نفسه ؟ »

قال « لا ادري »

فالتفت وردان وضرغام معاً الى معسكر الافشين فرأيا النار المثلثة موقدة وتحقق الهجوم فقال ضرغام « هل ترى مانعاً من الذهاب الآن الى ذلك القصر » وقد همه الاسراع في الذهاب لما سمع بذهاب الافشين الى هناك فدبت الغيرة في قلبه على جهان

الفصل السابع والخمسون

سقوط البذ

فقال حماد « لا مانع عندي » وركب كل منهم فرساً من افراس الخرمية واركضوها نحو قصر النساء فلقوا اهل البلد في هرج وخوف ولم يبق احد منهم الا وهو يدافع عن نفسه ولم يشك الخرمية الذين شاهدوا حماداً ورفاقه انهم منهم . ثم رأوا نفراً من المسلمين في وسط المدينة ينهبون واصبحوا كلما اقتربوا من الباب الشرقي رأوا المسلمين يتكاثرون فتحققوا ان البلد قد اخذ فلم يبالوا بشيء من ذلك في جانب ما كانوا فيه من اللهفة تعجلاً للوصول الى قصر النساء ولما وصلوا اليه رأوا جنود المسلمين يخرجون منه وقد اخذوا في نهب الامتعة والرياش ورأوا بعضهم يقود بعض النساء فاختلج قلب ضرغام لئلا تكون جهان اصيبت بسبي او اسر فدخل القصر مع وردان فقال لهما حماد « تمهلا فانا استطلع الخبر اليقين من مصدره » قال ذلك وتحول الى غرفة بقرب الباب رآها موصدة من الداخل فقرعها فلم يسمع جواباً فكلم الذين فيها بلسانهم ففتحت الباب امرأة كهلة اذنت بدخولهم واقفلته وهي ترتعد من الخوف فقال لها حماد « ما الذي جرى يا خالة ؟ »

قالت « ألم تر ما جرى ؟ . فتحوا المدينة وكأنهم فتحوها لاجل هذا القصر فدخلوه ونهبوه وسبوا نساءه وحملوا رياشه ولو لم اختبئ هنا أو لو كان فيَّ جمال أو لي مال لاخذوني ولكنهم اكتفوا باخذ حليّ وانصرفوا »

فلما سمع ضرغام قولها « سبوا نساءه » ارتعدت فرائصه ولم يكن وردان اقل منه اضطراباً ولكنه كان اصبر منه على كتم شعائره وادرك حماد لهفتهما فقال للقهرمانة « اخذوا كل النساء »

قالت « نعم »

قال « وجلنار ايضاً ؟ »

قالت « لا .. جلنار لم يأخذوها »

قال « اين هي ؟ »

فنظرت الى رفيقيه وترددت في الجواب وهي تحك وراء اذنها كأنها تكتم شيئاً تخاف ظهوره فقال لها « قولي لا تخافي »

قالت « ان مولاتنا جلنار ورفيقة لها من نساء بابك رومية الاصل خرجتا منذ بضعة ايام في مهمة لخدمة بابك .. »

فقطع وردان كلامها وتصدى للاستفهام بجسارة فقال « وما هو اسم تلك الرومية يا خالة ؟ هل تعرفينها ؟ »

قالت « كيف لا اعرفها .. وانا قهرمانة هذا القصر اعرف تاريخ نسائه واحدة واحدة فجلنار مثلاً لا يعرف اهل البذ عنها شيئاً واما انا فاعرف اصلها وفصلها منذ حملت الينا من فرغانة واسمها يومئذ جهان بنت المرزبان ثم تسمت جلنار واحبت هذه الرومية وصادقتها وتوافق ذوقاهما حتى ذهبتا في هذه المهمة معاً » فتحقق الجمع ان جلنار هي جهان نفسها ولم يبق مكان للشك اما وردان فلم ينل الجواب المطلوب فقال « سألتك عن المرأة الرومية ما هو اسمها وهل غيرته ايضاً ؟ »

قالت « اسمها هيلانة ولم تغيره منذ حملوها من زوجها البطريق في ارمينيا »

فبانت البغتة في وجه وردان ولم يتمالك ان قال « هيلانة .. هي هي زوجتي .. »

فانتبه ضرغام للحال ان خادمه وردان بطريق من بطارقة ارمينيا وان بابك اغتصبه امرأته ولم يستغربوا ذلك من بابك ولكنهم استغربوا تنكر وردان بحال الخدم فالتفت ضرغام اليه لفتة تهنئة وعتاب وقال « انت بطريق وتوهمني انك خادم : والله اني رأيت فيك نفس الرجل العظيم منذ عرفتك .. »

فقال « لجأت اليك ودخلت خدمة المسلمين توصلاً الى هذه الساعة التي انتقم فيها من ذلك الفاسق الظالم فارجو ان يكون قد قبض عليه ونال جزاء فعلته »

فقال حماد « ان لم يكن فرَّ فانه واقع في الاسر لان المدينة فتحت وقضي الامر » ثم عاد حماد الى الاستفهام فقال للقهرمانة « لم تخبرينا يا خالة عن الجهة التي سارت اليها جلنار وهيلانة »

قالت سارتا معاً الى بلاد الروم يستنجدونهم على المسلمين . استنبطت هذا الرأي جلنار انتصاراً لبابك ووافقتها هيلانة وصحبتها لان اصلها من اعيان تلك البلاد وتعرف لسانهم »

قال حماد « ومولانا بابك اين هو ؟ »

قالت « ليس مولانا في البذ الآن ولا هو اسير »

قال « فاين هو .. اخبرينا لا تخافي ان البلد قد اخذه المسلمون وهم ابقى لنا من سواهم . وانا اعلم انك اخبر الناس بما يعمله بابك »

قالت « بقي بابك في المعركة يناضل ويدافع حتى تحقق سقوط المدينة فاتاني واصطحب من شاء من نسائه مع احمال الطعام والشراب وخرج واظنه غادر المدينة واوغل في ارمينيا »

فنظر حماد الى ضرغام كانه يسأله عما يريده بعد ذلك فاشار اليه بالانصراف فخرجوا يلتمسون مكاناً يتداولون فيه بماذا يفعلون وقد لاح الصباح . فقادهم حماد الى مكان يعرفه وشاهدوا جند المسلمين في اثناء الطريق ينهبون المدينة ويهدمون بيوتها ويحرقون قصورها حتى لا يبقى فيها ملجأ لعدو ولا صديق

ولما وصلوا الى المكان قال ضرغام « ماذا يرى البطريق وردان في ما نحن فيه . تقول القهرمانة ان جهان وهيلانة سافرتا الى بلاد الروم . وهي بلاد واسعة ولو عرفنا البلد الذي تنزلانه لقصدناه » فضحك وردان لتسميته بالبطريق وقال لا حاجة بي الى هذا اللقب يكفيني اني صديق ضرغام . واما من حيث جهان وهيلانة فاذن لي ان اضرب في البلاد وابحث عنهما ولا اعود حتى اعرف مقرهما »

فقطع حماد كلامه وقال « كلا . . لا يذهب احد في هذه المهمة سواي اني اشعر

بفضل ضرغام عليَّ لانه انقذ خطيبتي من يد الاعداء واحتفظ بها في بيته مكرمة معززة فاذا لم اخدمه بما يعوض بعض ذلك الفضل كنت لئيماً . فاذنا لي في الذهاب وحدي ابحث وافتش ومتي وقفت على شيء بعثت اليكما »

فقال ضرغام « ليس من العدل ان تكون عالماً بمكان ياقوتة وهي في لهفة القياك وتذهب في مهمة اخرى .. »

قال « لا تجادلني .. لست راجعاً الى اهلي قبل ان افرغ من طلب اهلك واهل هذا الصديق الارمني. لقد سررت بمعرفته سروراً كثيراً . وأما ياقوتة فانت راجع الى سامرا طمئنها عني وبشرها باللقاء »

فقطع وردان كلامه واخبره كيف ان الخليفة امر ضرغاماً ان يتزوجها فلم يفعل والخليفة يظنه تزوجها . فصاح حماد وقد ثارت الاريحية في رأسه « ويستعظم مع ذلك ان اخدمه في البحث عن عروسه »

قال « كلا ولكني اسير معك لاني اعرف البلاد ولغتها وطرقها » فقال « لاحاجة بي الى احد منكما استودعكما الله من هذه الساعة » قال ذلك وخرج . فلما خلا ضرغام بوردان قال ضرغام « احسبني في منام يا وردان ان الفرق بين اليوم والامس كالفرق بين الرجاء واليأس . ولكن ... »

فقطع وردان كلامه بتنهيدة وقال « وانا احسبني انتقلت من الجحيم الى النعيم . لاني كنت شديد الكلف بامرأتي وبلغ من جسارة ذلك الوحش الكاسر ان يطلب التزوج بها فلما ابيت بعث جنداً حملها اليه بالقوة ... لعنه الله من مجوسي فاسق . آه لو ظفرت به لاشربنَّ دمه » قال ذلك وحرق اسنانه

فقال ضرغام « لعل الافشين ظفر به ونحن لا نعلم . وارى ان نعود الى المعسكر »



الفصل الثامن والخمسون

القبض على بابك

وكان الافشين قد احسن تدبير ذلك الهجوم حتى فتح البذ وقتل الخرمية عن آخرهم واخذ اولاد بابك وعيالاته الا جهان وهيلانة لانهما كانتا غائبتين كما علمت . وبعد ان احرق المدينة وتحقق فرار بابك عاد الى معسكره في روذ الروذ وقد ساءه انه لم يظفر بجهان ولا علم مكانها فارتاب في اقوال سامان على انه حسب جهان فرت معه . وبلغ مقدار ما اخذوه من السبي شيئاً كثيراً لا يعدُّ ولا يحصى وبين الاسرى كثيرون من ابناء الاحرار وفيهم العرب والفرس وابناء الدهاقين فامر بهم فجعلوا في حظيرة كبيرة وامرهم ان يكتبوا الى اوليائهم فكل من جاء يعرف امرأة او صبيا أو جارية واقام شاهدين أخذه (١) . فاخذ الناس منهم خلقا كثيراً وبقي كثير منهم

وكتب الافشين الى ملوك ارمينيا وبطارقتهم يقول لهم « ان بابك هرب وعدة معه وهو مار بكم » وامرهم بحفظ نواحيهم ومراقبة مسيره وندم على تفريطه بضرغام وهو يحسبه قتل لان بعض الفراغنة الذين كانوا معه اخبروه انه اخذ اسيراً وربما مات لانهم شاهدوه محمولاً بين حي وميت لكنهم لم يجدوه بين القتلى

وعاد ضرغام في اليوم التالي مع وردان الى معسكر المسلمين فرحب به الافشين وهنأه بالسلامة واطرى ما سمعه عن بسالته في ليلة الهجوم وبالغ في الاطراء حتى يبعد ما يخافه من سوء ظنه. واختصه بالمداولة في الشؤون الهامة واهمها يومئذ فرار بابك واخبره بما فعله من السعي في القبض عليه فقال ضرغام « ان خادمي وردان ارمني الاصل والوطن وهو يعرف هذه البلاد معرفة جيدة استخدمه في هذا السبيل . واذا شئت اتيتك به الساعه »

قال « افعل »

فنادى غلاماً امره ان يستقدم وردان وكان خارج الفسطاط فلما دخل حيا ووقف

---

(١) ابن الاثير ١٩٤ ج٦

بتأدب فقال له الافشين « أتعرف طرق ارمينيا ومسالكها يا وردان ؟ »

قال « نعم ياسيدي على قدر الامكان »

قال « اين تظن ذلك الخرمي يختبىء والى من يلتجىء »

قال « لا اظنه يلتجىء الى بلد لان اهل ارمينيا يكرهونه ويتمنون قتله ولكنني احسبه يختبيء في بعض الغابات أو الاودية واشهرها الوادي الاكبر المسمى الغيضة وهي كثيرة العشب والشجر بين اذر بيجان وارمينيا لا يمكن الخيل نزولها ولا يرى من يختفي فيها لكثرة شجرها »

فاستفاد الافشين من تلك المعلومات ثم صرف وردان وبعث جواسيسه للبحث في تلك الغيضة فعادوا اليه واكدوا اختباءه هناك . وكان الافشين قد بعث الى المعتصم استكتبه كتاب امان لبابك فلما جاء كتاب الامان دعا الافشين بعض الذين استأمنهم من اصحاب بابك واعلمهم بذلك وامرهم ان يسيروا اليه بالكتاب وفيهم ابنه فلم يجسر احد منهم خوفاً منه فقال انه يفرح بهذا الامان فقالوا نحن اعرف به منك فقام رجلان فقالا اضمن لنا انك تجري على عيالاتنا فضمن لهما فسارا بالكتاب فلما رأياه اعلماه ما قدما له فقتل احدهما وامر الآخر ان يعود بالكتاب الى الافشين . وكان ابنه قد كتب اليه معهما كتاباً فقال لذلك الرجل « قل لابن الفاعلة ان كنت ابني لحقت بي ولكنك لست ابني ولئن تعيش يوماً واحداً وانت رئيس خير من ان تعيش اربعين سنة عبداً ذليلاً » وقعد في موضعه . فلم يزل في تلك الغيضة حتى فني زاده وخرج من بعض تلك الطرق وكان من عليه من الجند قد تنحوا قريباً منه وتركوا عليه اربعة نفر يحرسونه. فبينما هم ذات يوم نصف النهار اذ خرج بابك واصحابه فلم يروا العسكر ولا اولئك الذين يحرسون المكان فظن ان ليس هناك احد فخرج هو وعبد الله اخوه وامه وامرأة اخرى وساروا يريدون ارمينيا فرآهم الحراس فارسلوا الى اصحابهم اننا قد رأينا فرساناً لا ندري من هم . وكان ابو الساج هو المقدم عليهم فركب الناس وساروا نحوهم فرأوا بابك واصحابه قد نزلوا على ماء يتغدون. فلما رأى بابك العساكر ركب هو ومن معه فنجا هو واخذ ام بابك والمرأة الاخرى فارسلهما ابو الساج الى الافشين وسار بابك في جبال ارمينيا مستخفياً وكان بطارقة ارمينيا يراقبون مسيره فاحتال بعضهم حتى خدعه وادخله

حصنه وارسل الى الافشين يعلمه بذلك فبعث الافشين يعده ويمنيه وهو يأبى التسليم . ثم احتال صاحب الحصن عليه حتى اخرجه بحجة الصيد وانبأ الافشين بخروجه فتمكنوا من القبض عليه ومعه اخوه عبدالله وحملوه الى الافشين (١)

فلما قرب بابك من المعسكر صعد الافشين وجلس ينظر اليه وصف عسكره صفين وامر بانزال بابك عن دابته فنزل ومشى بين الصفين فادخله بيتاً في برزند ووكل به من يحفظه وانعم على الذين سلموه وكتب الى المعتصم بذلك . فامره بالقدوم اليه به و باخيه فانتقل بجنده وحاشيته من برزند الى سامرا (سنة ٢٢٣ هـ) ومعه بابك واخوه عبدالله وكان المعتصم يوجه الى الافشين في كل يوم من حين سار من برزند الى ان وافى سامرا خلعة وفرساً . فلما صار الافشين بقناطر حذيفة تلقاه هرون الواثق بن المعتصم واهل بيت المعتصم وانزل الافشين بابك عنده في قصره بالمطيرة فأتاه احمد ابن ابي داود متنكراً فنظر الى بابك وكلمه ورجع الى المعتصم فوصفه له فأتاه المعتصم ايضاً متنكراً فرآه . فلما كان الغد قعد المعتصم واصطف الناس من باب العامة الى المطيرة فشهره المعتصم وامر ان يركب على الفيل فركب عليه واستشرفه الناس الى باب العامة فقال محمد بن عبد الملك الزيات :

قد خضب الفيل كعاداته يحمل شيطان خراسان

والفيل لا تخضب اعضاؤه الا لذي شأن من الشان

ثم ادخل بابك دار المعتصم فامر باحضار سياف بابك فحضر فامره المعتصم ان يقطع يديه ورجليه فقطعها فسقط فامره بذبحه ففعل وشق بطنه وانفذ رأسه الى خراسان وصلب بدنه بسامرا وامر بحمل اخيه عبدالله الى اسحق بن ابراهيم ببغداد وامره ان يفعل به ما فعل هو باخيه بابك ففعل به ذلك وضرب عنقه وصلبه في الجانب الشرقي بين الجسرين (٢) وكان ذلك آخر العهد بتلك الدولة

اما ضرغام ووردان فكانا من جملة الذين رجعوا مع حملة الافشين وتاهدا مقتل بابك فاشتفيا بقتله ولكن ضرغاماً ودّ لو انه قتله بيده في وسط المعركة . وحال وصولهم الى سامرا سار ضرغام الى منزله وقبل يدي والدته وسلم على ياقوتة وبشرها بوجود حماد

(١) ابن الاثير ١٩٣ ج ٦ (٢) ابن الاثير ١٩٥ ج ٦

فلم تعد تعرف كيف تشكره . واخبر والدته طرفاً من خبر جهان وانه عرف بوجودها وهي لا تعرف بوجوده وانها ذهبت الى بلاد الروم وان حمادا ابت شهامته الا ان يبحث عنها بنفسه . قال ذلك ويافوتة حاضرة ونظر اليها وابتسم وهو يقول « اظن هذا الخبر يسوءك ... ولكنه ابى الاَّ الذهاب »

فتوردت وجنتاها خجلاً واطرقت وقالت « مهما فعلنا لا نكافئك على فضلك فانك انقذتني من القتل والعار وكفلتني ودللت حماداً عليَّ... »

فقطع كلامها قائلاً « لم افعل الا الواجب . . وقد جاء عملي مطابقاً لرأي امير المؤمنين وكل ما يريده امير المؤمنين لا فضل لنا في اتباعه لاننا صنائعه وعبيده »

ورأى ضرغام في وجه ياقوتة تغيراً وفي عينيها ارتباكاً كأنها تذكرت امراً يمنعها الحياء من ذكره فقال « ماذا تريدين ؟ ما الذي خطر لك ؟ »

قالت « قد اذكرني تفانيك في نصرة امير المؤمنين امراً لاحظته في اثناء اقامتي ببيت الحارث السمرقندي اخافه على حياة امير المؤمنين . سمعت كلاماً يدلُّ على مؤامرة يسعون فيها لقتله »

فاظهر ضرغام الاستخفاف بذلك الخبر وقال « ان امثال هذه المؤامرات كثيرة والذي يصح منها قليل فلا ينبغي لنا ان نحتفل بها — وسبب هذه المؤامرات على الغالب جهل بعض اهل الخليفة الاقربين فيحسن لهم ارباب المطامع من الوزراء أو القواد المطالبة بالخلافة ليستفيدوا من انتقالها — وهذا العباس بن المأمون قد حسن له بعضهم ان يطالب بالخلافة لنفسه ولاينالها الا اذا قتل المعتصم فهم يتآمرون ويتواطأون على قتله ولكنهم لا يفلحون » قال ذلك وفي صوته لحن التهديد كانه يقول انه يبذل دمه في مقاومتهم

فلما سمعت والدته كلامه اشرق وجهها وابتسمت ولو كان في عينيها نور لدلنا على ما خالج فؤادها من السرور بما قاله ابنها على انهــا قالت « بورك فيك يا بني هكذا تكون الامانة »

وبعد الاستراحة لبس ضرغام سواده وذهب للسلام على المعتصم وعنده الافشين وغيره من كبار القواد فلما دخل عليه هش له وقال « مرحباً بالصاحب البطل الهمام .

قد بلغنا ما كان من بلائك في الاعداء وما ابديته من البسالة والهمة بورك فيك . . ألا تزال ترى لقب الصاحب كثيراً عليك » واشار اليه بالجلوس قريباً منه

فاطرق خجلاً وبالغ في التواضع وهو يقعد وقال « ان العبد اذا قام بخدمة مولاه لا يستحق على خدمته اجراً واذا علم ان مولاه راض عن عمله فهي اكبر مكافأة له »

فالتفت الخليفة الى الافشين لفتة استفهام أو استشهاد فقال الافشين « ان الصاحب يا امير المؤمنين يندر مثاله في الشجاعة وصدق الخدمة » واخذ يطري اعماله يريد ان يمحو ما يخشى ان يكون خامره من سوء الظن . وعاد الخليفة نفسه الى الاطراء والثناء وامر له بالهدايا والخلع ولما انفض المجلس عاد ضرغام الى منزله وعادت اليه هواجسه في جهان . ولبث في انتظار ما يأتيه من عند حماد فكان يقضي اكثر اوقات الفراغ مع وردان يتحادثان فيما عسى ان يكون من امر جهان وهيلانة

الفصل التاسع والخمسون

كتاب حماد

وفي اثناء تلك السنة جاء الخبر الى المعتصم ان تيوفيل ملك الروم خرج الى بلاد الاسلام وشاع ذلك في سامرا وقد همّ ضرغاماً كثيراً لان قلبه في بلاد الروم فبعث الى وردان ليباحثه ويستطلع رأيه فلما جاء سأله عما يراه فقال « لا بد من علاقة بين هذا الخروج وفتح البذ وقد انبأني بعضهم ان بابك لما ضيق الافشين عليه واشرف على الهلاك كتب الى ملك الروم تيوفيل يخبره ان جنود المسلمين مشغولون به وهي فرصة يجب عليه ان ينتهزها لاكتساح مملكة الاسلام . ولم تظهر نتيجة تلك المكاتبة الا الآن وربما كان لجهان تأثير في حمله على ذلك »

قال « تحدثني نفسي انهما هناك »

قال « لو كانتا هناك لجاءنا الخبر من حماد لانه طبعاً انما يبحث عنهما حيث يكون

ملك الروم . ولا بد من الصبر »

قضى ضرغام في ذلك اياماً على مثل الجمر حتى جاءه وردان الى منزله ذات يوم مهرولاً واومأ اليه ان يتبعه فتبعه حتى انفردا في بعض جوانب الحديقة فدفع اليه اسطوانة ملفوفة بمنديل من الحرير فحل المنديل وفتح الاسطوانة فرأى فيها كتاباً من الكاغد قرأ في صدره اسم حماد فخفق قلبه فاخذ يتلوه وهذا نصه :

« من حماد العربي في عمورية الى الصاحب ضرغام في سامرا

« قد اطلت عليك السكوت واظنك مللت الانتظار ولكنني فعلت ذلك مكرهاً . قضيت اشهراً وانا ابحث عن الضائع ولا ادري كيف ابحث فبلغني ان تيوفيل ملك الروم قادم على زبطرا فهممت ان الاقيه هناك لعلي اعثر بضائعنا فما كدت ابلغ البلد حتى قيل لي ان الروم اكتسحوه واخربوه وسبوا الذرية والنساء واغاروا على ملطية وغيرها من حصون المسلمين وسبوا المسلمات ومثلوا بمن صار في ايديهم من المسلمين وسملوا اعينهم وقطعوا انوفهم وآذانهم وقد شاهدت بعض اولئك المجدوعين ورأيت الناس قد خرجوا من بلادهم في الشام والجزيرة فراراً من وجه الروم الا من لم يكن له سلاح او دابة . فلما رأيت ذلك عدلت من زبطرا وتذكرت ان ناطس بطريق عمورية زار البذ في عهد بابك وقد عرفته جهان فخطر لي انها ذهبت اليه وقد صدق ظني لاني علمت بعد دخولي عمورية ان جهان وهيلانة اتتا عمورية من البذ رأساً لتوسيط ناطس المشار اليه لدى ملك الروم في نجدة بابك فانزلهما ناطس في قصره ووعدهما خيراً ثم جاء الخبر بسقوط البذ وقتل بابك فلم يبق لهما حاجة في ارمينيا كلها فبقيتا في عمورية . ويظهر ان بطريقها ناطس شديد الحرص عليهما ولا سيما جهان وقد ضيق عليهما فلا يسمح لهما بالخروج — وان كنت لا احسبه يستطيع ذلك مع ان جهان بعد ان شاهدت نفوذها على بابك اشد خلق الله وطأة وافظهم خلقاً . ولعلها رضيت بذلك الاسر من تلقاء نفسها يأساً من لقائك . وقد حاولت ملاقاتها حتى اطلعها على حالك وابشرها بقرب لقائك فلم يتيسر لي لان القوم هنا شديدو الحذر من المسلمين واذا ساؤا الظن باحد منهم قتلوه ومثلوا به كما فعلوا باهل زبطرة . وفي كل حال ان جهان هيلانة الآن مسجونتان في قصر ناطس بطريق عمورية وسابذل جهدي في ابلاغ

خبرك اليهما وان كنت لا اطمع بذلك . هذا ما وصلت اليه الآن وقد علمت ان الروم ينوون اكتساح مملكة الاسلام فالذي اراه ان يسبقهم المسلمون ويكتسحوا بلادهم وهذه عمورية من امنع حصونهم ولا اراها تمتنع على المسلمين لعلمي بمواضع الضعف في اسوارها — ولا اخالك بعد قراءة ما تقدم الا محرضاً صاحبك على فتحها فاذا فعلت فاجعل على رايتك علامة اعرفها عن بعد لاعرف مقرك اجعل رايتك قطعتين مستطيلتين اذا نزل معسكركم امام عمورية عرفت مكانك منه والسلام »

وما فرغ ضرغام من قراءة الكتاب حتى تصبب العرق من جبينه وهاجت اشجانه وسارت عواطفه ودفع الكتاب الى وردان فقرأه ثم قال « ألا يرى مولاي المبادرة الى العمل .. هل تأذن بذهابي الى عمورية »

قال « لا فائدة من ذهابك فان المرأتين في حصار اضيق مما قرأته في هذا الكتاب وقد اراد صديقنا حماد تخفيف الخبر . ألم تقرأ قوله « ويظهر ان ناطس شديد الحرص عليهما ولا سيما جهان » فانه يعني انه احب جهان واستبقاها لنفسه فلا تفيد الحيلة في انقاذها منه ولا بدَّ من القوة — وقد اشار حماد الى ذلك في اواخر كتابه تلميحاً »

فقال وردان « فاذا كان لا بد من الحرب فلا يقدر على اثارتها سواك بما لك من المنزلة عند الخليفة » . فلم يصبر ضرغام على اتمام الحديث فترك وردان في مكانه ومضى الى المنزل فلبس السواد والقلنسوة وخرج لمقابلة الخليفة فاستأذن فقال الحاجب « ان امير المؤمنين في خلوة مع القاضي احمد » فقال « استأذن لي أيضاً »

فلما اذن له دخل وسلم فرأى القاضي احمد جالساً بجانب سرير المعتصم والاهتمام باد في وجهيهما فلما دخل ضرغام رحب به الخليفة قائلاً « جاءنا الصاحب في ابان الحاجة اليه وقد كنت عازماً على استدعائك » واشار اليه بالجلوس

فجلس وهو يقول « ان قلبي دلني على امر يقتضي مجيئي لانني لا ابرح مفكراً في مولاي اشاركه في ارادته فتتلاقى خواطرنا »

فقال القاضي « بلغني سرور امير المؤمنين لما ابديته من البسالة في فتح البذ وقد

سرني صدق توسمي فيك واصبحت موضع ثقة مولانا يعوّل على رأيك وسيفك »

فاطرق حماد تأدباً ولم يجب . فأتم الخليفة الحديث قائلاً « جاء البريد من بلاد الروم ان تيوفيل اللعين نزل زبطرا وملطية واساء الى اهلهما وارتكب فيهما كل قبيح مما لم يتعود المسلمون مثله » . فقال ضرغام « هل يطلب امير المؤمنين رأيي ؟ » . قال « نعم »

قال « لا رأي لي غير السيف .. السيف .. كما عودهم الرشيد من قبل .. احمل عليهم دونهم اكتسح بلادهم . . ان الاسلام لا يصبر على ما فعله تيوفيل من سمل العيون وجدع الانوف وسبي النساء .. جرّد يا امير المؤمنين جندك وهم عائدون من ظفر فيكونوا اصبر على القتال وانا عبدك اول متفان في هذه الحرب ... واذا صبر امير المؤمنين على سمل عيون المسلمين لا اخاله يصبر على سبي النساء المسلمات .. » وكان ضرغام يتكلم وعيناه تقدحان شرراً وشفتاه ترتجفان واحسَّ انه بالغ في الجرأة بين يدي الخليفة ولكنه لم ينتبه الا بعد ان فرغ من كلامه . ورفع بصره الى المعتصم فرأى سحنته تغيرت وقد اقطب حاجباه وابرقت عيناه وخالطهما احمرار من الغضب . وقفَّ شعر شاربيه ولحيته وقد ثبت بصره في ضرغام وهو يتكلم فهاجه حماسه واصبح كالاسد الكاسر . وهو كالاسد في بطشه وسلطانه . فخاف ضرغام ان يكون قد اغضب المعتصم بجسارته فاراد ان يستأنف الكلام للاعتذار فقطع القاضي احمد كلامه قائلاً « لقد نبهت حمية امير المؤمنين الى مصلحة المسلمين وما هو بغافل عنها ولكن يسره ان يرى ذلك في رجاله وابطاله »

فقال المعتصم « ان الصاحب تكلم بلساني وعبر عن جناني . وسآمر الافشين وغيره من القواد بالتأهب للحرب بعد ان استخير الله فيها . . انهـا جهاد في سبيل الاسلام » قال ذلك واشار اشارة الصرف وهو يقول « موعدنا غداً ان شاء الله » فانصرف القاضي وضرغام

مشى ضرغام الى منزله وقد جاشت عواطفه فرأى وردان في انتظاره فقص عليه ما جرى فسره الامر ولكنه ما زال خائفاً ان تأول تلك الاستخارة الى العدول . وفي الصباح التالي جاء غلام الخليفة باكراً في طلب الصاحب فخاف من هذا التبكير فمضى

حتى دخل على الخليفة فرآه في بهو خاص لا يجلس فيه للناس وهو لا يزال في ثوب النوم وقد التف بمطرف . وآنس في وجهه انقباضاً فاوجس خيفة فدخل وحيّا . فامره المعتصم بالجلوس فجلس وهو ينتظر فقال له الخليفة « أتدري لماذا دعيتك با كراً . . وادخلتك عليّ وانا في هذه الحال ؟ » قال « كلا يا مولاي »

قال « اني ناهض من فراشي الآن بعد ان استيقظت منزعجاً مضطرباً »

قال « خيراً ان شاء الله »

قال « رقدت البارحة بعد الصلاة وتوسلت الى الله ان يلهمني ما يكون خيراً للمسلمين من امر الروم فرأيت حلماً اطار صوابي واذهب رشدي »

فظل ضرغام مصغياً وهو يتطاول بعنقه فمسح المعتصم لحيته وشاربيه واصلح عمامته الصغيرة على رأسه وقال « قلت اني رأيت والحقيقة اني لم أرَ شيئاً ولكني سمعت صوتاً اخترق اعماق قلبي. سمعت امرأة هاشمية اسيرة في بلادالروم تصيح « وامعتصماه » فاجبتها « لبيك » [1] واستيقظت وقد علمت ان الله يأمرني بالجهاد وان اكون انا ايضاً في جملة المجاهدين فكن انت على اهبة السفر وسآمر قوادي بالتأهب .. هل اثق بجندي ؟ »

فتذكر ضرغام ما كان يبديه من الارتياب في اخلاص الافشين فقال « لا سبيل الى تحقيق ذلك وقد علم امير المؤمنين انهم يشتغلون طمعاً بالمال وقد فتحوا البذ واذهبوا الخرمية وسيفعلون ذلك بالروم »

فقال المعتصم « يخيل لي انهم لولا ذهابك لم يفتحوه الا بعد اعوام .. »

فخجل من الاطراء وقال « اذا كان لامير المؤمنين ثقة بعبده فاكون في خدمته في هذه الحملة ولا يخشى غدراً باذن الله »

قال « وما رأيك في البلد الذي نقصده من بلاد الروم »

قال « ان الصوت الذي سمعته يا امير المؤمنين احسبه خارجاً من عمورية وهي من اكبر مدائن الروم وعين النصرانية وفي فتحها نفع للمسلمين . . »

---

(١) ابن الاثير ١٩٦ ج ٦

الفصل الستون

الحملة على عمورية

قال « احسنت » وتحفز للنهوض فخرج ضرغام و بشر وردان واخذا في الاستعداد

اما المعتصم فامر أن يتأهب جنده للحرب وجلس في دار العامة واحضر قاضي بغداد ومعه ٣٢٨ رجلا من اهل العدالة فاشهدهم على ١٠ وقفه من الضياع فجعل ثلثاً لولده وثلثاً لله تعالى وثلثاً لمواليه . ثم تجهز الى عمورية جهازاً لم يتجهزه خليفة قبله قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الماء والروايا والقرب وغير ذلك وجرد جيشاً عظيما قالوا انه ٠٠٠ ٩٠٠ مقاتل عليه من القواد الافشين واشناس وغيرهما وخرج المعتصم نفسه على دابته وسمط خلفه شكالا وسكة حديد وحقيبة فيها زاد تشبهاً بالمجاهدين في صدر الاسلام

وفرق جنوده الى جهات مختلفة من بلاد الروم واخيراً التقوا قرب اقرة وعزموا على المسير الى عمورية . فامر المعتصم بتعبية الجند فجعله ثلاثة عساكر أو معسكرات احدها في الميسرة قائدها اشناس التركي والثاني في الوسط وفيه المعتصم نفسه والآخر في الميمنة وقائده الافشين وبين كل عسكر وعسكر فرسخان . وامر كل عسكر ان يكون له ميمنة وميسرة وامرهم ان يحرقوا القرى ويخربوها ويأخذوا من لحقوا فيها ثم ترجع كل طائفة الى صاحبها يفعلون ذلك في ما بين انقرة وعمورية وبينهما سبع مراحل . ففعلوا ذلك حتى وافوا عمورية وكان اول من وردها اشناس ثم المعتصم ثم الافشين . فداروا حولها وقسمها المعتصم بين القواد وجعل لكل واحد منهم ابراجاً منها على قدر اصحابه [1]

وكان ضرغام في معسكر المعتصم والمعتصم يقربه ويكرمه وفي جملة حاشيته أيضا الحارث السمرقندي وقد اخذ الحسد منه مأخذاً عظيما لما شاهده من منزلة ضرغام عند الخليفة وضرغام لا يكترث بذلك وانما همه ان يحظى بما تطلبه نفسه من انقاذ جهان وكذلك وردان

(١) ابن الاثير ١٩٨ ج ٦

واول شيء فعله بعد نزول المعسكر انه صعد مع وردان الى رابية اطلا منها على عمورية فرأياها مدينة كثيرة الابنية واسعة الارجاء حولها سور عال عليه الابراج الضخمة وله الابواب المتينة ورأيا بين الابنية قصراً عليه الرايات علم ضرغام انه قصر البطريق فخفق قلبه لاعتقاده ان جهان في داخله فتنهد ونظر الى وردان فرآه مطرقاً فقال له « أليس هذا قصر البطريق ناطس » قال « بلى . هذا هو بعينه »

قال « اذا صح قول حماد فان جهان وهيلانة محبوستان فيه وأرى المدينة حصينة .. ولكنها لا تمتنع علينا باذن الله .. هل اعددت الراية المزدوجة التي اوصانا حماد بها ؟ »

قال « نعم اعددتها ولا ادري كيف ننشرها ونحن في معسكر المعتصم وتحت رايته »

قال « لا بد من نشرها في مكان منفرد لعل حماداً يكون في انتظار رؤيتها »

قال « غداً اقف بها على هذه الرابية ساعة ثم نرى ما يكون » قال « افعل »

ورجعا الى المعسكر وباتا تلك الليلة واصبح المعتصم في اليوم التالي فعقد مجلساً من خاصته حضره القواد وفي جملتهم الصاحب والحارث السمرقندي واخذوا يتباحثون في ماذا يفعلون وكيف يحاربون . ولما اذن المؤذن لصلاة الظهر تفرقوا ودخل الخليفة فسطاطه واشار الى الصاحب ان يأتيه في صباح الغد على انفراد فرجع الى فسطاطه فاذا وردان في انتظاره وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيما فسأله عن الراية فقال « انها مغروسة على الرابية »

فقال « مالي اراك متغيراً وكيف تركتها »

قال « تركتها لامر اهم منها » قال « وما ذلك ؟ »

قال « ذلك اني رأيت سامان اللعين في معسكر الافشين وقد قربه الافشين ورفع منزلته فلم استطع الصبر على رؤيته وحدثتني نفسي ان اذهب بحياته »

قال « لا تفعل اننا في موقف نحتاج معه الى جمع الكلمة . واخاف اذا ابديت غيظاً أو رفعت يدك على سامان أن يغضب الافشين فيقع الانقسام في الجيش فاترك سامان الى وقت آخر .. وامض الى الرابية وراقب الاسوار وامكث هناك في الليل »

قال « حسناً » ومضى لشأنه

ومكث ضرغام في فسطاطه حيناً وقد خلا بنفسه واخذ يفكر في حاله واستغرق في افكاره وهو ينتقل بخياله من جهان الي امه الى حماد الى الافشين واخذه النعاس فنام ولم يستيقظ الا وهو يسمع صوت وردان يناديه ففتح عينيه فاذا هو في المساء وقد اظلمت الدنيا فلما رأى وردان ظنه جاء يبشره بحماد فقال « هل اتى حماد ؟ »

قال « كلا »

قال « وكيف تركت الراية هذه المرة أيضاً ؟ »

قال تركتها لامر لم استطع صبراً على كتمانه الى الغد وخفت ان تذهب في الصباح الى المعتصم قبل ان اراك ويهمي ان تطلع عليه قبل ذهابك »

قال « وما هو ؟ اذا كان مختصراً قله والا فدعني ارافقك الى الراية اساهرك لاني نمت كثيراً وتقصه عليّ هناك »

قال « ليس حديثي طويلا لكنك اذا صحبتني لا يخلو اجتماعنا من فائدة »

فنهض ضرغام ولبس ثياباً لا تميزه عن سواه من الجند وخرج مع وردان وكانت الراية بين معسكري المعتصم واسناس فمر بكثير من الفساطيط بين مضيء ومظلم ووردان يسير به في وسط المعسكر فقال ضرغام « اراك تسير بي في غير الطريق المستقيم »

قال « اريد ان اريك شيئاً جديداً .. هل تعرف هذا الفسطاط الى يسارنا ؟ »

قال « اعرفه هو فسطاط العباس بن المأمون ما لنا وله »

قال « اكتشفت سرّا لو اطلع عليه المعتصم لقلب المعسكر رأساً على عقب »

قال « وما هو »

قال « لما عدت من عندك في هذا النهار مررت من هنا فرأيت الحارث السمرقندي خارجا من هذا الفسطاط وقد خف العباس لوداعه وبالغ في اكرامه فقلت في نفسي لامر ما هذا الاكرام وانا اعلم أن السمرقندي واجدٌ على المعتصم بعد ان اخذ ياقوتة منه وزاد حسده لما رآه يقربك اليه ولا يخفى عليك ما في نفس العباس بن المأمون على المعتصم لانه اخذ الخلافة منه وبعض القواد يريدها له فجبن هو عن طلب البيعة فنالها المعتصم . وقد سمعت وانا في سامرّا ان الحارث السمرقندي كان من حاشية اعين في

خلع المعتصم ومبايعة العباس لكنهم تهيبوا الاقدام على هذا الامر خوفاً من الجند فلما رأيت الحارث خارجاً من فسطاط العباس اليوم حدثتني نفسي بامر ذي بال بينهما »

وكان وردان يقص حديثه بصوت منخفض وقد عرّجا عن المعسكر نحو الراية ووصلا الى الخيمة المنصوبة هناك والليل مظلم فرأى ضرغام رجلا نائماً عند باب الخيمة وله شخير كخوار الثور وشم رائحة الخمر فقال « من هذا النائم هنا وكأني اشم رائحة الخمر »

قال « هذا ناقل السرّ اليّ وهو من عبيد الحارث عرفته من سامرًّا فاحتلت في دعوته اليّ وسقيته خمراً حتى سكر وقص عليّ الحديث الآتي — أتدخل الخيمة ام اتم الحديث خارجها . اني والحق يقال لا ارى لحراسة الراية في هذه الظلمة فائدة لان الظلام يحول دون رؤيتها على عشرة اذرع فكيف من داخل عمورية »

قال « صدقت ولكني لا اعني أن يراها حماد من هناك ليلا ولكن قد يراها ساعة الغروب ويحتال في الخروج بعد قليل فلا يراها او ربما وقع بصره عليها في صباح الغد باكراً فيأتي وأنت لا تزال عندي . . . اقصص علينا ما سمعته من العبد »

فمشى وردان الى صخرة على بضعة اذرع من الراية وضرغام يتبعه واشار اليه بالجلوس هناك فجلس واخذ يقص عليه قال « اخبرني العبد ان سيده الحارث اتفق مع العباس ان يكون رسوله الى القواد في هذا المعسكر ومنهم جماعة تحت قيادة الافشين وآخرون من قواد اشناس وآخرون من جند المعتصم . فتعهد الحارث ان يكون سفيره الى اولئك القواد يأخذ البيعة عليهم . فاخذ يدور المعسكرات الثلاثة حتى استمال جماعة من القواد وبايعوه وفيهم جماعة من خواص المعتصم وقال لكل من بايعه اذا اظهرنا امرنا فليثب كل منكم بالقائد الذي هو معه ويقتله . فوكل من بايعه من خاصة المعتصم ان يثبوا في الوقت المعين على المعتصم ويقتلوه ومن بايعه من خاصة الافشين ان يثب على الافشين ويقتله ومن بايعه من خاصة اشناس ان يقتله وهكذا في سائر القواد العظام فضمنوا له ذلك [1] »

---

(١) ابن الاثير ٢٠٠ ج ٦

وكان ضرغام يسمع كلام وردان وهو مطرق يهز رأسه من الاستغراب فلما فرغ من كلامه قال ضرغام « قبحهم الله من خونة مارقين »

فقال وردان « اني ارى العباس اعقلهم جميعاً فقد فهمت من محدثي انه لم يوافقهم على تنفيذ المكيدة الآن خوفاً من ضياع هذا الفتح فاحببت ان اطلعك على ما سمعته وانت ذاهب غداً الى الخليفة فتنقله اليه اذا شئت »

قال « كلا يا وردان .. لا ينبغي ان يعلم الخليفة بذلك والا فاننا نجر على المسلمين ما نتحاشاه من الانقسام ولكننا نكتمه الى حينه وخصوصاً بعد ان علمنـا انهم اجلوا تنفيذه .. ويجب علينا مع ذلك ان نسهر على حياة امير المؤمنين »

فاعجب وردان باريحية ضرغام وقال « بورك فيك يا بطل . . . هذا هو الرأي الصواب »

فقطع ضرغام كلامه قائلا « ولكنك قد اخطأت باستبقاء هذا العبد عندك الى الصباح فاذا صحا عرف المكان وربما وشى بك والاحسن ان لا يعرفه فانقله الآن وهو بين السكر والنوم وانا امكث هنا حتى تعود »

قال « لقد اصبت » ونهض واخذ في ايقاظ العبد وهو لا يصحو فجعل يوقفه أو يقوده أو يجره حتى بعد به عن فسطاطه واقترب من فسطاط العباس فتركه على الارض ورجع وكان الليل قد تنصف ولم يبق في المعسكر احد الا نام

الفصل الحادي والستون

فتح عمورية

اما ضرغام فوقف في اثناء غياب وردان ونظر الى عمورية فرأى الاضواء على اسوارها وفي بعض قصورها ولا سيا قصر البطريق فلما وقع بصره على ذلك القصر اختلج قلبه بصدره وحدثته نفسه ان يتسلق السور وينقض على المدينة حتى يبلغ القصر وينادي جهان فاذا اجابته لا يبالي ولو قاومه اهل عمورية كافة — ذلك هو غرور اهل الحب فان احدهم

يرى المستحيل ممكناً في سبيل هواه . اما ضرغام فما لبث ان رأى وردان راجعاً حتى رجع اليه رشده فصبر نفسه وكتم هواجسه وقال لوردان « اني ذاهب الى فسطاطي وامكث انت هنا الى الصباح لنرى ما يكون » قال « سمعاً وطاعة »

وتحول ضرغام نحو فسطاطه وهو غارق في افكاره وقبل ان يصل اليه سمع لغطاً بينه و بين السور فالتفت فرأى جماعة من خفر المعسكر يقودون رجلاً قد امسكوا بخناقه وهو يقول لهم « خذوني الى الصاحب »

فلما سمع صوته اجفل لانه صوت حماد فاسرع الى فسطاطه ولبث في انتظار وصولهم و بعد قليل دخل احدهم وقال « ان جاسوساً قبضنا عليه وهو داخل المعسكر من جهة المدينة فزعم انه قادم اليك » قال « ادخلوه »

فدخل فتبينه فاذا هو حماد بعينه فقال « دعوه » فتركوه ورجعوا فلما خلا به حياه ورحب به واجلسه الى جانبه وسأله اولاً عن جهان فقال « لا تزال عند البطريق كما اخبرتك »

قال « ألم تستطع ايصال خبرنا اليها »

قال « كلا .. بل لم استطع الظهور قط ولما رأيت جندكم بالامس تفرست بالاعلام فلم أرَ الراية المزدوجة الا في هذا المساء ولكنني لم استطع الخروج الا الساعة بحيلة شيطانية وقد اظلم الليل فتهت عنها ولما قبض الخفر عليّ طلبت اليهم ان يحملوني اليك كما ترى »

قال « اهلاً وسهلا . فجهان لا تزال في قصر ناطس » .

قال « نعم وهيلانة معها وهما في خير لا بأس بهما ولكن الرجل شديد الحرص عليها ولا تغضب فانك ظافر بما تريد عن قريب »

قال « وكيف ذلك .. اني ارى الاسوار منيعة وسيطول الحصار على ما اظن »

قال « سأجعله قصيراً باذن الله » قال « هل تعرف مدخلا سهلاً ؟ »

فضحك وقال « نعم اعرف مدخلا يسهل الفتح هل اقصه عليك الآن ؟ »

قال « اني ذاهب في صباح الغد لمقابلة الخليفة في خلوة وسأخبره بما عندك من اخبار العدو ونجعل ذلك ذريعة لرضائه عنك فيغتفر لك ما مضى » قال « حسناً »

فقال ضرغام « اظنك في حاجة الى الرقاد .. هذا فراش نم عليه وانا انام هنا ونذهب في الصباح معاً »

وفي صباح اليوم التالي ذهبا حتى اتيا فسطاط المعتصم فاستأذن ضرغام عليه فدخل واستبقى حماداً خارجاً فرحب به الخليفة وقربه ولحظ ضرغام في وجه المعتصم تغيراً فتهيب وسكت فقال المعتصم « اتدري لماذا دعوتك يا صاحب ؟ »

قال « ليس لي علم الغيب يا مولاي »

فتنهد المعتصم وقال « قد كنت وانا في سامرّا استأنس بالقاضي احمد واطلعه على سري اما الآن فاراني في حاجة الى مشاورتك بعد ان خبرت صدق نيتك »

قال « اني عبد مخلص لمولاي »

قال « اتذكر اني شكوت اليك ارتيابي بالافشين ؟ » قال « نعم يا سيدي »

قال « كنت استعظم ما لاحظته من طمعه بمالي ولكنني اصبحت الآن لا اعد طمعه شيئاً مذكوراً في جانب ما اراه في هذا المعسكر من فساد النيات .. هل عرفت شيئاً عن ذلك »

قال « لم افهم مراد مولاي » وقد فهمه لكنه تجاهل

قال « بلغني ان بعضهم طامع بحياتي يتآمرون على نقل البيعة الى العباس بن اخي » قال ذلك وعيناه تقدحان شرراً من الغيظ

فرأى ضرغام من الحكمة ان يتجاهل ويخفف عنه فقال « لا اعرف شيئاً من ذلك وان كنت لا استبعده لان الخلافة ما برحت من عهد الراشدين مطمح انظار الطامعين وهب ان بعضهم يحدث نفسه بذلك فكن على يقين انهم مخذولون وانما نحن في حاجة الى الاتحاد لنتمكن من اعدائنا المحدقين بنا فهل انبيء مولاي بما يذهب عنه الغضب »

فانبسطت اسرة المعتصم وقال « ما وراءك ؟ »

قال « اتيت امير المؤمنين برجل خرج الينا في مساء الامس من عمورية وهو يعرف مداخلها ومخارجها ... هل ادخله على مولاي »

قال « يدخل »

فنهض ضرغام واشار الى حماد فدخل ووقف متأدباً والقى التحية فلما شاهده الخليفة عرفه فانقبض لرؤيته ولكنه اشار اليه بالجلوس فجلس جاثياً فنظر المعتصم الى ضرغام وقال « كأني ارى حماداً العربي بين يديّ »

قال « نعم هو عبد امير المؤمنين وقد يكون له خطيئة عنده لكنها ستغفر باذن الله »

قال « ما الذي جاءنا به ؟ »

فقال حماد « قضي عليَّ ان ادخل هذه المدينة منذ بضعة اسابيع فعرفت حصونها ومعاقلها ولما رأيت جند امير المؤمنين بالامس بذلت جهدي بالفرار حتى اتيت »

قال « ما الذي تخدم به الاسلام »

قال « ادل امير المؤمنين على عورات البلد فيهون عليه الفتح . . . ان لهذه المدينة سوراً منيعاً كما ترى لكن قسماً منه وقع من سيل اتاه فكتب الملك الى عاملها ليعمره من عهد قريب فتوانى فلما خرج الملك من القسطنطينية خاف العامل ان يأتي عمورية ويرى السور خراباً فبنى وجهه حجراً وعمل الشرف على جسر من خشب واذا شاء مولاي دللته عليه من هنا »

فنهض الخليفة وقال « أرنيه »

فدله عليه من بعيد فلما رآه اثنى عليه وقال « اذا صدقت في ما تقول فلك الجزاء الحسن »

فقال ضرغام « انا اضمن صدقه يا سيدي فهل يأمر امير المؤمنين بتعجيل الجزاء

قال « نعجله اكراما لك وما جزاؤه »

قال « انه لا يطلب مالاً وانما تأذن له بجاريتك ياقوتة يتزوجها »

فقال « ياقوتة زوجتك »

فوجم ضرغام ثم قال « نعم ياقوتة التي امر امير المؤمنين ان اتزوجها وانا استغفره عن جسارتي فاني لم اطعه لعلمي انها مخطوبة لصديقي هذا فحفظتها عندي امانة له فاذا شاء امير المؤمنين ان يغمرنا بنعمه عفا عنا واذن ان تكون ياقوتة زوجة لحماد بعد رجوعنا من هذه الحرب ظافرين باذن الله »

فأعجب الخليفة بأريحية ضرغام وكرم اخلاقه وابتسم له وقال « قد عفونا عنكما واحب ان يكون حماد معك من خاصتي وسأغدق عليه النعم »

فانحنى كلاهما وشكرا له — فقال هلم بنا الى العمل وامر ان ينقل فسطاطه امام السور المتخرب ونصب المجانيق عليه فتخرب فجعل الروم خشباً كباراً كل بجانب الآخر فكان المنجنيق يكسر الخشب فجعلوا عليه البرازخ فلما الحت المجانيق على ذلك الموضع تصدع السور وألح المعتصم بالحصار . وكان حول السور خندق عميق لا يمكن تجاوزه ولولاه لاخذت المدينة حالاً . فاشار ضرغام على الخليفة ان يطمه بجلود الغنم المملوءة تراباً ففعل وعمل دبابات كبيرة تسع الواحدة عشرة رجال ليدحرجوها على الجلود الى السور فدحرجوا واحدة منها فلما صارت في نصف الخندق تعلقت بتلك الجلود فما تخلص من فيها الا بعد جهد وعمل سلالم ومنجنيقات

وكان ضرغام يلح على الخليفة ان يأذن للجند بالهجوم يريد سرعة الوصول الى جهان والخليفة ضنين به فلم يأذن له ولكنه امر بالحرب فكان اول من هجم اشناس باصحابه وكان المحل ضيقاً فلم يمكنهم من الحرب فيه . فامدهم المعتصم بالمنجنيقات التي حول السور فجمع بعضها الى بعض فوق الثلمة . وفي اليوم الثاني امر المعتصم ان يهجم الافشين واصحابه واجادوا الحرب . وفي اليوم الثالث هجم هو ورجاله وفيهم المغاربة والاتراك وهجم ضرغام وعمل اعمالاً تعجز عنها الابطال ووردان الى جانبه وكان قد علم بامر حماد . وجعل ضرغام وجهته قصر البطريق وظلت الواقعة الى الليل واحتدم سعيرها وكان البطارقة قد اقتسموا ابراج السور فاختصموا وجاء بعضهم في الصباح والقوا سلاحهم نكاية بالآخرين وساروا امامهم الى المدينة ففشل الروم ودخلها المسلمون دخول الفاتحين وامعنوا فيها نهباً وقتلاً وسبياً

اما ضرغام فلم يكن همه الا قصر البطريق يطلب حبيبته ومعه وردان في مثل طلبه ومعهما حماد ولم يستطع الوصول الى القصر الا بعد التعب الجزيل لشدة ازدحام الاسواق بمن دخلها من المسلمين للنهب والسبي ولما وصلوا القصر وجدوا ابوابه مفتحة ولم يبق فيه شيء من المال أو النساء فطافوا غرفه يبحثون فيها فلم يقفوا لجهان ولا هيلانة على خبر فارتاب ضرغام بقول حماد وادرك هذا ارتيابه فاقسم له على صدق

قوله وقال « يظهر ان بعض الجند دخلوا القصر ونهبوه واخذوا اهله ».

فوقف ضرغام ووردان وقد اسقط في ايديهما فقال وردان « لنبحث عنهما بين السبايا بعد الفراغ من المعركة »

الفصل الثاني والستون

جهان

فانقضى ذلك اليوم ولم يفرغ المسلمون من الحرب . وفي صباح اليوم التالي امر الخليفة ان تجمع الغنائم فجمعت في ساحة وامر ببيعها . فاخذوا ينادون عليها بالمزايدة فلا ينادون على السبي الواحد اكثر من ثلاثة اصوات التماساً للسرعة فكانوا ينادون على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة لكثرته والمعتصم يطلب السرعة وامر بالمدينة فهدموها واحرقوها

اما وردان فانه طاف بين السبايا في اثناء البيع في عدة اماكن فلم يقف لامرأته ولا لجهان على خبر فانقبضت نفسه وعزم على الرجوع الى ضرغام ليتداولا في الامر . وهو راجع مر بمعسكر الافشين فرأى فرس جهان الادهم في جملة الغنائم وتحقق ذلك لانه رأى سامان واقفاً الى جانبه فارتعدت فرائصه من الغضب — وكان لا يستطيع ان ينظر الى سامان الا اقشعر بدنه وحدثته نفسه ان يفتك به ولكنه امسك اكراماً لضرغام لعلمه انه لا يريد ذلك على انه لما شاهد فرس جهان كاد يطير من الفرح فاسرع الى ضرغام واخبره بما رأى فاتى ضرغام فرأى الفرس وحده لان سامان كان قد ذهب ونظر الى وجه الفرس فرأى صورة الاسد في جبهته فتأكد انه فرس جهان فغلب على اعتقاده ان جهان وهيلانة دخلتا في جملة السبي الذي اخذه الافشين وهمّ ان يدخل على الافشين حالاً ليطلب منه جهان وهيلانة ثم تراجع خوفاً من ان يسمع ما يغضبه فيعمل عملاً يعود بفساد امر الجند وهو حريص على جمع كلمته فوقف حيناً وهو يتردد بين أن يدخل على الافشين أو لا . واخيراً غلب على رأيه ان لا يفعل وان يوسط الخليفة ولا ريب عنده انه ينصفه

فرجع وذهب تواً الى المعتصم فوجده في دار العامة وقد تقاطر القواد والخاصة لتهنئته بالنصر وهو فرح مستبشر فصبر نفسه حتى خلا المجلس فذهب في ذلك الانتظار معظم النهار فاستأذن بخلوة مع الخليفة فاذن له ورحب به واجلسه قريباً منه وهش له ولاطفه فدعا ضرغام له وهنأه . ولحظ الخليفة انقباضاً في وجهه فقال « ارى الصاحب غضباً »

قال « لا يغضب العبد بين يدي مولاه ولكنني قلق »

قال « وما الذي اقلقك يا صاحبي ؟ » قال « اقلقني ان الافشين تعدى عليّ »

قال « بماذا .. وعهدي بك انك حكيم لا تدع مجالا لمثل ذلك »

قال « ليس الخلاف على منصب أو مغنم ولكن كان لي خطيبة في عمورية وقعت سبية عند الافشين وهو يعلم انها لي فاخذها لنفسه »

فاستغرب المعتصم قوله وكيف يكون له خطيبة في عمورية فقال « زدني ايضاحاً »

فتنهد ضرغام وقال « يذكر مولاي زاده الله نصراً انه اكرمني ونحن في سامرا بياقوتة وامرني ان اتزوجها فخالفت امره لسبب ذكرته له بالامس ونلت عفوه ولم يسألني امير المؤمنين عن سبب مخالفتي . والسبب اني كنت مقيد القلب بفتاة اخرى من فرغانة قد خطبتها وتعاهدنا على الزواج يوم سرت الى فرغانة بشأن الجواري . وتوفي والدها في اثناء ذلك واتاني امر الخليفة ايده الله ان ارجع سريعاً فرجعت الى سامرا . واجلت الاقتران . وحدث في اثناء غيابي حوادث كثيرة يطول بي شرحها آلت الى خطف هذه الفتاة حتي وصلت الى هذه المدينة وكانت سجينة في قصر ناطس صاحب عمورية . فلما فتحت المدينة طلبتها في القصر فلم اجدها وبعد البحث علمت انها عند الافشين وحدثتني نفسي ان ادخل عليه واطالبه بها فخفت ان يغضبني فنختصم وتتفرق كلمة الجند ونحن احوج الى الاتحاد . فرجعت الى مولاي بما يراه »

فاطرق المعتصم لحظة ثم قال « ذلك امر هين ولا اظن الافشين يرى بأساً برد خطيبتك اليك والسبايا عنده كثيرات وقد بيعت الواحدة منهن بدراهم معدودة » وصفق فجاء احد الغلمان فامره ان يستقدم الافشين

وبعد قليل جاء الافشين فدخل وسلم فلما رأى ضرغام هناك علم سبب دعوته

لكنه تجاهل وسكت فقال له الخليفة « دعوتك لامر يهمّ الصاحب وانت تعلم منزلته عندي »

فابتسم الافشين وقال « ان الصاحب عزيز عليّ وهو لا يجهل ذلك »

قال المعتصم « اخبرني ان بين السبايا اللواتي وقعن في حوزتك فتاة يطلبها منك »

قال « السبايا كثيرات وقد بعن بأثمان بخسة وعندي منهن عشرات فاذا طلب خمساً اعطيته عشراً »

فادرك ضرغام تمويهه فقال « انما اعني سبية معينة انت تعرفها » قال « أيهن ؟ »

قال « اعني جهان بنت المرزبان » فاظهر الاستغراب وقال « وهل هي بين السبايا ؟ »

قال « اظنها بينهن ومعها امرأة رومية اسمها هيلانة »

فالتفت الى الخليفة وقال « اذا كانت جهان بين السبايا فاستعفي امير المؤمنين من اعطائها »

فقال المعتصم « ولكن الصاحب يقول انها خطيبته وهو صادق »

قال « نعم ولكن هذه الفتاة بمنزلة ابنتي وانا وصي عليها بوصاية بخط ابيها ولا اظن الصاحب ينكر ذلك .. »

فالتفت المعتصم الى ضرغام فرآه قد تغيرت سحنته وبان الغضب في وجهه ولما شعر ضرغام ان الخليفة يتفرس فيه التفت اليه فآنس في عينيه معنى ادركه . فامسك نفسه عن الغضب وقال « سمعت بالوصية التي كتبت له ولكن خطبتنا حدثت قبل كتابتها »

قال الافشين « لو صح ذلك لذكرها صاحب الوصية في وصيته وهو لم يفعل . فاذا اعدّ الفتاة غير مخطوبة ولا يجوز ان تخطبها الا بأ ري حسب وصية والدها » قال ذلك والتفت الى المعتصم كأنه يطالب مشاركته بهذا الحكم . فوقع الخليفة في حيرة لانه يحب ان ينال ضرغام غرضه ولا يريد ان يحدث شقاق في الجيش فقال « هب

ان والد الفتاة لم يكن عالماً بتلك الخطبة أو لم يعترف بها وانت ولي الفتاة فنحن نخطبها منك »

فالخم الافشين وظهر الانقباض في وجهه وتحير في الجواب بين ان يغصب الخليفة أو تذهب جهان من يده فاطرق لحظة وضرغام ينظر اليه وقد امسك تنفسه تشوفاً لسماع ما يقوله الافشين فاذا به يجيب ببرود وسكينة « ان امر مولاي نافذ لا مرد له ولكن ذلك يكون بعد رجوعنا الى سامرا ان شاء الله »

فالتفت المعتصم الى ضرغام ولسان حاله يقول « هذا هو الرأي الصواب »

فعلم ضرغام ان الافشين يماطله وينوي غير ما يقول فلم يملك غضبه فقال « اذا كان الافشين رضي طلب امير المؤمنين فليعقد الخطبة هنا ونحن حيثما كنا فاننا في ظله »

فابتسم الافشين واظهر التلطف والاذعان وقال « اذا أمر امير المؤمنين فلا مانع لدي ولكن لا ادري اين السبايا الآن واظنهن حملن الى سامرّا »

فاستبشر ضرغام بنيل المرام لاعتقاده ان جهان في ذلك المعسكر وقد رأى فرسها فقال « اذا لم تكن الفتاة هنا اجلنا الخطبة الى سامرّا فليأمر امير المؤمنين باستقدامها »

فنادى الغلام وامره ان يذهب الى معسكر الافشين يطلب من وكيله ان يرسل اليه الفتاة السبية جهان . فاستمهله ضرغام وقال « او يقول له جلنار فانه الاسم المعروفة به في هذه الديار »

خرج الغلام ومكث ضرغام كأنه على نار وقد هاجت اشجانه وخفق قلبه تطلعاً لرؤية حبيبته بعد ذلك البعاد الطويل وتصوَّر كم تكون دهشتها لما يقع نظرها عليه بغير انتظار وهي تحسبه في عالم الاموات — قضى في ذلك دقائق حسبها ساعات حتى عاد الرسول وهو يقول ان السبايا ارسلن الى سامرّا في هذا الصباح »

فوقع ذلك الجواب وقوع الصاعقة على رأس ضرغام ولم يسعه غير السكوت والصبر فاظهر الرضى وسكت وقد عزم في باطن سره انه حالما يخرج من فسطاط الخليفة يكلف وردان بتدقيق البحث عن جهان فاذا كانت لا تزال في المعسكر اخذها عنوة

فحالما اذن المعتصم بانصرافهما ذهب ضرغام توًا الى فسطاطه لمشاهدة وردان فلم يجده فسأل بعض العبيد عنه فقالوا انهم لم يروه من الصباح ولا يعرفون مكانه . فخرج للبحث في فسطاطه فلم يجده ولا وجد حماداً وكان يتوقع ان يراهما معاً فتولاه القلق عليهما وهو في اشد الحاجة الى وردان . فخرج بنفسه لتفقد فرس جهان حيثما شاهده في الصباح فلم يجده فترجح له ان الافشين صادق بقوله وهو يعلم انه لا يجرأ على الكذب الصريح بين يدي الخليفة فرجع الى فسطاطه وكظم ما في نفسه

الفصل الثالث والستون

الظفر

والواقع ان الافشين أمر باخراج السبايا من المعسكر من صباح ذلك اليوم — اشار عليه بذلك سامان وهو الذي دله على مقر جهان في قصر البطريق وحرضه على سبيها . وكان يتتبع خطاها منذ كانت في البذ وعرف بخروجها لمخابرة الروم ونزولها عمورية وكان يفعل ذلك التماساً لما وعده به الافشين من الوصية . فلما فتحت عمورية ذهب هو بنفسه الى احته، واظهر انه جاء لنجدتها وان الافشين جرد هذه الحملة في سبيل انقاذها واخذ يهوّن عليها القبول به وهي لا تجيبه فحملها رجال الافشين الى معسكره على فرسها قبل وصول ضرغام الى القصر ومعها هيلانة وكانت تعزية كبيرة لها وقد تحابتا وتآلفتا وكل منهما تحسب نفسها متروكة لا نصير لها . فلما صارتا في معسكر الافشين شق على جهان ذلك الاسر وحدثتها نفسها ان تطلب مقابلة المعتصم وتستجير به من الافشين فاتاها اخوها وحبب اليها السكوت وقال لها انه سيأخذها الى سامرًّا فتكون هناك كما تشاء . فلما سمعت ذكر سامرًّا تذكرت ضرغاماً وفي نفسها بقية امل بوجوده أو سماع حقيقة حاله من والدته اذا كانت لا تزال في قيد الحياة فوافقته واشترطت ان تكون هيلانة معها فقبل. وكان هم سامان ان يفر بجهان قبل ان يعلم ضرغام بوجودها فلما رأى وردان في الصباح يبحث عنها اسرع الى الافشين واشار عليه ان يأمر بارسالها حالاً فقال له الافشين « الى اين . . قال الى سامرّا ؟ »

فاصطنع ضحكة ليس فيها من ظواهر الضحك غير التكشير عن الثنايا وتكمش عضلات الوجه ونظر الى الافشين بنظر الاحول وقال « الى سامرا ؟ وهل انا مجنون لافعل ذلك ؟ »

قال « بورك فيك . سر بها رأساً الى اشروسنة واحتفظ بهما جيداً وسأوافيكم الى هناك »

فاسرع سامان وأعد الاحمال واخذ حامية تخفرهم في الطريق واقلع بها خلسة . ولما جاء غلام الخليفة يطلب جهان كان قد مضى على خروجهم عدة ساعات وهم على ظهور الخيل

اما ضرغام فاصبح لايدري ما يفعل وقد ادهشه غياب وردان وحماد وخاف ان يكونا قد اصيبا بسوء وظن ان الافشين ألحق بهما اذية

بقي الجند في عمورية عدة ايام قضوا خمسة منها في بيع الغنائم والاسرى رغم السرعة التي توخوها لكثرة الغنائم فربح تجار اليهود من ذلك ربحاً عظيماً . وقضوا اياماً اخرى في هدم المدينة واحراقها وقتلوا من اهلها جمعاً كبيراً وسلم ناطس سيفه

ولما فرغ المسلمون من الفتح امر المعتصم بالرجوع الى سامرا وضرغام لا يزداد في اثناء ذلك الا قلقاً ولكنه رجع مع الراجعين وهو يرجو ان يرى في سامرا شيئاً جديداً . واتفق له وهو راكب في اثناء الرجوع انه رأى في عرض الافق فرساناً لم يقع نظره على خيولهم حتى اختلج قلبه في صدره لانه رأى بينها فرساً عرف من مشيته انه فرس وردان فهمز جواده لملاقاة ذلك الركب ولما اقترب منهم عرف اثنين هما وردان وحماد فصاح « وردان »

قال « لبيك يا مولاي » وفي غنة صوته دلالة السرور والظفر

فقال وهما قد حولا الاعنة ومشيا مع الحملة « اين كنتما لقد شغلت بالي عليكما ؟ »

قال وردان « كنا في سامرا » قال « ولماذا ؟ »

قال وهو يضحك « اوصلنا العروسين اليها ورجعنا » فبغت ضرغام وقال « اي عروسين »

قال « جهان وهيلانة .. »

قال « وكيف ذلك ؟ قل .. قل حالاً »

قال « رأيتك كثير المراعاة لخاطر الافشين لا تخاطبه الا على يد الخليفة ورأيته يخادعك ويبغي الفرار بهما الى حيث لا نعلم وما صدقنا اننا عرفنا مقرهما والعمر لا يكفي للتفتيش مرة ثانية عنهما . فخطر لي ان اعمد الى القوة ولو شاورتك لما رضيت واظنك كنت تقول لي الافضل ان نبعد عن اسباب الشقاق . وعلمت سراً ان الافشين يحاول الفرار بهما وقد امر سامان بذلك فتواطأت انا وحماد ان نأخذهما بالقوة ونأخذه معهما وقد فعلنا واوصلنا العروسين الى بيت الصاحب في سامرا وزججنا سامان في السجن ريثما نرجع »

ففرح ضرغام ولكنه قال « ألم يكن الاولى ان نبقى على عهد الافشين فقد وعدني بين يدي الخليفة ان يعقد لي على جهان حالما نرجع الى سامرا »

قال « وهل صدّقت انه كان ينوي ارسالها الى هناك ؟ . وهب انه كان صادقا فانا لم استطع صبراً على هذه المماطلة وقد فعلت ذلك ولم اشاورك أو اخبرك حتى لا اشركك في الذنب فاذا طالبني الافشين بذنبي اجيب عن نفسي »

فالتفت الى حماد وقال « وانت ايها الصديق ارجو ان تكون قد شاهدت ياقوتة وسررت بها .. ولكن لماذا رجعت »

قال « وكيف لا ارجع لمرافقتك واتمام خدمتي لك »

وكانت الحملة سائرة فرقاً وضرغام في فرقة المعتصم ليكون قريباً منه . ولما امسى المساء حطت الاحمال ونزل الناس للراحة والرقاد . وقص وردان على ضرغام في تلك الليلة مؤامرات جديدة ومكائد نصبها القوم على المعتصم من قبيل ما تقدم وانه اذا لم يعلن الخليفة حالاً تذهب حياته . واكبر ضرغام ان يكون هو المبلغ وخصوصاً لان الحارث صاحب التهمة الكبرى خصمه او منافسه فتباحث في ذلك مع حماد فقال حماد « انا انقل الخبر الى الخليفة انما اطلب اليك ان تدخلني عليه في خلوة »

قال « قم بنا الان » وكان الوقت عشاءً فلما وصلا الى فسطاط الخليفة استأذن ضرغام بخلوة فاذن له فدخل ومعه حماد فقال الخليفة « ما وراءك ياصاحب »

قال « عند صديقي حماد عبد امير المؤمنين مخبآت هامة اذا اذن له تكلم »

قال « قل واحذر الانحراف عن الصواب »

فقص عليه تواطؤ القواد على قتله ومبايعة العباس وسمى المتواطئين وفي جملتهم الشاه ابن اسماعيل الخراساني والحارث السمرقندي وعجيف بن عنبسة وغيرهم فاهتم المعتصم بالامر واستقدم المتهمين واستنطقهم فاعترفوا فقتلهم على اساليب مختلفة لا محل لذكرها . واحتفظ بالعباس حتى وصلوا سامرًّا فسماه اللعين واخذ اولاد المأمون فحبسهم في داره حتى ماتوا [1] . وعد المعتصم هذه الخدمة جميلا لضرغام وحماد معاً وانعم عليهما

اما الافشين فجاءه الخبر من بعض رجاله بما فعله وردان وحماد فصبر نفسه حتى يصل سامرًّا فيشكيهما ويشكي ضرغاماً

ولما دنت الحملة من سامرّا اخذ قلب ضرغام بالخفقان لهول الملتقى بعد ذلك الغياب الطويل . اما جهان لما خطفها وردان وحماد عادت اليها آمالها . وكانت لما رأتهما هاجمين بمن معهما من الرجال لاختطافها استعاذت بالله من توالي الاحن عليها وارادت الدفاع ثم سمعت صوت وردان وسمعته ايضاً هيلانة زوجته فانحازتا اليه ولا تسل عن حال هيلانة لما سمعت صوت زوجها وهي تحسبه بين الاموات فترامت عليه فرحبَ بها واستمهلها حتى يتم مهمته . فامر الذين معه بالقبض على سامان قبل ان يفر فقبضوا عليه واوثقوه وثاقاً متيناً وتقدم وردان الى جهان بكل احترام فلما رأته قالت « وردان .. »

قال « نعم يا سيدتي ابشري بالسلامة واللقاء »

فلم تتمالك ان صاحت « اللقاء .. ضرغام .. ضرغام .. اين هو ؟ »

قال « هو في سلامة وخير وسيأتي بعد ايام وانا ذاهب بك الى منزله في سامرا تمكثين مع والدته ريثما يعود »

فظنت نفسها في حلم وتفرست ثانية في وردان وقالت « وردان .. أضرغام حي؟ » وتذكرت ان سامان اول من انبأها بموته فالتفتت اليه وقد شد الى ظهر الفرس وهو ينظر اليها نظر الذليل لانه سمع ما دار بينها وبين وردان فلم تقل شيئاً ورأت صديقتها هيلانة معلقة بثوب وردان وتكاد تشرقه بعينيها فقالت لها « هل تعرفين وردان قبل الآن ؟ »

---

[1] ابن الاثير ٢٠١ ج ٦

فصاحت هيلانة من الفرح قائلة « هو زوجي يا مولاتي ... »

قالت « زوجك البطريق الذي قصصت عليّ خبره ؟ »

قالت نعم هو هو ... الحمد لله على لقائه .. واهنئك ببلوغك الى حبيبك »

وكان حماد واقفاً وقوف الدهشة وقد اضاف الى هذه الصدفة بقاء ياقوتة حية حتى يرجع اليها فزادت دهشته

وسألت جهان عن محل ضرغام فاخبرها وردان انه في عمورية وانه ذاهب بها الى سامرا تبقى فيها حتى يعود قريباً فاطاعته ومشوا نحو سامرا وكلّ فرح بما عنده . وقضوا مسافة الطريق يقصون ما مرَّ بهم من الغرائب . وقص وردان على جهان ما حظي به ضرغام عند المعتصم وكيف سماه الصاحب واسباب ذلك واخبرها خبر حماد وخطيبته ياقوتة ومقدار ما بينهما من المشابهة العجيبة فاستغربت ذلك كله وصورة ضرغام غالبة على جوارحها جميعاً

ولما وصلوا الى سامرا بعث وردان بسامان الى صاحب السجن واخبره ان الصاحب يأمر بسجن هذا الجاسوس فاطاع . وبعث وردان الى آفتاب بقدوم جهان وكان لذلك اللقاء دهشة يندر مثالها وآفتاب لم تشبع من لمس جهان وضمها وتقبيلها . اما ياقوتة فكان فرحها بحماد عظيما ولم يكن فجائياً عليها لانها كانت عالمة ببقائه حياً ولكنها دهشت لما لقيت جهان فتوهمت انها ترى نفسها بمرآة لشدة المشابهة بينهما ولم تكن جهان اقل دهشة منها فبعد ان سلمت عليها اخذت تتفرس في وجهها وكلما زادت تفرساً زادت استغراباً فلما فرغ وردان من تلك المهمة عزم على الرجوع الى عمورية فرجع حماد معه كما تقدم

ومكث اهل الجوسق على مثل الجمر في انتظار ضرغام وكانت والدته شديدة اللهفة لحبيبه تشتهي شمه وضمه . ولكن شعورها يختلف عن شعور جهان حبيبته . ولا سيما بعد ان قاست ما قاسته قبل اجتماعها به . والعذاب في سبيل الحب الصادق كالنار للذهب لا تزيد الا صفاء ورونقاً

الفصل الرابع والستون

اللقاء

قضت جهان بضعة عشر يوماً في سامرّا قبل وصول ضرغام وتمتعت باشياء اكثرها جديد عندها وكانت موضع اعجاب كل من عرفها ولكنها كانت تعد حياتها ناقصة او اذا شئت قل تافهة ولولا التعلل باللقاء لكانت جحيماً . فكانت تعلل نفسها بقرب مجيئه ولا تزال صورته في ذهنها كما شاهدته في المرة الاخيرة لما ودعها في قصر ابيها وعليه ثياب السفر اذ وقفت له بالباب حتى توارى

فلما جاءت البشائر برجوع المعتصم وجنده ظافراً زينت سامرّا واصطفت المواكب والجنود ورفعت الاعلام وضربت الطبول وضجت المدينة فرحاً وخرج النساء والرجال للفرجة واشتغل الناس بهذا الاحتفال عن كل شيء الا جهان فانها لم تكن تسمع صوتاً ولا ترى شبحاً وانما كانت عيناها شائعتين نحو باب الجوسق لعلها تشاهد ضرغام داخلاً في موكب الخليفة فلما دخل الخليفة لم ترَ احداً

وهي في تلك اللهفة سمعت سعالا في الدار ارتعدت له فرائصها لانه سعال ضرغام فارادت ان تتحول لملاقاته فلم تساعدها قدماها من الارتعاش واحمر وجهها ثم علاه الاصفرار ولكنها تشددت وتمالكت وتذكرت رباطة جأشها ومشت . وكان ضرغام قد دخل الغرفة فرأى جهان تمشي مشية الجلال والوقار وعيناها تتكلمان كأنهما خطيب على منبر يدعو الناس الى التعبد أو يحرضهم على التفاني في الحب . فلم يتمالك عن الانحناء للسلام وهو يود ان يجعل سلامه معانقة لولا العادة التي تحول دون ذلك . ثم وقف ومد يده اليها فمدت يدها وابتسما ابتسامة اغنت عن حديث طويل ثم قال « مرحباً بعروس فرغانة ... لقد اطلت علينا الغياب وطال بنا طريقك وطريق المحبين قصير على ما يقولون »

فضحكت وقالت « طال الطريق لوعورته وكثرة عقباته . . . ولكن ماء السكر كلما زدته غلياناً زادك حلاوة »

قال « لكن خشيت ان يجف ماؤه فيحترق »

قالت « اوشك ان يحترق لو لم ارطبه بدموعي .. » قالت ذلك وابرقت عيناها وتلالأت فيهما دمعتان ونظرت اليه نظرة وقعت كالسهم في قلبه فقال لها وقد اخذ الهيام منه مأخذاً عظيماً « أبمثل هذه الدموع كنت تقين الاحتراق ؟ »

قالت « نعم ولكن شتان بين دموع الحزن ودموع الفرح واشكر الله على كل حال »

وكانت يدها لا تزال بيده فضغط عليها وقادها الى مقعد هناك وهو يتفرس في عينيها ويقول « أراك تشكرين الله وعهدي انك تشكرين أو رمزد فمتى حدث هذا الابدال »

فقالت « وهي تمشي معه حتى جلسا متحاذيين وقد نسيا الوجود » حدث يوم تبدلت حالي وشغل فؤادي. فاصبحت لا أملك شعوري ولا أرى هذا الوجود الا كما يشاء ضرغام .. ولا آسف الا على مدة غلب فيها اليأس على قلبي — يوم بعثت اخي وعير اخي للبحث عن ضرغام في سامرا فعادوا واكدوا انه لا يوجد فيها وزاد بعضهم انه لا يوجد في الارض . . تباً لتلك الساعة كم أحدثت وكم غيرت . . ولكني نسيت كل ذلك الآن ولا أعلم الا اني اسعد خلق الله بل اراني اسعد اليوم مما كنت بقربك في فرغانة .. كنت يومئذ سعيدة عن جهل لاني لم اجرب الشقاء وكنت اتلذذ بقربك مندفعة بتيار الحب وانا لا أعرف قدر اللقاء وأما اليوم فقد عرفت ان السعادة يزيد مقدارها كلما زاد الشقاء في سبيل الحصول عليها . لو عرفت ذلك يوم اجتماعنا في فرغانة لفضلت ان اجاهد في سبيل حبك قبل الحصول على قربك » قالت ذلك وقد غلب عليها الهيام وسيت رباطة جأشها وكبر نفسها وهو ينظر اليها وقد شغل بمعاني وجهها وسحر عينيها عن تفهم كلامها ففرغت من حديثها وهو لا يزال يرنو اليها كأنها لا تزال تخاطبه

ثم انتبه لنفسه وخجل من غفلته عن الموضوع ونسي ما كانا فيه فقال « كم احب ان اسمع ما قاسيته في اثناء هذه الغيبة وقد سمعت بعضه ولكني ألتذ ان اسمعه من فيك . ولا ريب عندي انك تحبين الاطلاع على خبري والحديثان طويلان سنتبادلهما في فرصة اخرى . ولو بقيت بجانبك الدهر كله لا أرتوي من النظر اليك يا جنتي وحياتي . صدقت ان الحب تزداد لذته كلما زاد التعب في سبيله ولم اكن احسب حبنا يقبل الزيادة وحاشا أن يقبلها ولكنه تزداد بالتعب حلاوة وصفاء »

فوقفت وهي تقول « صدقت ان تلذذنا باللقاء لا نهاية له فينبغي ان تنظر الى الآخرين .. هل رأيت والدتك ؟ » قال « لم أرها بعد وسأراها »

قال « هنيئاً لك على هذه الوالدة الحنونة فيجب أن تقبل يديهاصباح مساء وهي الآن تشتاق الى لمسك وشمك » فوقف درغام واطاع جهان وخرجا الى الدار وفيها والدته فشعرت بخروجهما فتحفزت و بسطت يديها لمعانقة ابنها فترامى عليها وقبل يدها واعلى صدرها فضمته وقبلته وشمت عنقه ثم قالت « اهنئك بعروسك بل اهني نفسي بهذا اللقاء »

وتقدمت جهان فقبلت يد آفتاب واثنت على لطفها والتفتت الى ياقوتة وكانت قد وقفت لاستقبالهما وخاطبت ضرغاماً قائلة « ألم تكن تستأنس برؤية ياقوتة في اثناء غيابي »

قال « ربما استأنس حيناً وغصصت بريقي احياناً ولكن هذه المشابهة هي التي دلتني عليك وسأقص الخبر في وقت آخر »

قضوا في امثال هذه الاحاديث ساعات وقد اعدت الاطعمة فتناولوا ما شاؤا ثم قالت آفتاب « قد آن ياضرغام ان تكتب الكتاب »

فقال « صدقت يا اماه وغداً افعل ان شاء الله »

الفصل الخامس والستون

محاكمة الافشين

وهم في ذلك جاء أحد غلمان القصر يدعو ضرغاماً لمقابلة الخليفة فلبس قلنسوته وسواده وخرج حتى اذا دنا من دار العامة رأى بالباب جماعة من الغلمان الاشروسنية فعلم ان الافشين هناك فدخل فرأى الخليفة جالسا على سريره في صدر الايوان والافشين على كرسي بين يديه ورأى بجانب القاعة وردان وحماداً واقفين فسلم فأشار اليه المعتصم ان يجلس فتباطأ وقال « يأذن لي أمير المؤمنين بكلمة قبل ان اجلس »

قال « قل »

قال وهو يشير الى وردان « اقدم لامير المؤمنين البطريق وردان أحد كبار بطارقة ارمينيا وقد ابلي في خدمة جيشنا بلاء حسناً في البذ وعمورية »

فاستغرب المعتصم والافشين هذا التعريف وقال الخليفة « أليس هو خادمك وردان »

قال « كنت أظنه خادمي وانا لا أعرف اصله فلما بلوته علمت انه رجل شريف وقد كانت له معي اياد بيضاء عادت بالنفع على جند المسلمين فاذا أمر امير المؤمنين بجلوسه فعل وهو صاحب الامر »

فقال « ولكنه واقف في موقف القضاء وقد دعوتك لتحضر المحاكمة وتؤدي الشهادة »

قال « افعل ذلك طوعاً لامير المؤمنين » وجلس واصغى

فقال المعتصم « يقول قائد جندنا الافشين ان وردان وحماداً تعديا على رجاله واختطفا منهم امرأتين من سبيه بعد ان اجلنا النظر في ذلك لحين رجوعنا الى سامرا»

قال درغام « نعم قد فعلا ذلك واذا حكم أمير المؤمنين انه ذنب فانا صاحب الذنب لانهما فعلاه لاجلي وان لم يكن بامري وانا احمل تبعة عملهما . وفي كل حال فان حماداً هذا (وأشار اليه) قد عرف امير المؤمنين خدمه وانعم عليه بالعفو وجاء سامرّا لينال ما وعده به مولانا من النعم فلا يؤخذ بجريرة سواه »

فحك المعتصم جبينه كأنه يسترجع الى ذهنه شيئاً نسيه وقال « صدقت ان حماداً ذو فضل وسابقة وسنوليه ما هو اهل له فيخرج الآن اذا شاء »

فانحنى حماد وسلم وخرج وبقي وردان وضرغام والافشين فقال الخليفة « فالآن قد قلت عن وردان ما هو اهله ولكن ذلك لا ينفي انه خالف امراً اصدرناه بشأن السبيتين فقد قلنا ونحن في عمورية ان يترك امرهما لحين رجوعنا الى سامرّا فكان ينبغي ان يراعي هذا الامر ... فليأت بالسبيتين الآن الى هنا .. »

فقال درغام « ان السبيتين هما خطيبتي وزوجته (واشار الى وردان · اما خطيبتي فقد سبق امر الخليفة ان تكون زوجة لي وهي في منزلي . اما مرأة البطريق فهي عنده ايضاً ولا أظن الافشين يهمه أمرها »

فقال الافشين وقد بدا الغضب في عينيه « يهمني اولاً ان يراعى امر المؤمنين في الاثنتين . وأما جهان التي تقول انها خطيبتك فلها شأن خاص لاني وليّ امرها بوصية أبيها »

فعند ذلك تقدم وردان ووجه خطابه الى الخليفة واستأذن بالكلام وقال « هل ثبت لامير المؤمنين انه وصيٌ »

فانتبه المعتصم لهذا الاعتراض والتفت الى الافشين وقال « اين هو كتاب الوصية »

فقال الافشين « هو عندي . . وهل انا كاذب ؟ »

فقال المعتصم « لكن الشرع يقضي بالاطلاع على نصه قبل اصدار الحكم . وهل يهمك كتمانه ؟ »

فظهرت الحيرة في وجه الافشين فعمد الى المغالطة واظهر الغضب وقال « اذا كان الافشين الملك والقائد يكذب في مثل هذا ويصدق هذا العلج فعلى الدنيا السلام »

فقال وردان « اني لا أنكر وصايته ولكنني أرى ان يطلع امير المؤمنين على نصها ليعرف من هو الافشين صاحب اشروسنة »

فاستشاط الافشين غضباً وكأنه نسي موقفه فصاح « ان الافشين قائد جند المسلمين لا يخاطب بمثل هذا الكلام في حضرة امير المؤمنين . . وهب ان الوصية ضاعت مني أو سرقت أو احترقت فهل يؤخذ ضياعها حجة عليّ فأعدُّ كاذباً . والرجل يقول انه لا ينكر الوصاية فما الفائدة من نصها »

فقال وردان « لا تغضب ايها القائد اننا في موقف القضاء بحضرة أمير المؤمنين والقضاء يطلب اليك ان تتلو الوصاية بنصها

فازداد الافشين غيظاً وقال « قد ضاعت الوصية ولا اذكر نصها »

قال وردان « انا اذكره . . هل اتلو بعضها على مسامع امير المؤمنين »

قال المعتصم « اتلُ ما شئت »

فقال « يكفي امير المؤمنين ان الوصية مصدرة باسم اورمزد معبود المجوس بدل الله تعالى وقد شهد فيها الموبذ كاهن المجوس بدل القاضي الشرعي . . أليس كذلك يا قائد جند المسلمين »

فهاج غضب الأفشين وادرك ان الرجل ينوي اذلاله وفضح امره وندم على ما فرط من تعنته ولكنه تجلد وقال « واين هو وجه الطعن فيها ان الموصي مجوسي فكتبها على ما يقتضيه دينه وعادات بلاده . . كأنك تريد بذلك اتهامي بالمجوسية . . انهـا لوقاحة كبرى »

فوجه وردان كلامه الى المعتصم وقال « هل يأذن امير المؤمنين ان اقول ما اعرفه »

قال « انك في موقف الدفاع عن نفسك قل ما بدا لك »

فقال للافشين « لا اتهمك بالمجوسية تهمة ولكنني اقول انك مجوسي تسجد لاورمزد وتخضع للموبذ حتى الآن . واقول فوق ذلك انك تتظاهر بالدفاع عن الاسلام وانت انما تفعل ذلك طمعاً بالمال ... ولو استطعت سحق دولة المسلمين لسحقتها وهذا بيت نار كاران شاه في فرغانة شاهد على ذلك » . فلما قال وردان ذلك رأى الخليفة التهمة اوسع من ان يقضى بها في تلك الجلسة فاحب تأجيلها فقال « ان هذه التهمة خارجة عن موضوع هذا المجلس وانما نبحث الآن في اختطاف السبيتين »

فقال ضرغام « قلت لأمير المؤمنين ان الذنب في ذلك لي انا لان احداهما خطيبتي وهي في منزلي الآن وقد اذن الافشين بزواجها على فرض صحة وصايته »

فقطع الخليفة كلامه وقال « نحن لا نعترض على زواجك بها وانما نطالب وردان باختطافها »

فقال وردان « انما اختطفتها لعلمي ان مولانا الافشين امر بارسالهـا الى بلده اشروسنة لتضاف الى خزائن الاموال التي يرسلها الى هناك كل سنة من اموال المسلمين ليستعين بها على اسقاط دولتهم عند الحاجة . . »

فنظر المعتصم الى الافشين فرأى لحيته ترقص في صدره ولو جس يده لرآهـا باردة كالثلج فضلاً عن ارتعاشها فقال له « ان هذه التهم كبيرة ولا اراك دفعتها عنك»

فقال الافشين « كلهـا مفتريات كاذبة وعند التحقيق يظهر كل شيء وغداً موعدنا »

فقال وردان « لا بأس من التأجيل الى الغد او بعده ولكن من يضمن ان

صاحب هذه التهم يبقى في سامرا الى الغد »

فقال المعتصم « يبقى محبوساً في الجوسق » واشار الى صاحب حرسه ان يأخذ سلاحه وسواده ويحبسه ويتولى حراسته . فنهض الافشين وقد اسقط في يده ولكنه ما زال يكابر ويغالط ويمشي مرحاً وهو يتوعد ويتهدد

وبعد خروج الافشين اشار المعتصم بانصراف وردان واستبقى الصاحب فلما خلا به تنهد وقال « تبا لهؤلاء المجوس انهم شاركونا في ملكنا وخدعونا في امرنا .. ولكن الله اعاننا على الانتفاع بسيوفهم ورد كيدهم في نحورهم .. ماذا رأيت يا صاحب ؟ »

قال « ان امير المؤمنين عرف سوء نية هؤلاء قبل سائر الناس . ولا انسى شكواه منهم مراراً »

قال ان ما اشار به صاحبك وردان لم يخف علينا فان كتب عاملنا في خراسان كانت تأتينا وفيها الشكوى من كثرة الاموال التي يرسلها الافشين الى بلده ونحن صابرون. وقد رفعت الينا الكتب من كثيرين يتهمونه بالمجوسية وعبادة الاصنام وبالمواطأة مع المازيار صاحب طبرستان وبابك على حربنا . وقد علم بذلك القاضي احمد ووزيرنا محمد بن عبد الملك الزيات وغيرهما وبعثنا نستقدم المازيار صاحب طبرستان الذي تواطأ معه على الغدر بنا والمرزبان احد ملوك السغد ومو بذاً مجوسياً واثنين من المسلمين كان الافشين قد عذبهما لانهما بنيا مسجداً في اشروسنة . وسأعقد مجلساً يحضره هؤلاء نفضح به ما استتر ونجزي كل فاعل وما فعل . اما انت فلك عروسك تهنأ بها ولا بأس على وردان فانه حرٌّ وسنجعله في خاصتنا وعلى الباغي تدور الدوائر » فدعا له وخرج

وفي يوم تال عقد المعتصم مجلساً مؤلفاً من القاضي احمد بن ابي داود والوزير محمد بن الملك الزيات وغيرهما من الاعيان ودعا الصاحب ووردان فحضرا ثم امر بالافشين فاخرج من محبسه وجيء به الى المجلس وتولى ابن الزيات مناظرته بعد ان احضر الشهود المشار اليهم . فطلب اولاً الرجلين المضروبين وكشف عن ظهريهما وهي عارية من اللحم وقال للافشين « أتعرف هذين ؟ »

قال « نعم هذا مؤذن وهذا امام بنيا مسجداً باشروسنة فضربت كل واحد

منهما الف سوط لان بيني وبين ملك السغد عهداً ان اترك كل قوم على دينهم فوثب هذان على بيت نار في اشروسنة كان فيه اصنام فاخرجاها وجعلاه مسجداً فضربتهما على هذا »

قال ابن الزيات « ما كُتاب عندك حليته بالذهب والجوهر فيه الكفر بالله تعالى »

قال « هو كتاب ورثته عن ابي فيه من آداب العجم وكفرهم فكنت آخذ الآداب واترك الكفر . ووجدته محلى فلم احتج الى الحلية منه وما ظننت هذا يخرج من الاسلام

ثم تقدم الموبذ وقال وهو يشير الى الافشين « ان هذا يأكل لحم المخنوقة ويحملني على اكلها ويزعم انها ارطب من المذبوحة وقال لي يوماً قد دخلت لهؤلاء القوم (المسلمين) في كل شيء اكرهه حتى اكلت الزيت وركبت الجمل ولبست النعل غير اني الى هذه الغاية لم اختتن » فاعترض الافشين على كلام الموبذ بانه غير ثقة . فرد ابن الزيات عليه وحجه . ثم تقدم المرزبان وقال مخاطباً الافشين « كيف يكتب اهل بلدك اليك ؟ »

قال « لا اقول »

قال « ألا يكتبون بكذا وكذا في الاشروسنة وتفسيره بالعربية الى اله الآلهة من عبده فلان بن فلان ؟ » قال « بلى »

فقال ابن الزيات « ان المسلمين لا يحتملون هذا فما ابقيت لفرعون ؟ »

قال « هذه كانت عادتهم لابي وجدي ولي ايضاً قبل ان ادخل في الاسلام فكرهت ان اضع نفسي دونهم فتفسد طاعتهم »

ثم تقدم المازيار فقال ابن الزيات للافشين « هل كاتبت هذا » قال « لا »

قال المازيار « نعم كتب اخوه الى اخي انه لم ينصر هذا الدين الابيض غيري وغيرك وغير بابك فاما بابك فانه لحمقه قتل نفسه ولقد جهدت ان اصرف عنه الموت فأبى الا ان اوقعه فان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ومعي الفرسان واهل النجدة فان وجهت اليك لم يبق احد يحاربنا الا ثلاثة العرب والمغاربة والاتراك

والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه والمغاربة اكلة رأس والاتراك فما هي الا ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم فتأتي على آخرهم ويعود الدين الى ما لم يزل عليه ايام العجم »

فقال الافشين « هذا يدعي ان اخاه كتب الى اخي وما هو ذنبي » [1]

فتقدم وردان عند ذلك وقال « تزعم ان اخاك كتب ولا تبعة عليك فما قولك بمن رآك رأي العين في بيت النار بفرغانة ومعك المازيار هذا ونائب عن بابك وقد تواطأتم على محق دولة المسلمين وتعهدت ان تجمع المال الكافي لذلك العمل »

فاعرض الافشين بوجهه عنه وقال « هذا خصم يكذب في سبيل مصلحته »

قال « وان اتيتك بالموبذ نفسه الذي شهد على كتاب الوصية وسمعته يقول مثل قولي ؟ »

فقال المعتصم « سنرسل في طلبه »

فقال وردان « واذا بعث امير المؤمنين الآن من يدخل بيت الافشين في سامرا وجد فيه التماثيل المجوسية »

فقال ابن الزيات « قد اتينا بها بالامس » وامر غلاماً احضرها واذا هي تمثال من خشب عليه حلية كثيرة الجوهر وفي اذنه حجران مشتبكان عليهما ذهب واصنام اخرى وكتاب من كتب المجوس وغيره . فارتج على الافشين وسكت فأمر المعتصم بارجاعه الى الحبس وان يقطع عنه الطعام والشراب فقطعوهما حتى مات سنة ٢٢٦هـ [2]

وخلا ضرغام بالمعتصم بعد ايام وقص عليه حقيقة وصاية الافشين على جهان فامر بالغائها ورد المال الى صاحبته . وبعث الى فرغانة فأمر بهدم بيت النار كاران شاه [3] وامر ان يكون حماد ووردان من خاصته باعطية تصرف لهما وان يقيما في قصرين داخل الجوسق مثل ضرغام . وامر بعقد كتاب ضرغام على جهان وانعم عليه نعماً شتى

ولما تم ذلك نقل ضرغام الانعام الى اصحابه وابلغ جهان ما اصاب الافشين وان الخليفة امر ان تعود تركة ابيها اليها بلا وصاية ففرحت ولكن ساءها ما اصاب الافشين

---

(١) ابن الاثير ٢١١ ج ٦ (٢) ابن الاثير ٢٢١ ج ٦ (٣) المسعودي ٢٦١ ج ١

ليس غيرة عليه ولكن كبير العقل يأسف لما يلحق البشر من اذى وان كانوا يستحقونه فانما استحقوه لضعف في فطرتهم هم غير مخيرين فيه

الفصل السادس والستون

محاكمة سامان

اما سامان فقد تركناه في السجن لا يكترث به احد الا وردان كان يتردد عليه من حين الى آخر ويسأله عن حاله على سبيل التهكم والتشفي . وكان ضرغام في شاغل عنه حتى اذا فرغوا من امر الافشين احب ان يطلق سراح سامان كرماً وفضلاً فقال وردان « اذا اطلقته فكأنك سجنتني مكانه ويهمني في الدرجة الاولى ان اسأله بعض الاسئلة واسمع جوابه عليها لاني رأيت منه اموراً لا تصدر عن البشر »

فقال « نسأل جهان عن رأيها في ذلك » قال « افعل »

فلاقى جهان وسألها عن اخيها فقالت « لا ادري ... وليتك لم تسألني عنه لاني احب ان انساه » قال « هو في السجن الآن فما الذي تريدين ان نفعل به »

فاطرقت حيناً ثم قالت « احب ان تسلقه ولكنني في شوق الى سرّ لا يزال مكتوماً عني — اريد ان اطلع على سبب غضب والدي عليه ثم نرى ما يكون »

فتذكر سرًّا آخر قد طال اشتياقه الى معرفته وهو حقيقة نسبه فعزم ان يستطلع والدته عنه بعد الفراغ من سر سامان

وامر باستقدام سامان من السجن الى منزله في جلسة حضرها ضرغام ووالدته وجهان وياقوتة وحماد ووردان وهيلانة وجعلوا محاكمته بيتية

دخل سامان دخول غريب تنبحه الكلاب ووقف وقوف مجرم يخاف العقاب وقد شوهت خلقته كأنما طبعت على صحيفتها دناياه ونقائصه . وكان رث السربال زاده الهزال ذلاً حتى اذا توسط الدار وقف محني العنق يجول ببصره في الجالسين فلما رأى ياقوتة ظهرت عليه البغتة فالتفتت الى جهان واجهش فسبقته الى البكاء وقد عزّ عليها ان تراه واقفاً هذا الموقف [illegible] ما ارتكبه فيها من السيئات ولم يبق احد

من الحاضرين الا رق لذلك المنظر الا وردان فانه لم تأخذه عليه شفقة وكان هو اول المتكلمين فقال «لا تخف ياسامان لم ندعك لمحاكمة على جريمة من جرائمك فانها لا تفتقر الى محاكمة ولا نعرف عقاباً يفي بها ولكنني رأيت في سيرتك ما ادهشني من من تقلبك في الايذاء فبين انت ناقم على الافشين لانه حرمك من الميراث تستعين عليه بالصاحب فاذا انت تستعين على هذا بذاك ثم بذاك على هذا واغرب من ذلك انك غدرت بأختك هذه وهي كالملائكة خلقاً وخلقاً وواطأت عليها افسق اهل الارض وهي مخطوبة وقد وثقت بك وعولت عليك في الفرار الى خطيبها . فرضيت ان تؤخذ غدراً وتحمل قسراً الى ذاك اللعين زعيم اهل الفحشاء . ولم تكن لتنال على عملك جزاء افضل مما قد تناله لو جئت بها الى سامرّا . ومع ذلك لم تنل من بابك غير الخزي . و بعد ان كنت نصيره خنته وبحت باسرار حصونه الى عدوّه وواطأت الافشين على اختك وعلى خطيبها . عرفتُ في الناس اشراراً يرتكبون افظع مما ارتكبته في سبيل غرض يعرفونه ويعرفه الناس واما انت فما عرفنا لك غرضاً . . »

وكان سامان يسمع قول وردان وهو يتظاهر بالاطراق وعيناه لم تنتقلا عن ياقوتة وان لم يظهر ذلك للحاضرين لشدة الحول . فلما فرغ وردان من كلامه ظهر الجد في وجه سامان وقال « تسألني عن اسباب لست اعلم بها منك . ارتكبت فظائع لم يعرف الناس الا طرفاً منها ولو سئلت عن اسبابها لم استطع جواباً وانما اعرف اني كنت ارتكب الخطأ ثم ابادر الى اصلاحه بخطأ افظع منه كأن اعمالي سلسلة غلطات والعمدة على الغلطة الاولى » قال ذلك وتغير وجهه وغص بريقه وتمامل فابتدره وردان قائلاً « ما هي تلك الغلطة»

فحوّل بصره الى ياقوتة واطال النظر اليها وعيناه ترتعشان ثم انتقلت الرعشة الى اطرافه حتى اصطكت ركبتاه وكاد يسقط فلحظ ضرغام ذلك منه فقال له « اجلس يا سلمان وتكلم » وقد استغربوا تغيره وطول نظره الى ياقوتة حتى نولاها الخجل وحولت بصرها عنه . فجلس سامان جاثياً وجعل رأسه بين كفيه واخذ بالبكاء بصوت عال يتخلله شهيق كثير حتى كاد يختنق فانكر القوم بكاءه لاول وهلة وحملوه على الحيلة ثم ما لبثوا ان تحققوا صدقه فصبروا عليه حتى فرغ من بكائه وهم ينظرون بعضهم الى

بعض . واذا بسامان نهض بغتة وترامى عند قدمي ياقوتة وتوغل في البكاء فدهش القوم ولا سيما جماد ووثب اليه ليرجعه عن امرأته فلم يطعه فقال له « ما شأنك يا سامان هم يسألونك عن غلطتك الاولى فاجب عليها »

فصرخ قائلاً وهو يشير الى ياقوتة « هنا غلطتي الاولى . . . هذه هي » وعاد الى البكاء . فازداد الحاضرون دهشة وظنوه جن ولا سيما جهان فقالت « قل يا سامان. صرح فقد حيرتنا .. ما هي غلطتك بياقوته؟ »

قال « بل هي غلطتي نفسها . . . وما هي بياقوتة وانما هي شهر زاد »

فلما قال ذلك صاحت آفتاب أم ضرغام « شهر زاد ؟. شهر زاد هي شهر زاد ! » . وكانت جالسة بالقرب منها فضمتها الى صدرها وقالت « قد تنسمت ريحك منذ لمستك للمرة الاولى ثم صاحت « جهان حبيبتي ألا تعرفين شهر زاد ؟ »

فبغتت جهان واعملت فكرتها وقالت « لا اعرف واحدة بهذا الاسم الا اختاً لي ماتت طفلة قبل أن اولد »

فقالت آفتاب هي هي اختك لم تكن ماتت بل ضاعت . . وانما قالوا ذلك تلطفاً وتستراً ولم يكن يعرف هذا السر الا انا ووالدك وساهان هذا وكان ضياعها على يده ولم يحضره سواه وكان قد خرج بشهر زاد الى البساتين وهي طفلة لا تكاد تستطيع المشي . فلما عاد سأله ابواك عن اخته فبكا وزعم ان فرساً من افراس النخاسين اختطفها منه — لان في تركستان جماعة يربون الخيل على النخاسة ويعودونها اختطاف الاطفال باسنانها فيلتقط الفرس الطفل باسنانه ويطير به الى منزل صاحبه — ولم يصدق والدك ما قاله سامان وغضب عليه من ذلك الحين واشاعوا انها ماتت »

وكانت آفتاب تتكلم والجميع سكوت كأن على رؤوسهم الطير . فلما فرغت اكبت جهان على ياقوتة وضمتها وطفقت تقبلها وياقوتة اشد فرحاً من الجميع لانها كانت تحسب نفسها جارية فاذا هي بنت المرزبان . فقبلت اختها والدهشة لا تزال سائدة والكل يقولون « لم تكن هذه المشابهة بين الاختين عن عبث » واخذوا يتساءلون وهم يحسبون انفسهم في حلم فقالت جهان « افصح يا سامان .. قل كيف اخذت شهرزاد منك »

فاجابها وهو يمسح دموعه « انتبهت لوجودي وانا في نحو العاشرة من العمر واختك هذه في نحو الرابعة ورأيت ابوينا يحبانها كثيراً ويدللانهـا ويهملانني فدبَّ الحسد في قلبي فصرت اظهر الكره لاختي وهما يزيدانني حسداً بتمييزها عني بالهدايا والنقود وكنت اذا طلبت نقوداً من ابي لم يعطني وأنا ارى النقود مع اختي أو حاضنتها وسمعت ذات يوم ان اناساً يطوفون البلاد يشترون الاطفال بالدنانير فغافلت الحاضنة واخذت شهر زاد الى البساتين فرأيتهم مارين فبعتها لهم بدينارين وعدت وساروا هم في طريقهم . ولما سئلت عنها قلت انها خطفت مني فلم يصدق والدي . وانتبه بعد ذلك اني بعتها وبعث من يفتش ويبحث بلا فائدة . فكرهني من ذلك الحين وهددني بالحرمان من ماله فصرت ارى كل الناس اعدائي وتوهمت ان كل حركة يأتونها انما يريدون بها نكايتي او اذيتي فاصبحت ولا هم لي الا كسب المال لاستعين به عليهم . واول سعي بذلته في هذا السبيل اني حاولت منع والدي من كتابة الوصية ففشلت فاردت اصلاح هذا الفشل فوقعت في فشل آخر وهكذا كما تعلمون . ولم ادرك هذه الحقيقة الا وانا في السجن منذ يومين » قال ذلك وتنفس الصعداء ثم عاد الى اتمـام الحديث وقد زاد وجهه امتقاعاً وبدت الرعدة في اطرافه والاضطراب في عينيه وقال « وقد تأخذكم الشفقة عليَّ بعد ما بسطته لكم فاعلموا اني لا التمس عفوكم لان من كانت حياته سلسلة فظائع لا يجوز ان تنتهي بغير القتل » قال ذلك واستل من جيبه خنجراً طعن به صدره وسقط يتخبط بدمه

فضج الحضور وابتعد النساء عن هذا المنظر وقد اسفوا على موت سامان بعد ان ايقنوا بتوبته فترحموا عليه وامروا بدفنه وكانت جهان اكثرهم حزناً عليه

الفصل السابع والستون

نسب ضرغام

وكان الجمع في اثناء ذلك يتحدثون بما علموه من القرابات الجديدة اذ تبين لهم ان ياقوتة اخت جهان وقد اقتسمتا الميراث . واصبح حماد وضرغام نسيبين وقد نالوا

حظوة في عيني المعتصم وتم لهم كل ما يبغونه الا ضرغاماً بقي في خاطره شيء يحب الاطلاع عليه فاختلى بوالدته يوماً وقال لها « ألم يئن الوقت لكشف حقيقة نسبي ؟ ما الذي تنتظرينه بعد الذي رأيته من نعم المولى ؟ »

قالت « لا انتظر شيئاً ولكنك مع ذلك لم تنل ما انت اهل له »

فقال « تعنين ان والدي كان اعز جانباً وارفع مقاماً مني ؟ »

قالت « نعم »

قال « فهو اذن من كبار القواد أو الوزراء واذا صح ذلك فلا يعقل ان يكون خبره مكتوماً عن الناس »

قالت « انه فوق ما ذكرت »

فبهت ثم قال « لم يبق الا ان يكون من اشراف قريش او بني هاشم أو بني ابي طالب »

قالت « انه اشرف من ذلك كثيراً »

فاطرق واعمل فكرته في ما تعنيه امه فلم يبق الا ان يكون ابوه الخليفة وهم ان يسألها عن ذلك فخجل وامسك نفسه وظل ساكتاً وهي تنتظر سؤاله فلما استبطأته قالت « لم لا تتمم اسئلتك يا ضرغام » .

قال « يخجلني ان اقول ما في خاطري »

قالت « لا تخجل ان تسأل اذا كان ابوك خليفة فانه كذلك »

فاجفل وقال « ابي خليفة ؟ . كيف يمكن ذلك . . ان المعتصم يصارعني سنا فلا يمكن ان يكون هو المراد ولا المأمون ولا الامين »

قالت « ان هؤلاء اخوتك »

فقال وقد اخذته الدهشة « فانا اذاً ابن الرشيد ! »

قالت « نعم يا ولداه وهذه اول مرة نطقت بهذه الحقيقة بعد مرور الاعوام الطوال »

قال « أليس في الدنيا احد سواك يعرفها »

قالت « كلا »

قال « وما معنى كتمانها كل هذا الزمن الطويل والناس يفاخرون بالانتماء الى اتباع الخلفاء فكيف الى الخلفاء انفسهم »

قالت « لذلك سبب معقول وهو اني كنت من جملة جواري الرشيد في قصره ببغداد وكان يستلطفني ويحبني حتى كانت الليلة التي فتك فيها باخته العباسة وبجعفر البرمكي وابنيهما الحسن والحسين (١) وقد بالغ في التكتم حتى قتل كل من استخدمه في ذلك الفتك . فلم يكن احد من اهل القصر يجسر على الخروج من حجرته مع انهم مطامون على كل شيء وهم بعيدون . الا انا فقد حدثني طيشي لصغر سني يومئذ ان اخرج لارى واسمع فوقفت موقفاً ظننت نفسي مختبئة فيه لا يراني احد فسمعت حديث الرشيد رحمه الله مع زوجته زبيدة بشأن اخته واشياء اخرى . وانا في ذلك رأيت زبيدة نفسها مقبلة نحوي وهي تقول « يا هارون ان جواريك يسمعن حديثنا » فوقع الرعب في قلبي وايقنت اني مقتولة لا محالة فلم تعد ركبتاي تحملانني من الرعشة ثم سمعت الرشيد يرعد بصوته من الغضب ويقول « من هذا ؟ » وامر مسروراً فحملني اليه فلما رآني اظهر الاسف عليّ لان قتلي لا مناص منه . فلما رأى دموعي رفق بي ولكنه كان شديداً في غرضه فاطرق لحظة ثم قال « يا حبيبة (وهذا كان اسمي عنده) قد سعيتِ الى حتفكِ بظلفك ويسوؤني ان تقتلي ولكن لا بد من قتلك»

فتراميت عند قدميه و بكيت وغسلت رجليه بدموعي وكنت يومئذ حاملاً بك فقلت « اشفق على صباي بل اشفق على هذا الجنين »

فوجم وتراجع ثم قال « اعفو عن حياتك ولكنني لا اقدر ان اراك ولا اسمع اسمك » ونادى مسروراً فاتى فامره ان يجهزني بالمال ويدبر نقلي الى البلد الذي اختاره فاخترت فرغانة لاني اعرفها من قبل ثم قال لي « احذري ان تفوهي بكلمة او تذكري سابق عهدك في هذا القصر أو انك تنتمين اليّ واذا وضعتِ غلاماً فاكتمي نسبه عنه واذا خالفت ما اقول عاد ذلك بالوبال عليك وعليه .. ولو علمت زبيدة باني ابقيت عليك لألحت عليّ بقتلك» وصرفني فخرجت مع مسرور في الليل الدامس الى

(١) اقرأ رواية العباسة احت الرشيد

خارج بغداد وقد اعد لي الاحمال واوصى المكاري بي ودفع اليَّ مالاً وجواهر تكفيني اعواماً وودعني . فقضيت في الطريق مدة طويلة ولدتك في اثنائها . واخيراً وصلت الى فرغانة فاقمت فيها وعرفت المرزبان وعائلته وطلبني اناس للزواج فابيت وانقطعت لتربيتك وانا كاتمة سرك وانت تطلب المجيء الى العراق وانا اخالفك . ولما مات الرشيد ما زلت خائفة من زبيدة حتى اذا ماتت هان عليَّ المجيء ورضيت بسفرك الى العراق كما علمت »

وكانت آفتاب تتكلم وضرغام يتطاول بعنقه للسماع وقد اخذته الدهشة . فلما فرغت قال لها « فانا اذاً اخو المعتصم »

قالت « نعم انك اخوه فاذا علم هو بذلك زادك تقريباً »

فهز رأسه هزة الانكار وقال « كلا . . ان هذا السر يجب ان يبقى مكتوماً بيننا لئلا يطلع عليه المعتصم فتتحول محبته الى حذر وكيد . يكفيني اني عرفت حقيقة نسبي ولا ارى فائدة من كشفه لان الناس لا يصدقوننا . ونحمد الله اننا نلنا من النعم والرتب فوق ما كنا نتمناه . وان وجود جهان في منزلي نعمة كافية احمد الله عليها وارجو ان يطول بقاؤك »

فوافقته والدته على الكتمان وعاشوا بعد ذلك برغد وهناء حتى تشتت شملهم و بقي هذا السر مكتوماً الى الابد

تمت الرواية